أنا وسطورهم



د. ريم هلال

كتابات حولي وحوارات معي

١٩٩٥ - ٢٠١٧

د. ريم هلال

أنا وسطورهم

كتابات حولي وحوارات معي

١٩٩٥ - ٢٠١٧

د. ريم هلال

أنا وسطورهم

كتابات حولي وحوارات معي ١٩٩٥ – ٢٠١٧

طبعة إلكترونيّة عام ٢٠١٧

الغلاف : من لوحات الخطّ العربيّ

كلمتي

د. ريم هلال

هذا مؤلَّفٌ جمعتُ فيه ، كتابات العديدين التي تطرَّقَتْ إلى تجربتيَ الحياتيّة والأدبيّة ، مما تبعثرَ في العديد من المطبوعات والدوريّات ، خلال اثنين وعشرين عاماً مضوا ، ذلك منذ صدور مجموعتيَ الشعريّة الأولى " العرّافة " عام ١٩٩٥ ، حتى العام ٢٠١٦ ، كما جمعتُ فيه الحوارات المكتوبة التي أُجرِيَتْ معي .. فلعلي أقدِّمُ بين دفَّتَيه مرجعاً متكاملاً ، للذين يريدون الإحاطة بمسيرتي الأدبيّة لأسبابٍ ما ، وأوفِّر عليهم جهودهم التي يُفترَضُ بهم أن يبذلوها ، بغيةَ لملمة المعلومات المتناثرة بشأني من هنا وهناك . لكن وأنا أستعرض مئات الصفحات هذه ؛ كم أمرُّ بأسماء من رحلوا إلى عالمهم الآخر البعيد دون عودة ! كم أمرُّ بأسماء من فقدوا وعيهم بفعل سنِّهم التي تقدَّمَت بهم ، إلى درجةٍ أنهم لم يعودوا يدركون من أكون ! كم أمرُّ بأسماء من غاب ذكرُهم عني ولم أعُدْ أعلمُ عنهم أيَّ شيء ! مؤلَّفيَ الجديد .. كم أراكَ تبعثُ على ألمي !

نبذة عن سيرتي الذاتيّة

د. ريم هلال

نُشِرَت في جريدة الخليج ، عام ٢٠٠٣

نشأتُ شبه مكفوفة البصر ، وبدلاً من أن يشكل هذا عاملاً لاستسلامي ويأسي وانكفائي على الظلمات التي فُرِضَتْ عليّ ، شكّل عاملاً لانطلاقي عبر الحياة باحثةً عن الضياء ضمن ما أمكن من الدروب ، ولا سيما درب العلم والمعرفة ، ودرب تكوين الحياة الاجتماعية المتوازنة ، ليكون شأني في ذلك شأن سواي من المبصرين. ولا شك أن هذا مرّرَني بالكثير من العقبات والمشاقّ ، نظراً لِما يتطلب من ضرورة تكييف ذاتي مع الظرف غير المألوف ، ظرف افتقاد إحدى الحواس المهمة لدى الإنسان ، وتحفيز ما لديّ من إمكانات وحواس أخرى لم يبخل الله عليّ في منحي إياها ، وفي جعلها ضمن المستوى الكافي من الاتقاد . وهكذا من خلال ما أمتلك، ومن خلال ما حباني به الله أيضاً من أسرة متميزة قادرة بإيمانها وثقافتها على استيعاب وضع خاص كهذا ، تمكنتُ من عبور طريقي خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، بتفوّق متميّز إلى أن حصلتُ عام ١٩٩٨ على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها ، وإلى أن أصبحتُ حالياً مُدَرّسة في كلية الآداب – قسم اللغة العربية بجامعة اللاذقيّة .

ولعل من أهم الصعوبات التي صادفتُها على درب تعلمي ، هو أنني لم أتابع دراستي المدرسية في مدرسة خاصة بالمكفوفين ، لعدم توافرها في محافظتنا ، إنما في مدرسة للمبصرين ، وما عنى هذا من ضرورة توظيفي القسري لبقايا بصري الضئيلة بغية تبيُّن الحروف والكلمات والجمل قراءةً وكتابةً ، واضطراري إلى تقريب الدفاتر والكتب حتى التصاقها بعينيّ ، وذلك بجانب نافذة مشمسة نهاراً ومصباح قويّ الإضاءة ليلاً . علماً أن ما سبق ذكري له لا يعني إيماني بضرورة إيداع المكفوفين في مدارس خاصة بهم ، بل إنني معارضة لهذا الأمر كل المعارضة ، ما دامت هذه المدارس تبعدهم عن الاندماج بمجتمع المبصرين الكبير الذي يحيط بهم ،

وما دامت طريقة " برايل " المستخدمة فيها تبعدهم بحروفها المنقطة الخاصة بهم عن حروف عربيتهم ، وتَحُول باعتمادها حاسة اللمس بصورة رئيسية دون الاستفادة من حاسة السمع التي تمتلك أهميتها الحيوية المتميزة في حياة الإنسان ، والتي تم تقديمها في الذكر على حاسة البصر في القرآن الكريم : " إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا " . لذلك فإنني أقترح بهذا الصدد أن تُفتَتَح شُعَب لهذه الفئة ضمن مدارس المبصرين ذاتها كي يتحقق لهم الدمج المطلوب ، وأن تكون تحت إشراف خبراء يعيدون النظر في طريقة تدريسهم مستفيدين من حاسة السمع بالدرجة الأولى ، ومن حاسة اللمس التي يمكن من خلالها أن يتعرفوا إلى حروف لغتهم ، وإلى ما لا يمكنهم الوصول إليه عن طريق الحاسة السابقة الذكر .

أما الصعوبات التي صادفتُها على طريقي الاجتماعي ؛ فبالرغم من التقائي الكثيرين من المتجاوبين الذين كان لهم دورهم في تذليل إعاقتي ، فقد التقيتُ أيضاً السلبيين الذين كان لهم دورهم في تدعيمها ، بل الذين كانوا أكثر قسوة منها وتسبباً في إيلامي ، متناسين أن النقص لا يقتصر على فئة المعوقين فحسب ، إنما يشمل البشر جميعاً ، لكن وفق صورتين متباينتين ما بين الظهور للعيان والتخفّي في الداخل . علماً أنني حين أجريتُ مقارنة مبدئية من حيث العدد ما بين صنفَي الناس أولئك ، انتهيتُ إلى أن السلبيين لا يشكّلون سوى قلة ضئيلة بالقياس إلى الذين يقابلونهم ، لكن القضية بالنسبة إلى خصوصية تجربتي لا تتعلق بهذا المقياس الكمّي بقدر ما تتعلق بعمق التأثير السلبي أو الإيجابي الذي يتركه الفرد في نفسي ، والذي قد يمتد بفعاليته وحيويته عبر حياتي كلها . كيف لا ؟! ومن الممكن لإنسان واحد ، واحد فقط ، أن يشعل بقعة من هذه الأرض ، أو لإنسان واحد ، واحد فقط ، أن ينبتها .

وبالرغم من الصعوبات هذه كلها التي مررتُ بها ، وبرغم تشكيلها محطات كثيفة الظلمات عبر حياتي ؛ فقد تمكنتُ شيئاً فشيئاً من التآلف مع حالتي الصحية الخاصة، التي شكّلَتْ الجذر الأول لمعاناتي ، إلى أن أصبحَتْ الآن صديقة لي ، صديقتي التي عوّضتني عن مصباحَي عينيّ المطفأين بِحاراً من الضوء تسكن

داخلي وتمنحني ما يكفي من الشعور بالدفء والسكينة ، والفرح بقضاء الله الذي سرعان ما تبيَّن لي أنه أكثر إشراقاً بكثير من قضائه بأن أكون واحدة من المبصرين.

منذ دخولي قسم اللغة العربية ، بدأ الناس يُسائلونني ما إذا كنتُ أكتب أم لا ؟ وماذا أكتب ؟ ولماذا لا أكتب ؟ فبدوا بذلك وكأنهم ينتظرون مني كلمتي بعد مروري بذلك الشطر من تجربتي التي عمّقَتْني في الكثير من آفاق الحياة الثرية . ومن هنا بدا أمري مختلفاً عن أمر الأدباء الآخرين ، لأن هؤلاء إذا كانوا يكتبون أولاً ، وتتم قراءتهم ثانياً ، فإنني أنا تَحلَّقَ من حولي قرائي قبل أن أكون قد كتبتُ سطراً واحداً .

وبالرغم مما أشعرَتْني به إلحاحات القراء من مسؤولية كبيرة تجاههم ، فإنني هنا اختلفتُ عن الأدباء الآخرين أيضاً من حيث تأخّري في الكتابة ، وفي إصدار أعمالي الأدبية العديدة ، ذلك لعاملين أساسيين : أولهما هو أنني منذ طفولتي كانت أحلامي متركزة في اتجاه آخر تماماً ، وهو احتراف الغناء ، بفعل امتلاكي صوتاً جميلاً . وحقاً حدث لي ما أردتُ ، إذ اشتركتُ في العديد من الحفلات الفنية ، وصُنِّفتُ مطربةً بناءً على نجاحي في مسابقة إذاعية لأصحاب المواهب ، وسُجِّلَتْ لي أغنيات عديدة في الإذاعة السورية ، إلا أنني بعد حين وجيز ما لبثتُ أن غادرتُ هذا العالم لأسباب عديدة ، يمكن تلخيصها مجتمعة في تعقد هذه المهنة وتعارضها مع ظروفي ، وعدم موافقتها لطموحاتي التي سرعان ما تبيَّنَ لي أنها أوسع بكثير من أن أؤدي ما يبدعه الآخرون من ملحنين وكتّاب كلمات .

أما العامل الثاني الذي أسهم في تأخري في الكتابة ، فيمكن تحديده في انشغالي بتحقيق تفوقي في دراستي الجامعية ، بصورة تَفوق ما كنتُ عليه في دراستي المدرسية ، ذلك كي تُتاح لي متابعة دراساتي العليا ، والحصول على درجة الدكتوراه التي سأثبت من خلالها مدى ما يمتلك المعوق أحياناً من طاقات قد تفوق ما لدى السليم . هذا بالإضافة إلى ما قادني إليه الحلم بتلك الدرجة العالية ، من الحلم بالتفرغ للبحث الأكاديمي ، الذي سيقرّبني خطوات أخرى نحو قدوتي " الدكتور طه حسين " ، والذي سيتطلب مني بذل كل ما لديّ من جهود وأوقات . وهكذا أستطيع أن أنتهي بشأن الكتابة الأدبية ، باختصار ؛ إلى أنني لم أتلكأ في القيام بها نتيجة

إهمال أو إيثار للتأجيل ، إنما نتيجة عدم دخولها آفاقي في يوم من أيام سنّي المبكرة.

ومنذ أن تجاوزتُ مرحلة الماجستير ، تبيَّنَ لي أنني أنفر كل النفور من هذا المجال الأكاديمي الذي اخترتُه ، نظراً لما فَرَضَ عليّ من أجواء انعزالية جافة ، مختلفة عن تلك الأجواء المنفتحة الحيوية التي شهدتُها في عالم الغناء . لذلك لم أجد بداً حينئذ ، إلى جانب اجتيازي مرحلة الدكتوراه ، من أن أتوجه إلى مجال الإبداع الأدبي الذي ألفيتُه يشكل استمراراً لغنائي ذاك ، من حيث تمكّني عن طريقه من تواصلي مع ما تعدد من شرائح الناس ، بل الذي ألفيتُه يتميز من حيث تمكّني عن طريقه من التعبير أنا شخصياً عما أريد التعبير عنه بدلاً من أن أردد – كما حدث في الغناء – ما عبّر عنه الآخرون .

لقد كانت بداياتي الكتابية أولاً ضمن المجال الشعريّ ، ربما استجابة لما حدث لديّ من تدفق شعوريّ تجاه تجربتي الذاتية التي أصبحتُ أكثر تبصّراً بها في تلك المرحلة الناضجة ، وتجاه تجارب الآخرين التي تبيَّنَ لي أنني أتفاعل معها إلى حدّ التوحد بناءً على ما مررتُ به شخصياً عبر أعماق الحياة . هذا بالإضافة إلى ما أعبر عنه من خلال قصائدي من الصور الحياتية والكونية المتنوعة التي أجد فيها دائماً من أدقها إلى أوسعها مصدراً للإلهام الإنساني بفعل ما تُذكّرنا به دائماً من أدقها إلى أوسعها من عظمة الإبداع الإلهي .

ثم انتقلتُ في كتابتي إلى سيرتي الذاتية ، فصدرَتْ لي عن دار الآداب ببيروت " البصر والبصيرة " ، التي قصصتُ فيها حكايتي الشخصية على درب حياتي منذ لحظة ميلادي حتى لحظة حصولي على درجة الدكتوراه ، بكل دقائقها وتفاصيلها ، وبكل ما انطوت عليه من الآلام التي كان لا بد أن تتأتى من وضعي الخاص ، والأفراح التي كان لا بد أن تتأتى من تحديَّ هذه الآلام ، بما امتلكتُ من إرادة وإيمان . وإذا ما ظهرتُ مبكرة في إصدار سيرتي ، فإن هذا لم يكن إلا من أجل أن أقدم رسالة إلى الناس اليائسين المعوقين وغير المعوقين ، فأبيّن لهم أن الحياة لا بد

أن تنطوي على جانبها المضيء الجميل ، لكن الذي لا يتم الوصول إليه إلا بِحَثّ الخطى ، وعدم المكوث المستسلم في جانبها المظلم .

ثم انتقلتُ مؤخراً في كتابتي إلى الخواطر النثرية ، التي سُررتُ بها كثيراً ، لعثوري فيها على ما يمكن أن يحقق تواصلي مع الناس جميعاً ، دون تمييز ما بين قادر على استيعاب الشعر وغير قادر . علماً أنني من خلال خواطري هذه حاولت أن أطرق المجالات ذاتها التي طرقتُها في الشعر ، ذلك لكي أجعل القراء ينفتحون من خلال هذا الجنس الأدبي الأكثر يسراً ، على ما لم يتمكنوا من الانفتاح عليه من خلال الجنس الأسبق . كما تجدر الإشارة إلى أنني لم أجعل كتابتي النثرية نثرية خالصة ، إنما حاولتُ مراراً أن ألونها بما جادت به قريحتي من أنفاس شعرية لم أتمكن من التخلي عنها ، فلعلي بهذه المزاوجة أثبت قدرتي على الإبداع ضمن الجنسين الأدبيين المذكورين في آن واحد .

مقدّمة المجموعة الشعريّة الأولى للدكتورة ريم هلال

" العرّافة "

كتبها الروائي : حنّا مينه –٧ /١٩٩٥/٧

كلام في الشعر !

" ريم هلال " موضوعاً

الروح الحنون التي تنساب نسغاً في الكلمات ، تعطي للكلمات أن تقول ذاتها مشفقةً حدبةً ، كأنما تطل على الدنيا في شيء من وجل ، أشبه في خفرها بالشمس التي تبزغ على استحياء ، في يوم غائم من أيام الشتاء ، حيث تطلّ ، ونعرف أنها تطلّ ، من فجوة في الغيم ، وراءه زرقة سماء ، من تحتها أديم أبيض أبيض من سحب حليبيّة ، نُدفت بيد منجّد فنّان ، تَرفّق بها حتى صارت شلولاً عجيباً ، ترغب وأنت تراه ، أن يكون لك جناحا كناري ، كي تمرق بينه ، دون أن تخدش نديفه ، وكي تَسْتحمّ به كما يُسْتحمّ بالنور أبلج في بكرة من صباح .

ومن السطور الأولى ، في هذه المجموعة الشعريّة ، التي تتواضع ريم هلال فتسمّيها مجموعة أدبية ، تدخل في عالم إيماء ، هو في إيمائه ، أبعد من الظنّ ، يرفّ هوناً فهوناً ، وأنت تسعى للقبض عليه دون أن تفلح في هذا ، ودون أن تيأس منه ، لأنك ، في إغراء التأمل ، تحسب أنك بلغت منتهى التأمل ، ثم تكتشف ، بأسىً تارةً ، وبفرح تارةً أخرى ، أن المنتأى عنه واسع ، وأنك أمام عذوبة تذوب عذوبة ، تشفّ ، ترقّ ، تندى ، بالمسرّة والفاجعة معاً ، نداوة ابتسامة حيرى ، بين أن تكون للحزن ، أو تكون للبهجة ، مع شاعرة تكتب ذاتها على ذاتها ، في بوح ولا بوح ، لأن الأشياء هنا نجوى قلب مصرور بغشائه ، كما تُصرّ الفكرة في غشائها ، فلا يُبان لك ، إلا بجهد مساغ ، ما انطوت عليه من أمداء ، فيها الفكر منسرح ، مريح ، وهو لذلك يخدعك عن نفسه ، فتحسب أنك بلغت منه ، عبر انسراحه والراحة ، ما شئت من فهم ميسور ، وهو ليس بالميسور ، لأنه ، بدلالة الكلمة ، يمنح دلالة كلمة مشحونة بعاطفة متقدة ، مخبوءة جيداً تحت رمادها ، وأن عليك أن تفجّ هذا الرماد ، بذكاء ، وتأنٍّ ، وقراءة سابرة ، حتى تبلغ الوهج القدسي الكامن ، في جذوة صبا محروم من التمتع بصباه ، وهنا مأساته التي ارتفع عليها ، لأن ضربة القدر لامست نحاسيّة قدرها ، فكان الرنين جواباً في أن الإنسان أقوى ، كما الحب أقوى ، عندما نَجبَه العاهة بما يجعلها ذلولاً ، وهذا ما فعلته ريم هلال ، وبكبرياء صبر ، فانتصرت على عاهتها ، وبلغت ما تشاء ، أو ما تشاء لها موهبتها ، هذه التي أرغب عن اللفظة المناسبة كي أصفها بالعبقرية ، مع أنها تستحقها تماماً ، وكي لا أنسى أن النبوغ ، مع البذل ، والشجاعة ، والإقدام ، يكون نبوغاً تفجّر بالسلك المكهرب للممارسة والدأب ، وسهر الليالي الطوال ، لا بما هو غيرها .

إنني لا أكتب عن ريم هلال بما هي كائنة ، بل عنها بما سوف تكون ، مع وثوق في أنها ستكون ، ويكون لها ، مع هذه الإرادة ، حضور وشهرة ، إذا ما ثابر عبد القادر هلال ، والدها ، في الوقوف معها وإلى جانبها ، وما أشكّ ، وإذا ما رعاها رعاية أديب لا يكتب الأدب ، وما أشكُّ في أنه قادر عليه لو أراد ، وبالغَ بالحرف ، ذلك التقاطع الجميل مع حروفنا ، لو سمحَتْ ، حتى مع هذا العمر ، ظروف

التعامل مع القانون والتحكيم ، في أن يتفرغ لما هو أكثر من كتابة الرسائل لنا ، نحن أصدقاءه ، الذين نؤمن ، كما يؤمن ، بصداقة الرجال .

هذا الاستطراد ليس مجانيّاً ، وليس انحرافاً عن الخط الرئيسي إلى خط فرعي ، في نوع من شطحة قلم ، إنه أساسي في وصول ريم هلال إلى دراسة الدكتوراه التي من المفروض أنها تكتب رسالتها الآن ، بعنوان " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " ، بعد أن نالت الماجستير قبل عامين ، وكان المشرف على رسالتها الدكتور فؤاد المرعي ، من جامعة حلب ، هذا الأب ، أو الأخ الكبير ، الذي اكتشف موهبة ريم ورعاها مقدّراً فيها تصدّيها لموضوع مهم كموضوع " المنهج النقدي عند طه حسين " ، لا انتقاصاً منه ، ولا استخفافاً به ، إنما تجرّأتْ فيه ، فانتقدت عميد الأدب العربي ، مما أزعج لجنة مناقشة الرسالة ، أو أحد أعضائها على الأقلّ ، فانتهرها بقبح من الكلام ، لا يليق بأستاذ جامعي ، دون أن تتراجع ريم، ودون أن تأبه لهذا التصنيم ، الذي لا ينطوي على إعجاب بطه حسين ، بقدر ما ينطوي على ضغينة لصاحبة رسالة جامعية ، كفيفة البصر ، لكنها ، في البصيرة، كانت أبعد نظراً ممن تحامل عليها ، تغطيةً لجهل ، أو شفاءً لكيد ، استعلَنَ في العلامة البائسة التي وضعها لها ، مما أثار دهشة حشد من الذين حضروا مناقشة الرسالة ، وهم نخبة من الأساتذة والمثقفين في اللاذقية .

إن الاحترام يستوجب مثيله ، والعكس صحيح أيضاً ، غير أن الإشارة إلى هذا الذي حدث ليس دافعُه كشْفَ خطلِ المنطق ، عندما يتلبسه الإثم ، وإنما توكيد أمرٍ غاية في الأهمية ، هو جزء من التشكل النفسي الصلب لريم عبد القادر هلال ، التي بدل أن تتضعضع ، تجلّدت ، وكان تجلدها جزءاً من تربيتها البيتية ، بإشراف أسرتها ، ووالدتها تخصيصاً ، هذه الوالدة التي بدأت معها من الصفوف الابتدائية ، وأكملت بغير ونىً ، حتى بلغت ما بلغت ، ودون أن تفتر لها عزيمة ، ودون أن تعترض والدها في الدراسة مسألة إلا حلها بالحوار البنّاء المنفتح ، كما بين صديقين حميمين .

وقد لفَتَني ، وأنا أقرأ هذه المجموعة الشعريّة ، أن صاحبتها ذات شفافية عالية ، وأنها في التعبير عن مشاعرها إزاء ما بها ، وتجاه الحياة المتلمَّسة من حولها ،

امتازت بالهدوء المقرون بالإيمان والثقة ، ومن منطلقها تغلبت على مراودة الأسى ومنه الشكوى ، وأرسلت في وداعة النفس إشارات تنبئ عن وداعة واعية مضمرة تتوثب فيها النفس على الأذى تمرّداً ، وهذا في رأيي هو السبب ، أو بعض السبب ، في أنها اختارت لرسالة الماجستير نقد طه حسين موضوعاً ، كأنها تريد أن تقول لنا: كلانا مستطيع بغيره ! وكلانا يستمد من هذا الغير مساعفة ، لا ليكتفي بها ، وإنما ليتجاوزها ، وقد تجاوزها المعلم ، فلماذا لا تتجاوزها التلميذة ؟

إنه الطموح المشروع كلياً ، وهذه هي الكلمة الدالّة ! طه حسين أوصله طموحه إلى الذّرى ، بسبب من أن طموحه هذا كان يستند إلى موهبة أيقظتها مبكراً هتفة صادرة من الأعماق : " أنا الطائر المحكي ، والآخر الصدى " قولة المتنبي . وريم، المستندة موهبتها إلى يقين ، أيقظت هذه الموهبة في ذاتها وفي من حولها رغبة في الاقتداء ، وكانت القوة معروفة ، وكانت القدوة مأمولة ، وكان السعي إلى أن تكون المقتدية على مسافة ما ، ولو طويلة ، من المقتدى به ، دافعاً إلى جعل هذه المسافة تتقاصر ، والحكم ، في هذا التقاصر ، وإلى أي مسافة ، متروك للزمن ، وظني أن بالإمكان من خلال هذه المحاولة الأولى أن نتوقع ، وليس بغير أساس ، أن الكثير مما بلغه طه حسين ، ستبلغ قليله ريم عبد القادر هلال ، ما دامت محاولتها هذه ، في وجهٍ من وجوهها ، تُياسِرُ إلى العملقة ، في المقبل من المحاولات ، شعراً ونثراً ، دراسة ونقداً . ذلك أن زنبقة الحقل بشارة ربيع ، ونجمة الصبح ومضة نهار ، وصفاء الكلمة في رقرقة ساقيتها تدفاق ينبوع ، وشرط هذا كله أن نذهب مع التجربة في مظانها النفسية والحياتية إلى مداها ، وألا نغالي ، ولا نجانف الموضوعية ، وأن نكون في الصريحين ، عندما نقول لريم : أنت على موهبة ، وعلى إرادة ، وعلى طاقة حسنة في التعبير ، لكنك لا تزالين في البداية ، والبداية يسيرة بقدر ما هي عسيرة ، وكل شيء يتوقف على الاستمرار ، وعلى النظر إلى ما هو بين أيدينا نظرة تقويم ، لا هي إلى التبخيس ، ولا هي إلى التدليس ، وأن الفشل مئة مرة ، كما يقول أديسون ، يعلمنا تجربة مئة مرة من الفشل ، وهذا يفيدنا جداً في عدم الإصابة بالإحباط نتيجة الفشل ، وعدم الإصابة بالغرور نتيجة النجاح ، وإذا كنا على طريق

الغاية لا نزال في الخطوة الأولى ، فإن كل طريق لكل غاية يبدأ بالخطوة الأولى هذه.

الآن ودفعة واحدة ، حقّقت ريم أكثر من خطوة ، عبّرت عن مشاعرها وأفكارها بطريقة التأمل النفسي ، ومن الداخل دائماً ، ولأنها عبّرت بطريقة غير قسريّة عن كل هذه المشاعر والأفكار ، فإنها بلغت الفن ، لأنه قبل التعبير لا يكون الفن فناً ، فالمهم أولاً وأخيراً أن تكون لنا تأملات ، وأن تكون تأملاتنا وكذلك كل تأملات حاملة لفكرة ما ، لخاطرة ما ، لإحساس نفسي بعينه ، يقترب من الفن أو يبتعد ، بمقدار ما نحسن معالجته ، والكيفيّة التي نعالجه بها ، وإلا اختفى التمايز بين الفنّان وغيره ، فما من إنسان غير متأمل في الحياة الممنوحة له كعمر ، إلا أن الإنسان المتأمل ، والقادر على التعبير الفني عن تأمله هو الفنّان الذي يجتاز الامتحان الصعب ، امتحان العمادة الفنيّة ، وفي هذه النقطة يتجلّى الإبداع ، ويحقّ لنا من بعد أن نقول : هذا مبدع ! تاركين للمستقبل أن يحدد جوهريّة إبداعه ، من حيث الدرجة التصنيفيّة ، بين عاديّ ومتوسّط وعظيم ، وفي الشعر خاصّةً ، حيث لا مجال للوسطيّة ، فالشاعر يكون طائر شوق إلى التحليق ينزع ، أو لا يكون هذا الطائر ، فينتفي تحليقه وانتماؤه الشعري ، ولا يكون له شأن ، كما في الأجناس الأدبية الأخرى ، القابلة للوسطيّة ، في القصة أو الرواية أو المسرحيّة .

إن الوردة بطبيعة الحال لا تعرف أنها وردة ، أو هذا هو المفترض ، والنظرة إليها تختلف من ناظر إلى آخر ، فالذي يتعامل معها كنبتة جميلة ، يكون حظه أن تخلع الوردة عليه حسنها ، أما المتعامل معها كمادة للصياغة الإبداعية ، فإنه هو الذي يخلع عليها من بهائه بهاء ، وعندئذ لا تبقى الوردة في الحالين على نفس القدر من الأهمية ، ففي الحالة الأولى تتحصَّلُ لنا منها رؤية فوتوغرافيّة ، وفي الحالة الثانية تتحصَّلُ لنا منها متعة فنيّة ، لأنها ، الوردة ، صارت موضوعاً لشيء إلهامي وكل موضوع لهذا الإلهام المعالَج فنياً ينبثق من فكرة ، كما انبثاق الوردة من البذرة .

بهذا المعيار ، الطبيعة معطىً جامد ، مهما يكن تأثرنا بها ، لكن الطبيعة في الأنسنة ، تصير طبيعة أخرى ، يضفي الإنسان عليها إنسانيّته ، فإذا نظرنا إليها في لوحة ، أو قرأناها في وصف ، نجد أن الطبيعة قد تكشّفت عن مفاتن كانت خبيئة ،

أعمق أثراً ، وأبقى تأثيراً ، وقد أبرزها لنا في حضورها الآخر المؤنسن ، مبدع ما ، في جنس أدبي ما ، أو جنس فني ما ، ولهذا تكون الشجرة في الطبيعة مجرد شجرة، أما في الإبداع فتتخلق شجرة أخرى إبداعيّة ، وكذلك الحال بالنسبة للحجر ، قبل النحت وبعده ، وللّون ، قبل الاشتغال عليه . وبعد هذا الاشتغال ، وظني أن هذا الفارق واضح ، في التعاطي الشعري لدى ريم هلال ، إذا ما استطعنا أن نكتنِهِ الصورة التي وراء الصورة ، في سياق الشطر الشعريّ ، وتواصلنا مع البعد البعيد الذي فيه الجمال كل الجمال ، لأنه بعيد ، والجمال في البعيد يترسّم ، والشمس عند الغروب مثلٌ على هذا الجمال الذي نتذوقه في بُعده ، وفي بعده وحده ، لأنه ثمة يكون جمالاً حقيقياً .

ناحية أخرى أرغب أن ننتبه إليها . هيغل يقول : " الشاعر لا يوجد بالقوة بل بالفعل " ، وبعبارة أخرى ، الشاعر يكون شاعراً لا بالصراخ ، أو الاعتساف ، أو الافتعال ، وإنما بالسيالة الشعرية التي منها الترسّل ، نجده ، ونحسبه ، عفوياً ، وهو ليس بالعفوي ، وكذلك ليس بالقصدي ، لأنه يتأتى من الإحساس الناضج ، والتخمر الفكري الجيد ، وينبثق عندما ينبثق كالنبع الرقراق ، أو المتدفّع ، تحار في القوة الدافعة له ، هذه التي في باطن الأرض ، تحرك ما هو ساكن ، بغير أن نستشعر أن هناك وراء المسيل الهادئ أو الهادر قوة دافعة أو محركة ، فالعفوية التي يجري بها الماء هي في هذا المجال عفوية متماهية بالقصدية .

لبلزاك ، برغم أنه غير شاعر كلمة في الشعر جميلة : " من الثابت أن الإلهام يبسط للشاعر مخايل تهاويل ملونة ، متغيرة ، لا تحصى ، تشبه الرؤى في أحلامنا". لندع جانباً الإلهام الذي تحدث عنه أسلافنا في صيغة شيطان يحضر في وادي عبقر ، فيلهم الشاعر ، ويضع على شفتيه ، ما أترع به قلبه من صور . ولندع ، جانباً أيضاً ما يقوله أشقاؤنا اللبنانيون ، وهم في الشعر من هم ، عن الجبل المُلْهِم ، والمُلْهَم ، جبل لبنان الذي يتكشف في كل واحد من وجوهه عن دوائر من الجمال تتداح للرائي في تداويق عجيبة ملهمة ولنقُل : إن الطبيعة في كل تجلياتها الفاتنة تُحدِث في النفس إحساساً مترعاً يمد الخيال بالطلع الذي يلقح الزهرة فتثمر ، ولنذكر هَهُنا اثنين فقط هما بشار بن برد ، وأبو العلاء المعري ، ولنتساءل : كيف استقام

في شعرهما الإلهام إلهاماً ، وهما في غير المبصرين ؟ في الجواب أقول إن التأمل الداخلي يقوم لدى الشاعر مقام التأمل الخارجي ، فيبعث في النفس تخييلاً يتطابق في التشكل مع ما هو داخل وخارج ، فيكون التأمل في وداعته أو تهيجه ، انبجاساً لرؤىً تسعف في التعبير الشعري ، وهذا في رأيي هو الفيض ، كما عند ابن سينا ، ومنه الروح التي تتخلق أرواحاً لا حصر لها ، وهذا الروح الفيضي في غناه وتنوعه يمد الإحساس الإنساني بثراء من الخواطر تعطي الموهبة الشعرية في فطرتها ودربتها القدرة على غَزْل الرؤى ، في الطبيعة وفي النفس ، غزلاً إبداعياً يبلغ مثلما عند ديستويفسكي ، حد الانخطاف في الصَّرع المَرَضي حيناً ، وفي القلق الفني الزاخر بما هو شبيه بهذا الصَّرع ، من الناحية التعبيرية.

ريم عبد القادر هلال ، في هدوئها وصمتها ، تتأمل وتتأمل ، وتأملها هذا من النوع الوادع ، وهذا ما أعطى رؤاها وداعة متميزة تشف ، كما نفسها ، عن أحاسيس تبعث الشعر النثري الهاجع في قاع الذاكرة بعثاً فيه إحياء للعواطف الحبيسة المصاغة في هذا الذي تقول إنه مجموعة أدبية ، وهو مجموعة شعرية لا تدَّعيها تواضعاً ، وكان من حقها أن تفعل ، فالهدوء والصمت في مثل حالها ضروريان ضرورة تلازم ، يستعلنان عبر تأملاتها العذبة التي نستشفها في رقة وتحنان مرة ، وفي حزن تندى معه الكلمات أسىً مرات ، لكنها ، ريم ، تجيد التخفّي ، فلا تطلّ " أنا " ها من بين الأسطر الشعرية ، تاركة لنا ، فعل المتمرس ، أن نجدها في منمنماتها دون تدخُّل منها ، وهذا ، في امتلاكها للمعلمية ، امتلاك مبكر جداً ، يمدنا باليقين أنها مع الأيام ستمتلك هذه المعلمية بشكل واعٍ ، إن كانت لديها ، وما أظن ، عفوية الآن ، لذلك علينا أن نفكر ، وأن نتأنى في التفكير ، فالأشياء ، في هذه المجموعة ، جدار فني في معبدٍ بوذيٍّ ، يغريك بأن ترى ما وراءه ، وليس ما أمامه ، من تماثيل تبلغ في جمالها الفني حد الإبداع العظيم . وهذه الدعوة إلى التفكير ، وإلى التأني فيه تلخصها عبارة : " رَ ، تأمَّلْ ، فَكِّرْ " ومن البدهي أن القارئ الذي يرى ، ثم يتأمل ، ثم يفكر ، سيجد أن وراء هذا الظاهر من اللفظ الشعري معطىً شعرياً آخر ، بعيد الأمداء ، بعيد المرامي ، عميق المعنى ، لا يتكشّف بسهولة ، برغم أنه يغري بها ، لا لأن ريم هلال تميل إلى الإبهام ، أو تجنح

إلى الغموض ، أو يستهويها اللبس في الكلمة ودلالتها ، بل لأنها تعرض علينا لوحات من تأملاتها ، في ما يخصها ، وفي ما يخص غيرها ، أو في ما يخص الحياة الجارية من حولها ، وهذه التأملات ، شعرية فكرية ، تقطر عذوبة ، وترشح نشوة ، وتعمر حباً إنسانياً رفيعاً ، تجد فيه العزاء خلّاقاً ، لا واهناً ولا مستعطفاً ، والملذات مسكونة بالخفر ، تمتنع على الأنين ، على الشكوى ، على اليأس ، في انزياح واضح عن خط من هنّ ، ومن هم، أكثر عافية منها ، لكنهم أقرب إلى الندب ولا مأتم ، وأدنى إلى الإحباط ولا مبرر ، وأسرع إلى النواح ولا موجب ، مع كل ما يتدافعنا في هذا المجتمع العربي من بلوى تريد بنا أن نَهِنَ فنأبى ، لكنا نعذر من يَهِنون ، ونعذر من يتعبون، ونعذر من يشكون بؤسهم ، والبؤس صار لباساً للأكثرية من خلق الله في هذا الوطن العربي ، وليس في مرمى النظر من خلاص قريب ومأمول من كل ذلك .

الشجن ههنا مضمر وعلى استحياء ، ولو لم يكن ، لتبدَّى التجلّد أحادي التمظهر، فيه قدر من التصنع ، ينأى به عن الخلجات الحقيقية ، لقلب بشري يحس بما تحس به القلوب الملتاعة ، بسبب من أن صاحبته تعاني ، مثلها مثل الآخرين ، من الذين تلقّوا ضربة قدر لا تُدرأ . إن النفس في صدق التلقي تعطي صدقاً في الأداء ، دونه تنتفي المعادلة في طرفيها السالب والموجب ، وكذلك في جدليتها ، ما بين فرح ونقيضه ، فالتي ، في نبوغها ، كانت المجاهدة أساساً لما فوقها من وثوق مطمئن ، ومن هناءة النجاح المتصاعد ، تلوي عنق الحقيقة إن هي اصطنعت ما هو أكثر من الشجن ، وعلى مهاد من إضمار ، فالمرء حتى في قلب مأساته تتمرأى إرهاصات ملهاته ، إن لم تكن اليوم ، فهي كائنة غداً ، لاقتران التَّعَس في دنيانا بالسعد ، اقتران الحب بالكره ، في وجهين متقابلين لآلية التكوين النفسي ، وإلا كانت المنعكسات غير سوية ، يشوبها خلل ما في فيزيولوجية البنية الجسدية ، وكذلك في سيوكولوجية التكوينة النفسية الطبيعية ، ونحن في القراءة المعمقة لهذه المجموعة الشعرية وفي الاستبصار المؤدي إلى الكشف ، نلحظ هذا الشجن المضمر ، كما نلحظ إمكانية تخطّيه في ابتسامة ترى ولا تُرى ، وفي إقبال غير خافٍ على الحياة التي تمور بها استثارة بين السطور ، تنبئ بفرح داخلي نابع من شعور بالتفوق .

إن النساء ، ولو في القرارة من نفوسهن ، يمارسن دونما وعي أغلب الأحيان لعبة لا متناهية في لون من الحب ، تجعلهن استثناءً في سريرة الطهر غير المعلنة ، وفي امتزاجية عجيبة بين الحلم والواقع ، وكثيراً ما عوضهن الحلم مقتنصاً عن واقع غير مقتنص ، وليست تجليات مثل هذا الحلم في الرغبة بالشيء ، وفي الاشتهائية الجسدية المقرونة بهذه الرغبة ، هي ملائكية دائماً ، أو شيطانية دائماً ، ففي كل نفس نزعتان ، إلى الخير مع التصعيد ، أو إلى الشر مع الفشل في التصعيد ، وهذا أيضاً ينطبق على الرجال ، عفافاً مفروضاً معه التعب ، ودنساً مريحاً معه الري بعد ظمأ ، شرط أن نفهم العفاف والدنس في إطارهما النفسي البحت ، الإطار الأشد تعقيداً مما نظن .

ولأن ريم وُفِّقت ، في كتابتها وفي حياتها ربما إلى التصعيد الذي منه الخير ، فإنها عرفت بَرَكة الاسترخاء في المشاعر الداخلية ، وانعكس هذا على شعرها الذي تجنح فيه إلى البساطة والإيحاء ، وبذلك توصلت إلى أن المستقبل حقيقة ، وأن هذه الحقيقة المستقبلية في صالحها ، لأن الزمن في صالحها ، وهي تتقدم بخطىً ثابتة واثقة مع زمنها الإبداعي هذا إلى النجاح المأمول في أعلى درجات التحصيل الجامعي ، غير المطلوب للوظيفة التدريسية بذاتها ، وإن كان هذا هدفاً كبيراً ومشرّفاً، بل لجعل هذا التحصيل المعرفي في خدمة الأدب الذي هو الآن بالنسبة إليها هواية ، وفي الغد احتراف ، تطلع به على الدنيا ازدهاءً يرضي طموحها ، ويبوّئها المكانة المؤهلة لها .

لكنني أبادر إلى القول ، لقلب شاعرتنا الكريم ، إن هذه المجموعة الأدبية كما ترغب أن تسميها ، فيها شذا الندّ من الكتابة ، لكنها ليست الكتابة ذاتها ، وكل شيء، بعد ، يتوقف على مقدار اشتعال العود ، ومقدار ما يعطي من شذىً ، وهذان الأمران يتطلبان جهداً يكبر بحجم كبر المراد ، وما تأخذني ريبة في أنها ، في مرادها ، تتطلب الأصعب كي تبلغ الأرقى ، وكلما تطلبت الأوسع في الثقافة ، وفي جعلها في خدمة كتابتها الأرقى ، تجد الأصعب مضاعفاً ، ممتنعاً ، وفي مجاهدتها لتذليل الصعب ، وتطويع الممتنع ، لن تكون طريقها سالكة معبدة ، وإن عليها أن تعي بدهيةً مفادها ، أن مهنة الأدب هي السبيل الأقصر ، أحياناً ، إلى التعاسة ،

وقد كتب هرمان هسّه ، الكاتب الألماني ، يقول : " الكتابة بالنسبة إلينا نحن الكتاب، هي في كل وقت عمل مجنون ومثير ، ورحلة في مركب صغير بعرض البحر ، وتحليق متوحد عبر الكون ، وعندما يحاول المرء أن يختار واحدة من ثلاثة يعرضن أنفسهن ، يصارع في الوقت نفسه ليمسك إحساس وروح الجملة التي ينشئها بالكامل ، وبينما هو يصوغ الجملة في التركيب الذي اختاره ، ويُحكِم رتاجات بنائه الشامخ ، يجاهد في ذات الوقت لكي يُبقي بذاكرته روح واتساق الكتاب بأجمعه ، وهذا نشاط مرهق ، فالعمل الأدبي في طبيعته يتطلب قدرة مرهقة على التركيز ، بحيث يصبح من الممكن تماماً أن يتغاضى الكاتب ، في خضمّ الاندفاع الإبداعي المكثَّف ، عن العوائق والفوضى الخارجيّة " " هرمان هسّه – سيرة ذاتية – ترجمة محاسن عبد القادر " .

هذا الذي يقوله هرمان هسّه حول الكتابة صحيح مبدئياً . الكاتب في معاناته يثير الشفقة ، لأنه في صراعه مع ذاته المبدعة ، ومع بنائه الإبداعي ، يصل حد الإنهاك ، لذلك يلعن الكتابة ويحبّها ، يجد فيها وطأة العذاب وبهجته . إضافةً إلى هذا فإن هرمان هسّه يهوّل قليلاً . هذا الكاتب الرائع في مؤلفاته كلها ، يمتلك الصفاء الكلي ، والنقاء كله ، خاصة في كتابه الرائع " لعبة الكرات الزجاجية " ، لكنه في سيرته الذاتية التي كتبها في الشيخوخة يسفر عن وجه آخر أقرب إلى الشكوى ، وإلى التبرم ، والضيق بالحياة والناس ، ويفصح عن آراء ، حول الكتابة تعبّر عن تذمّره من مهنة حمل الصليب هذه ، غير أن المنذور لهذه المهنة يتقحّم ما هو صعب فيها ، خاصة قبل الشيخوخة ، ويفوز بالإبداع وأداء الرسالة معاً .

ريم عبد القادر هلال ، المستطيعة بغيرها ، استطاعت بنفسها ، وعندما وصلتني مجموعتها هذه ، مضروبة على الآلة الكاتبة ، وأُخبِرتُ أنها هي التي فعلت هذا ، أخذني دهش غير قليل ، وهذا الدهش لا يزال يلازمني وأنا أتساءل : كيف ؟ لكن جبروت الإنسان ، هذا الذي قال عنه مكسيم غوركي " إنه يصدح بفخر " حملني على الاقتناع بأن النبوغ في شموليته يشمل فعله المعجز في الأمور ، وهذا بعض معطياته . وكما فعلت ريم في مجموعتها الشعرية تفعل الآن في كتابة مذكراتها ، التي أسمتها ، في خروجها من الرمز إلى الإفصاح : " البصر و البصيرة "، وأرجّح

أن هذه المذكرات تتناول حياتها ذاتها ، في وعي الوجود ، ووعي العاهة والتغلب عليها أو الانطلاق منها للتأكيد على الغلب عليها ، في العيش والدراسة ، وصولاً إلى ما وصلت إليه الآن .

ولقد كنت ، في رغبة تقاطع حروفنا ، هي وأنا ، ودونما تكليف منها ، أمام سبيلين : التحدث عن قصائد المجموعة ، أو بعضها ، من خلال تقديم نماذج ، هي شهادات على ما أقول ، أو التحدث عما تركته القصائد في نفسي من أثر ، دون تقليديةٍ أعاقُها ، فاخترت السبيل الثاني ، تاركاً للقارئ حرية الاكتشاف بذاته ، دون تدخُّل مني ، وإذا كنت قد فُتنت ، على نحوٍ ما وقدرٍ ما بالبوح الحزين الشفاف المنسرح ببساطة وعفوية ، وأخذتني وهزتني صور مبتكرة للأسى الدفين غير المستكين ، غير الملتاع ، فإن افتتاني له ما يبرره ، في هذه القدرة على الرسم بالكلمات ، لشأن له ذاتية وموضوعية : ذاتية المشاعر ، وموضوعية الرؤى ، في استحضار ألوان مخلوعة على الأشياء ، ما بين نبتة وبحر ، ما بين سفر وتجوال ، وكذلك ما بين إحساس بالكائنات ، ووقع هذا الإحساس في نفس مجرّحة ، مشفقة على غرسةٍ ما يبسَتْ ، انتحرت في يباسها ، فهي تبكيها بغير دموع ، لأن الدمع في الكبرياء يسيل في الداخل ، في الذات ، في الشغاف ، ولا يتحير في العينين ، أو يجري على الوجنتين ، تمرداً ، وكذلك رفضاً ، لما اعتاده الآخرون ، في صدق اللوعة أو اصطناعها ، لفتاً للأنظار ، أو استجلاباً لمشاركتها .

هذه الحيدة بين تأثرنا بما نرى ، بما نسمع ، بما يأخذنا من ضحكة سماء وضّبتها، وبما نقاسي من بكاء طفل ، وسؤال محتاج ، وما نعاني في هنيهات الزمن، كئيباً فارغاً ضائعاً يتعسنا ، ويبهظنا ، في مسيله شديد الوطأة علينا ، أو بما يسرّنا من رهو نسمة ، أو يؤنسنا من سماع صوت شجي ، أو بما يرهقنا من ملل حديث مملّ ، هذا كله لدى الكاتب عندما يكتب أن يلتزم الحيدة التي أشرت إليها ، لأنه أمام حالتي الونى أو النشاط ، البرودة أو الحماسة ، يكون هو وليس هو ، وذلك كي يتجنب خطر الاندفاع المسرف ، وخطر الانكماش المفرط ، وإلا وقع في إشكالية صعبة ، أن يكون ما يكتبه ساخناً بأكثر مما يجب ، أو بارداً بأكثر مما يجب ، إضافة إلى خطر الفتور ، الذي معه ينبغي أن يتوقف حتى يزول فتوره .

من البدهي أن التعميم هنا مضرّ . لا بد من استثناء الحالة الخاصة لكل كاتب ، فثمة من يكتب وهو في أقصى درجات الألم ، وهناك من يكتب وهو في أقصى درجات الفرح والرضى عن النفس ، إلا أن الحيدة في التشكّلين النفسيين ، لحالة ما قبل الكتابة وأثناءها ، تبقى واجبة المراعاة . وقد راعت ريم هذه الحيدة ، بالسليقة ربما ، وبالعفوية ربما ، وعليها مع الاستمرارية أن تأخذ الحيدة في حسابها عن وعي، فالقارئ لا يهمه ما كانت عليه حالة الكاتب أثناء الكتابة ، ولا يأبه لمعاناة هذا الكاتب ، وهل استقامت له الكتابة بسهولة ، أم أنه تعثر ، وشطب ، ومزق الكثير مما كتب . هذا كله شأن الكاتب ، أما شأن القارئ فشيء آخر ، لأنه يحكم على الجاهز بين يديه ، وهذا من حقه تماماً .

إنني لا أميل إلى عرض تجربتي . هذه ليست تجربتي ، إنها جماع تجارب الكتابة ، لدى الكثيرين ممن تحدثوا إلي عن تجاربهم في الكتابة ، وقد تقرّيتُها في هذه المجموعة ، وأوليتُها انتباهي ، وارتاحت نفسي ، وطاب مزاجي لها ، لعلمي ، كما قال توماس مان : إن فعل الكتابة فعل إشكاليّ ، و " ليست في العالم مشكلة أكثر مدعاة للألم من مشكلة حياة الفنان ، والجانب الإنساني منها ، فالأديب مطالب بألا يدع أحزان الدنيا تقهره ، وعليه أن يراقب ويلاحظ ، ويضيف ، ويسجل كل شيء، حتى أشد الأمور عذاباً ، دون أن يدع القارئ يشعر بأنه مر بكل هذا العذاب".

ريم هلال في ريّق العمر ، كتابتها هذه هي الأولى التي تُظهر الناس عليها ، وأنا أزعم أنها كتابة ناضجة جميلة مؤثرة ذات وعود كبيرة للمستقبل ، إذا ما مارست واستمرت في الممارسة ، ولم تكن هذه شحنة نفس جاشت بتجربة شخصية ، أحسنت في إفراغها ، وفي نقلها إلينا ، ثم توقفت ، لأنها ظلت في دائرة ذاتها ، ولم تتعدَّها إلى مشاكل الناس ، من حولها وفي مجتمعها وبيئتها ، أو أنها ، في الكتابة ، اقتصرت على الشعر ، وعلى الخواطر ، ولم تضع الدراسة الأدبية من ضمن اختصاصها في إطار اهتماماتها . ولئن أشفقتُ عليها ، عند لقائي الأول بها ، فتاة جميلة محدّثة لبقة نبيهة ولكنها كفيفة ، فقد تحول الإشفاق لدي الآن إلى إعجاب ، ولكم سَرَّني ، ولشدّ ما أرضاني ، تحولها من ناحية في موهبتها إلى ناحية أخرى في

هذه الموهبة ، فهي ذات صوت جميل ، وقد تقدمت إلى فحص الأصوات في الإذاعة ، ونجحت بتفوق ، وشجعها أهلها على ما تريد ، تاركين لها الحرية في اختيار طريقها ، لكنها هي ، ريم ، اختارت طريق الدراسة ، فلقيت التشجيع أيضاً ، ومضت إلى غايتها بشجاعة وتصميم ، فأدركت مبتغاها كله أو كادت . بعد هذا لم يتحدث إلي والدها بأي شيء عنها ، لم يذكرها ، ولم أذكّره بها احتراماً وتهيّباً للجرح أن تلامسه يدي ، أو تمسح عليه مبلسمة ، فالأَنَفَة شيمة لديه ، ومعها الوقار ، والصمود أمام الشدة ، واحتمال الأذى مدفوعاً بالاستهانة به من قِبَل قانوني ضليع هادئ نزيه كان مثالاً في تجلّده وفي تصميمه على النجاح في عمل مستقل كصاحب مكتب للاستشارات الإدارية والتحكيم ، أراحه من عناء الوظيفة وتبعاتها ، وأرضى نزوعه إلى الاستقلال الشخصي .

هكذا ظل لغزاً ، أو ما هو شبيه به ، سرّ نجاح ريم في دراستها ، على أن علمتُ أنه هو، الوالد ، وراء هذا السرّ ، وأنه بدل أن يتكلم كان يعمل ، وأن عمله معها ، قراءةً وشرحاً ، وإصغاءً ، قد أفادها في المتابعة ، إلى أن وصلت إلى حيث كانت تطمح ، أو كان يقدّر هو ، من خلال طموحها المبتغى الذي تسعى إليه .

أعرف طبعاً أن الكلام على أديبة لا علاقة له بالكلام على سواها ، إلا أن الأديبة التي أقدّم لها بهذه الكلمات ذات وضع خاص يحسن الانتباه في التربية إلى من رعى خصوصيته ، وأعرف أيضاً ، أن الكلام على الأدب ، من خارج النص ، مقرون بتسليط بعض الضوء على هذا الخارج ، بكل ظروفه وعوامله ، وأحسب أن هذا يغني في الفهم وفي التفهم ، لما يومئ إليه شعر المجموعة ولا يفصح .

وعندما ذات يوم قدّم إلي عبد القادر هلال ، مجموعة ريم الشعرية ، لم يقل سوى كلمتين : " نريد رأيك ! " ، وكنت أنا ، لا هو ، على شك من استواء رأيي ، لا خشية مجانبة الموضوعية ، وإنما خشية ألا أكون ، أنا المؤهّل في جنس آخر من الأدب ، على غير كفاءة في إبداء رأي في الجنس الشعري . وبعد أيام ، من قراءة أوليّة للمجموعة ، قلت له : " هذا عمل يحمل على الرضى " فابتسم في وقار كعادته، ولم يزد . عندئذ أعطيت المجموعة إلى شاعر أثق برأيه ، وأعتزّ ، فقرأها وقال : " يا للشعر المفعم بالحنان والجودة " . لم أكتفِ بذلك . أعطيت المجموعة

إلى ناقدة وأديبة ومشهورة في سورية والوطن العربي ، فقرأتها وكتبت بخط يدها العبارة التالية: " موهبة رائعة " . ولما قرأتُ ما كتبَتْ على والد ريم ، رأيتُ دمعة تتحير في عينيه ، ثم تسقط على وجنتيه ، وهذا كل شيء !

مقدّمة المجموعة الشعريّة الثانية للدكتورة ريم هلال

" كل آفاقي لأغنياتكِ "

كتبها : والد الشاعرة

عبد القادر هلال _ ١٩٩٧/١/٢٠

كتابةُ مقدِّمة مجموعة شعرية ، أمر يختص به النقاد والأدباء ، وأنا لست منهم.أمّا أن تكون المجموعة من إبداع ريم هلال ، فأمرٌ لا أجادل في اختصاصي به ، ذلك أن ريم وتجربة حياتها تمثّل قصيدة طويلة ما زلنا ننشدها معاً .

مع ريم ، وعلى مدى تلك التجربة ، عرفتُ وخز الدمع وهو يجف على صفحة الوجه ، سواء عند الإحساس بالبؤس ، بغوره الأسود العميق ، أو عند تلقّي مكافآت الحياة على الجهد معها وفي سبيلها ، وما أمدّتنا به من آمال تتمادى تمادي الآفاق ، يبدأ واحدها حيث ينتهي سابقه .

كانت الوقائع ، اليومية منها والمرحلية ، تضفر لنا من الإحساسين النقيضين جديلةً تصل ما بين أسفل وأعلى جرف مخيف ، نرتقيها بالساعدين ، واحد يحفزه الرجاء ، وآخر يدفع به التحدّي ، في الوقت الذي يبهظنا ثقل العبء الهائل إلى حدّ يغري أحياناً بالاستسلام للهاوية .

أنا لا أريد أن أستثير الدمع ، فأصف شعور الأسى يطغى على والدين وهما يتلقّيان نتيجة فحص طبي ، ينبئهما أن شبكية العينين عند طفلتهما البكر سوف تعجز عن إراءتها تفاصيل هذا العالم الجميل . أو أصوِّر مشقة أن تترك طفلتك التي تكاد لا ترى من الشمس الساطعة أكثر مما تراه لداتُها في ذبالة شمعة تحتضر ، في مدرسة حيث حشدُ أَطفال تدهشهم الحالة ، فيقف بعضهم يتفرج ، وبعضهم يسخر ويتحرّش ، والآخرون ينصرفون غير مبالين . في مدرسة تزحم معلماتِها شؤونُ الحياة

ولقمة العيش وأعباء المهنة ، نفدَتْ لدى معظمهن جلّ دواعي الانشغال بشؤون الآخرين .

كما لا أريد أن أستطرد ، فأتحدث عن الطفلة العائدة من عناءات تلك المدرسة ، إلى مدرسة البيت ، تنهض بكل مهامها أمّ رقيقة هدّتها الفاجعة ، وأضنتها كل تفاصيل العمل المنزلي :

الحرف الأول ساذج بسيط ، لا يعرف العوج وهي تخطو به خطوتها الأولى ، إلا أن لكل من الثاني والثالث وما يليهما ، شأنه ولفظه ، أشكاله وحالاته ، أن يأتي وحيداً أو مترابطاً مع غيره ، في مطلع الكلمة ، أو في أوسطها ، أو في النهاية منها.

الرقم الأول رحيم ، ما تكاد تجتازه حتى تصل إلى الأشكال المتباينة ، مابين تكسّرات واستدارات ونقاط أصفار ، لكل منها قدر يحدده مقامه بين جيرانه .

الرسوم الهندسية ، بنظرياتها ومسائلها وحلولها ، بخطوطها وزواياها الواقعية والمفترضة ، كلها تشكيلات نجعلها نافرة ، وعلى ريم أن تتقرّاها بأناملها ، حتى تستقر لديها في مخيّلة مغلقة النوافذ ، كان عليها أن تغتني بسلسلة لا تنتهي من التراكيب اللغوية ، تناظرها سلسلة مماثلة من صور تنسجها بقية الحواس المستنفرة .

وذلك كله ، يتم في بيئة لم تُعِدّ نفسها للتعامل مع حالة كهذه . لقد كانت ريادةً في طبيعة شائكة ، قلّما اختطتها قدم سابقة ، أو ارتسم على أرضها شِعْبٌ أو أثر يهدي .

لقد كانت الوقائع التي واجهناها بتفاصيلها ، من القسوة والفظاظة ما تهدّ الكواهل، واجهناها بمعونة لا تُنسى ، من قلّةٍ من ذوي الشيم والمروءات النادرة .

إلا أن ما جعلَنا ندرك أن الخطوات التي بدأنا ، لا بدّ لها وأن تستكمل دربها الطويل ، هو العون الذي قدّمته لنا ريم ذاتها ، التي وبعد أن أمسكت بأوليات المعرفة ، والتقطت أدواتها الأولى ، قد صممت على بناء تكوينها المعرفي والثقافي من خلال ملكات وابتكارات وشمائل تتجلّى لديها يوماً إثر يوم . فالذاكرة لديها تسعى لمحاكاة آلة التسجيل التي أصبحت وسيلتها إلى قراءة سمعية لكتبها ومراجعها ، وقدرة على التلاؤم والتعلّم ، مكّنتها من استخدام الآلة الكاتبة خلال أيام أربعة أو ثلاثة . ودأبٌ لا يفتر في العمل ، ومواجهة صعوبات النصوص وفهم مغاليقها في

ساعات وأيام وليال طوال ، تقضيها ونحن منشغلون عنها ، أو مستغرقون في نوم المحارب المستريح . وصحة نفسية ، لم يتشبث بها إحساس الحسرة الممضّ ، على ما لا جدوى من التحسّر عليه . وإرادة حاسمة ، جعلتها يوم تخلّت عنها رفيقتها ، أن تعود وحيدة من طرف المدينة الجنوبي حيث الموقع السابق لكلية الآداب ، إلى بيتنا في زقاق سوق الصبّاغين القديم شرقي المدينة القديمة ، مجتازة الشوارع التي كانت تقطعها الحفريات والمطبّات ، والأزقة الضيقة المزدحمة بالبشر والعربات . وأمانة علمية ، حملتها في يوم امتحان عسير ، على الاستغناء عن تدوين آخر إجاباتها التي تُعمِل فيها فكرها وذاكرتها ، لأنها التقطت بسمعها المرهف تلك الإجابة من حديث كان يدور قرب مقعدها ما بين اثنين من المراقبين . وأريحية حملَتها في سنوات لاحقة متوالية ، على أن تسلّم مكافأة تفوقها الجامعي إلى جمعية تهتم بشؤون الأطفال المعوقين ، في وقت لم تكن فيه المكافأة خارج حاجتها ومتطلباتها المادية .

إنني قلت ما قلت ، لا لأفخر ، فقط ، بريم كابنة لنا ، خطت طريقها فوق الشوك ومازالت ، بل لأفخر ، أيضاً ، بالإنسان وإنسانيته وقدراته الخلّاقة التي حدودها السماء ، ولأقول لمن عاقتهم الطبيعة عن بعض طاقاتهم : إن ما تبقّى لهم منها قادر على أن يفتّق لهم من القدرات ما يجعلهم جديرين بحياة كريمة ، وإن من حقهم على مجتمعهم أن يقدِّم لهم سبل تلك الحياة في هذه الدنيا الفسيحة ، وأن يتيح لهم من زينتها ما يتيح لغيرهم ، إنصافاً وتعويضاً . ولأقول لهم : إن نيلهم ما وصل إليه أمثالهم في بلدان أخرى ، يتطلب إثبات وممارسة تلك القدرات .

لقد حازت ريم هلال الدرجة الأولى في سنوات دراستها الجامعية الأربع ، وحققت معدّلاً عاماً عند تخرجها لم يسبق لطالبٍ أن حققه على مدى عمر قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة تشرين . وبرغم ذلك ، وبرغم ما أجازه القانون رقم / ١٤٤ / تاريخ ١٩٥٨/٩/٩ وقرار وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل رقم / ٧٨٧ / تاريخ ١٩٧٧/٦/٢٩ ، من تعيين أمثالها في وظائف عديدة ، منها وظائف التعليم والتدريس وإلقاء المحاضرات ، فلم تتمكن من نيل حقها بتعيينها معيدة في القسم المذكور ، إلا بعد جدل وجهد ومتابعات دامت شهوراً زادت على عام ، عرفت ريم خلالها النكران والجحود . فكم عبست وتولّت عنها وجوه في المكاتب الرسمية

وأروقتها ، وكم تذرّع المتجهّمون بذرائع أسقطها القانون والقرار المذكوران ، وكم تعللوا بأسباب أحبطتها ريم بمنطقها السليم وحجتها التي كانت تذكّر بطه حسين وهيلين كيلر . إلا أن إصرارها وإيمانها بحقها في العمل والحياة ، ونضالها الذي آزرتها فيه كلماتٌ نبيلة في الصحافة والتلفاز ، وفي مراجع رسمية أخرى حيث صادفت وجوهاً تتهلل بالبِشر والتشجيع وبدعم لم ينثنِ ؛ حتى سُمّيَتْ لتلك الوظيفة في القسم المذكور الذي تخرّجت منه .

وهاهي ريم تحمل درجة الماجستير في النقد الأدبي الحديث ، وهاهي تستكمل اختصاصها بإعداد رسالة الدكتوراه على أمل نيلها درجتها هذا العام . وهاهي تقدم مجموعتها الشعرية الثانية ، تصدرها وزارة الثقافة ، بعد أن أصدرت لها مجموعتها الأولى عام ١٩٩٥ بعنوان " العرّافة " ، فتشكلان رشّة عطرٍ مبارِكة لجهدها الرائع الذي تحمله رايةً تتقدم بها صفوف المعوقين ، تناديهم إلى اللحاق بركب الإنسانية الساعية في الطريق الشائك ، إلى كرامة الإنسان ، وتحرره من قيوده وعوائقه .

تقولون ، ربما ، وأين الحديث عن شعر ريم ؟ وقد سبق وقلتُ : إن ريم وتجربة حياتها تمثّل قصيدة طويلة ما زلنا ننشدها معاً .

كلمة غلاف للمجموعة الشعريّة الثانية للدكتورة ريم هلال
" كل آفاقي لأغنياتكِ "
كتبها المفكّر أنطون المقدسي _١٩٩٧

لو طلبت مني ريم هلال اسماً لمجموعتها ، لما ترددتُ : فالحياة " دروب " عليك كي تسلكها ، أن تشقها خطوة إثر خطوة .

والعالم " فجر " أدركه الليل ، فعليك أن توقظه . والوجود روتين يستسلم له الناس، فيخدرهم ، وحدها هذه الصبيّة أدركت أنه " معجزة " عليك أن تجترحها كل لحظة ، كي تستمر فيه .

تقول ريم هلال : الأشياء موجودات صماء ، وحده الشعر يعرف كيف يستنطقها .. حلمٌ بالبراءة الأولى ، وطفولةٌ ، القمر يعرف الطريق إليها .

وسؤالٌ إن لم تجب عنه ، لغز إن لم تفكّه ، سحقك أبو الهول الذي يحرسه .
هذه الصبيّة تكتب ، وكأن الشعر تجلّى لها قبل أن تقرأ الشعراء . فيا ليت أنها تواصل طريقها معه حتى النهاية ، فهو يسعدها ويسعدنا .

قراءة في مجموعة شعريّة

" كل آفاقي لأغنياتكِ "

للدكتورة ريم هلال

الشاعرة : مناة الخيّر

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقية ، عدد ٣٧٦٨ ، تاريخ ٥ حزيران ١٩٩٧

لأن غنائية الشعر مازجت دمي وطفولتي ، وعرّشَتْ في أغوار ذاكرتي ، فإنني أحتاج جهداً إضافياً لأتذوق هذا اللون من الشعر الذي يفتقد إلى الغنائية ، ولكنه كتجربة تجتاح الساحة العربية ، فرض وجوداً يقتضي منا نحن متذوقي الشعر الغنائي أن نعيد النظر في ذائقتنا الشعرية ، ونتعامل معه كظاهرة مستمرة في التطور والانتشار ، وبخاصة بين أجيال الشباب .

ولئن أشرتُ في زاوية سابقة ، إلى أن بعض هؤلاء يكتبون وهم يفتقدون إلى مفردات اللغة الشعرية موهبةً وثقافةً ؛ فإن هذا لا ينفي وجود تجارب مميزة ، امتلك أصحابها ناصية اللغة ، وسبروا أغوارها ، واختاروا أن تظل كتاباتهم بعيدة عن الغنائية ممارَسةً لحقهم في التفرد ، عاملين بنصيحة خَلَف الأحمر لأبي نواس ، حين جاءه مستشيراً إياه في صقل موهبته الشعرية ، فنصحه خَلَف أن يذهب إلى البادية ، ويحفظ عشرة ألاف بيت من الشعر ، وحين عاد وقد حفظها ، قال له خَلَف : اذهب وحاول أن تنساها ، ثم ابدأ بكتابة الشعر ، وهذا يلتقي مع قول هيجل " الشاعر لا يوجد بالقوة بل بالفعل " .

وأعود إلى التجارب الشعرية الشابّة التي اختارت أن تتخلى عن الوزن والقافية إرادةً وليس عجزاً ، لأقف عند مجموعة شعرية للشاعرة ريم هلال ، وهي المجموعة الثانية لها ، وقد صدرت عن وزارة الثقافة بعنوان " كل آفاقي لأغنياتكِ " . وريم

معيدة في كلية الآداب – قسم اللغة العربية بجامعة تشرين ، وتُعدّ لرسالة الدكتوراه ، فهي بستانيٌّ جاب بساتين اللغة ، وأدرك سرّها وسحرها ... وأول ما يستوقفنا هو العنوان الذي أرادت ريم من خلاله أن تقلب الصورة التقليدية حيث المرأة تغني لآفاق الرجل ، فجعلت من المرأة صاحبة الآفاق المفتوحة ، ولكنها أيضاً المرتبطة بأغنيات الرجل .

فإذا ما تجاوزنا العنوان ، طالعتنا المقدمة التي كتبها والدها عبد القادر هلال بلغة مكثّفة كالعطر ، معطرة كرحيق النارنج ، محاولاً أن يسلط الضوء على الطريق الشاقّ الذي اجتازته ريم مع أسرتها للوصول إلى ما هي عليه الآن ، مشيراً إلى حقول الغصص والشوك التي عبرتها ريم لتخطّ خطواتها على طريق المعرفة ، ومن ثم على طريق الشعر . ومن قصيدة بعنوان " أبي " تقول :

من عتمةٍ حلمتَ

بأن انفرط عقدي

زاحمَتْ عيناكَ الأرض

لتحتضنا رذاذه

قالت لكَ الأرض :

هذا بعضي

أسلمتُه لزورق البدء

أغلقتُ عليه بابي

...

وأنا الآن أطفو إليك

من حلم الطفولة

من رياح السنين

من خرائط الورد

من أعياد تموز

ليجني صمتكَ

حفيف اسمي

لتنحني لعينيكَ

مشاعل عقدي .

ترصد في مجموعتها العالم الداخلي للإنسان ، ذاك الذي يستيقظ فيه الضوء المحتجب عن العينين ، فإذا به عالم زاخر بالنجوم والأحلام والرؤى ، مفعم بالإرادة على تخطي الصعاب ، وتجاوز عنت الأقدار . تقول في مقطوعة " بداية وأفق " :

من عود الثقاب الذي رُميَ في دمي

أطلُّ على الحرائق

من أول وردة بيضاء تفتَّحت في دفاتري

أطلُّ على البيادر

تحاول أن تستضيء بشمسها الداخلية ، متلمسة الجذوة التي وضعها الله في الإنسان ، فتفرش جدائلها على آفاقها . تقول :

حلمتُ بأني رسوتُ

أمام مليون عين

تذكّرتُ أن كلاً

حمل من الله شعلة

فحلقتُ في بحارها

فتصوّفتُ .

في مجموعة ريم هلال كثافة لغوية مُعتنىً بها ، فهي تحاول أن تكوّن المفردات على قياس المشاعر والمعاني ، وتنجح في كثير من المقطوعات في إبراز هذه الوحدة العضوية ، حيث يمثل العنوان جزءاً أساسياً من المقطوعة . تقول تحت عنوان " تحوُّل " :

كان بجانبي عينان

تضيئان أَلِفي وبائي

ثم صارت العينان

مرفأً لكلماتي .

ويبقى الضوء والشمس هاجساً في أشعار ريم ، تحاول التقاطه من الداخل ، حين لم تستطع التقاطه من الخارج :

حضرَتْ سفينة العتم

فرشَتْ ليلة

حضرَتْ سفينة النور

أوقدَتْ نجمة

الليلة :

ما أرحبني !

النجمة :

أين ترسو العيون ؟

ولكن الشاعرة ما تلبث أن تتجاوز ذاتها لتمسك بالجذر الإنساني المشترك بين البشر جميعاً ، ذاك الذي يغيب في أعماق النفس البشرية ، يوقظه الإبداع وتحركه الموهبة . تقول في مقطوعة " تدفُّق " :

نهض يبحث عن صوت

يضيء له نفسه

قالت له الفيافي :

قد تسير قروناً

وَلجَ كهوفَ نفسه

أخذ يرمي حروفه

نهض كلُّ صوت

يستظلّ بشمسه .

في شعرها بوح إنساني شفيف ، يقطر من النفس أعذب ما فيها ، ويقدمه قارورة من اللفظ الرقراق ، فتقف حائراً أيهما أعذب شفافية ؟ اللفظ أم بريق المعنى ؟ من قصيدة " إلى الصديقة " :

في حدائق النسيان

تحت ظلالها المتكاسلة

فرّت إليّ

مبتلّةً بالرعد

قبل غصون اللوز

قبل صلوات البلابل

سافرتُ في عينيها

إلى باحة البنفسج

اغتسلتُ في صوتها

بأغرودة الفرح العتيق ...

تلك هي نظرة سريعة في مجموعة ريم هلال ، وهي الثانية بعد مجموعتها الأولى بعنوان " العرّافة " التي قدم لها الروائي الكبير حنا مينه بقوله : " ريم هلال في هدوئها وصمتها تتأمل وتتأمل ، وهذا ما أعطى رؤاها وداعة متميزة تشفُّ كما نفسها عن أحاسيس تبعث الشعر النثري الهاجع في قاع الذاكرة ، بعثاً فيه إحياء للعواطف الحبيسة ، ومن البديهي أن القارئ الذي يتأمل ويفكر سيجد أن وراء هذا الظاهر من اللفظ الشعري معطىً شعرياً آخر بعيد الأمداء والمرامي . إنها تقطر عذوبة وترشح نشوة ، وتعمر حباً إنسانياً رفيعاً تجد فيه العزاء خلاقاً لا واهناً ولا مستعطفاً " .

" كل آفاقي لأغنياتكِ " الدكتورة ريم هلال

غسان شمّه

نُشِرَت في مجلة فنون – دمشق ، عدد ٢٩٥ ، تاريخ ١٢حزيران ١٩٩٧

بلغة واثقة ، ورؤية نافذة ، ورغبة أكبر .. تأتي ريم إلى عالم الشعر لتبوح بذلك السر الأزلي الذي يعيش في أعماق الإنسان ، مؤكدةً أنه الأصيل ، وأن البقاء له فحسب . ففي قصيدة " بَذل " تقول :

لماذا تُصَدِّع نفسكَ ؟

في داخلي كرمة

لماذا تُبَعثِر نفسكَ ؟

على الشرفات ليل

لماذا تَصْلب نفسكَ ؟

أخشى أن أضيع .

ولنرَ كيف تنظر الشاعرة إلى القصة الأزلية ، قصة آدم وحواء ، بل كيف تحاول أن ترى ما آل إليه الواقع ، والعلاقة بين الرجل والمرأة . في قصيدة " لدغة واحدة " تقول :

قالت حوّاء لآدم :

تعالَ إلى هذه الشجرة

فألقَتْه معها إلى الأرض .

قالت حوّاء لآدم :

تعالَ نَعُدْ إلى النعيم

فذُعِرَ وشدَّ أصابعه

إلى مجامر الأرض .

إن قصائد المجموعة كلها عبارة عن مقطّعات صغيرة تزيد على الستين ، تحاول فيها الشاعرة أن تقدم رؤيتها للحياة والعالم ، من خلال دلالات الأشياء حولها ، والعلاقة التي تحكمنا ، بلغة بسيطة واضحة ، وقول يسعى لتأسيس جناحيه في فضاء الشعر .

" حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " في رسالة دكتوراه

سميرة أحمد

نُشِرَت في جريدة الوحدة – اللاذقية ، عدد ٤٠٤٧ ، تاريخ ٢٤ أيار ١٩٩٨

عنوان الرسالة التي قدّمَتْها لجامعة تشرين : الطالبة ريم عبد القادر هلال لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية ، وقد نوقشت هذه الرسالة على مدى خمس ساعات ونصف من قِبَل اللجنة المؤلفة من الأساتذة :

د . أحمد زياد محبك / جامعة حلب / مشرفاً

د . عبد الكريم يعقوب / جامعة تشرين / عضواً

د . محمد عيسى / جامعة البعث / عضواً

د . فاخر ميّا / جامعة تشرين / عضواً

مضمون الرسالة :

ضمّت الرسالة مدخلاً وثلاثة أبواب . ضمّ المدخل الكيفيات التي كان يتم من خلالها التعامل مع الشعر الجاهلي ، لا من أجل إدانتها وإبراز محدوديتها ، إنما من أجل تبيُّن الأساس الذي انطلق منه النقاد العرب المحدثون ، لدى قيامهم بالقراءات الثانية لهذا الشعر .

أما الأبواب الثلاثة التالية ، فقد ضمت الاتجاهات الثلاثة التي تمت وفقها إعادة القراءة . فالباب الأول خُصِّصَ للقراءات النقدية التي تناولت الشعر الجاهلي بناء على ارتباطه بمجتمعه . وخُصِّصَ الباب الثاني للقراءات النقدية التي تناولت الشعر الجاهلي بناء على ارتباطه بالشاعر ، وقد قُسِّمَ الباب إلى فصلين تناول أولهما : قراءة الشعر الجاهلي النفسية التي أثبتت عدم حيلولة المسافة الزمنية التي تفصلنا عن الجاهليين دون انتماء نفوسهم إلى النفس الإنسانية ، إنما اشتراكها في الكثير من عُقَدها وحالاتها مع نفوس من هم أكثر تطوراً . أما الفصل الثاني ، فقد تناول قراءة الشعر الجاهلي الفلسفية التي أثبتت نقيض ما ذهب إليه الكثيرون ، ذلك من خلوّ الشعر الجاهلي من النزعة التأملية ، اعتقاداً منهم عدم وصول الجاهليين إلى ذلك النضج المطلوب .

وحين كان لا بد للّحظات الإبداعية أن تتمايز هي الأخرى داخل حياة الشاعر الفردية ، خُصِّصَ الباب الثالث للقراءات النقدية التي تناولت الشعر الجاهلي بناء على ارتباطه بالنص . وقد قُسِّمَ الباب إلى فصلين : تناول أولهما القراءة الفنية التي شكّلت امتداداً للقراءة السائدة في القرون الأولى ، ذلك من حيث الاهتمام بضربَي القصيدة الجاهلية ، وبأجزاء القصيدة الطويلة وعناصرها . أما الفصل الثاني ، فقد تناول القراءة البنيوية التي توجّب تطبيقها على الشعر الجاهلي كما طُبِّقَت على الآداب الأخرى ، أو كما طُبِّقَ على الشعر الجاهلي سواها من المناهج .

الهدف من البحث :

الهدف من هذا البحث كما تقول الطالبة ريم هلال : إن الشعر الجاهلي لم يحظَ خلال القرون الماضية بالدراسات العميقة التي كان من شأنها أن تكشُف عن جوهره وفق الصور الوافية ، ولعل هذا لم يعُد إلى الذين كانوا يتعاملون معه ، بقدر ما عاد إلى الظروف التاريخية التي أحيطت به . فقد كان ينبغي الانشغال بجمعه وتدوينه حفاظاً على بقاياه من الضياع الذي أصاب قسماً منه في أثناء الدعوة الإسلامية ، كما كان ينبغي الانشغال بالشك في صحته وتمييز صحيحه من موضوعه ، نظراً لما آل إليه الجمع والتدوين من صنع بعض القصّاص والرواة غير الموثوقين .

أما حين كان يتم نقده بغية تعرفهم أبعاد نصوصه ، فقد كان ينبغي أن يتحقق ذلك بناء على المنهجين السائدين في ذلك العصر ، ذينك اللذين لم يحققا سوى مقاربة جزئية وسطحية للنص ، وهما : المنهج اللغوي والمنهج الذاتي .

وقد وقع اختيارنا على هذا البحث لأمرين اثنين : تحدد أولهما في محاولتنا استقطاب القراءات الجديدة التي تناولت الشعر الجاهلي ، بعد ما بدت مبعثرة ضمن المصادر النقدية المتنوعة .

أما ثانيهما ، فقد تحدد في محاولتنا الوصول من خلال هذه القراءات المتعددة المتنوعة إلى فكرة المنهج التكاملي ، هذا الذي ينبغي الركون النهائي إليه في العمليات النقدية بعامةٍ ، نظراً لِما يحقق من نظرة شاملة إلى العمل الأدبي ، ولِما يتجاوز من النظرة الجزئية التي ينبني عليها كل منهج متفرع من ذلك التكاملي .

علماً أننا – كما تقول الباحثة هلال – لا نقصد من خلال هذا المنهج الذي ابتغينا توكيده ضرورة قيام كل ناقد بتطبيقه على حدة ، نظراً لما تعني الثقافة الموسوعية التي يتأسس عليها من الإثقال على هذا الناقد ، وحمله على الإلمام بما اختلف من المناهج والمعارف والعلوم ، ثم على استخدامها مجتمعة في كل عملية نقدية . لذا ارتأينا أن يضعه الناقد أمامه أساساً نظرياً ، ثم ينطلق منه نحو الجانب الذي يبدو له الأكثر وضوحاً في العمل الأدبي ، أو نحو المنهج الذي يرى نفسه فيه أكثر تمكناً . وفي مرحلة تالية يتضافر جهد هذا الناقد مع جهود سواه من النقاد الذين يكونون قد طبقوا ما سوى ذلك من المناهج على العمل الأدبي ، وأضاؤوا

جوانبه الأخرى ، فيكون قد تحقق الاتساع في هذه الجهود إلى جانب ما تحقق من العمق الذي تأتّى من اهتمام كل ناقد بالحيّز الجزئي الذي اختاره .

مصادر البحث :

فيما يتعلق بمصادر البحث ، فإنها ضمت المصادر النقدية التي تناولت الشعر الجاهلي وفق المناهج النقدية المختلفة ، كما ضمت مصادر الشعر القديم ، بغية ضبط الأشعار الجاهلية التي استشهد بها النقاد في أعمالهم .

النتيجة :

بعد سماع دفاع المعيدة ريم عبد القادر هلال عن رسالتها ، قررت اللجنة منحها درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز وعلامة قدرها ٨٥ درجة .

أخيراً :

تأتي هذه الرسالة في سياق البحوث الأدبية في جامعة تشرين ، وبقية الجامعات السورية : دمشق حلب حمص ، لرسم الخط الأدبي النقدي للقطر ، وتطوير التعليم العالي ، ودفع البحث العلمي قدماً .

" كل آفاقي لأغنياتكِ "

قراءة في مجموعة شعريّة

د. وضحى يونس

نُشِرَت في جريدة الوحدة – اللاذقية ، عدد ٤٣٧٥ ، تاريخ ١٩٩٩/٧/١

ليس عبثاً أن تبدأ الشاعرة الدكتورة ريم هلال مجموعتها دائماً " كل آفاقي لأغنياتكِ " ؛ بقصيدة يحمل عنوانها ومضمونها الفكرة ذاتها التي تدور في فلكها قصائد المجموعة كلها ، فالعنوان هو " خلاص " ، والفكرة هي الخلاص في التوحد، والجديد هنا هو أن المجموعة لم تبدأ بتصوير المعاناة بل بالخلاص منها ، الخلاص الجميل الفريد و الارتماء في أحضان اللغة ، ورضاع الكلمات الأم الذي ينشد التوحيد بين الناس والأشياء وكائنات الطبيعة ، فهل من معنىً للبحر بلا سفن ؟ أو للشجر بلا بلابل ؟ أو للكروم بلا ياسمين ؟ أو للطفولة بلا أعياد ؟ أو للدروب بلا

شمس ؟ .. لا معنى لذلك إلا الموت الذي سيدفع الشاعرة إلى إغلاق محبرتها ، أداة تواصلها مع نفسها والعالم :

حين ينفد البحر

حين تنتحر السفن

حين تلوّح البلابل

حين يهدأ الشجر

حين تشيخ الطفولة

حين تذبل الأعياد

. . . . .

سألملم أوراقي بسَكينةٍ

وأغلق دواتي

وأنام !.

فالخلاص يتجلى في الاتحاد بالآخر صديقاً أو أباً أو حبيباً أو الكون أو الله ، لأن راحة النفس ليست دائماً في الانفراد والعزلة ، بل هي أيضاً في تلبية الحاجة لجوار الكائنات والأشياء والتوحد معها .

ثمانية عشر عنواناً من بين مقطوعات المجموعة كلها تؤكد رغبة التوحد بأكثر من صيغة ، أبرزها ثلاث صيغ : الأولى هي صيغة المثنّى " يقظتان – إلهان – سلاحان – فراشتان – زجاجتان – غريبان – خطوتان – ثراءان " . والثانية هي صيغة عطف المفرد على المفرد " بداية وأفق – طفل ونهر – الياسمينة واللوتس – مساء وجزيرة " . والثالثة هي صيغة الإضافة ، إضافة الصفة إلى الموصوف كما في " شمس ثانية – بلبل آخر – درب واحد – لغة ثانية – جانب آخر " . فالشاعرة الطفلة المستوحدة تنقل وحدتها المشحونة بالرقة والحساسية والتقاط دقائق الكون إلى الشمس والبلبل والدرب ، فهذه الكائنات الصديقة العذبة الجميلة أرادتها الشاعرة وحيدة هي الأخرى ، لتحاكي وحدتها التي تسمو بها من وحدة ذاتية إلى ضجر وجودي يعانيه الإنسان ، ولذلك تتقمص الشاعرة روح هذه الكائنات وتؤنسنها ، فترى

الزهرة والشمس والظل والفراشة والشفق والياسمين كلها كائنات تشعر وتتأمل وتتحدث.

في قصيدة " بداية وأفق " البداية لا تكون بذاتها ، بل تحتاج إلى أفق يلدها أو تولد لأجله :

من عود الثقاب الذي

رُمِيَ في دمي

أُطِلُّ على الحرائق

من أول وردة بيضاء

تَفتَّحت في دفاتري

أُطِلُّ على البيادر

فالخلاص عبر التوحد فكرياً ، وعبر المثنى لغوياً ، يشكل ثنائية ظاهرها المثنى لغةً ، وباطنها التوحد فكراً ، وتعكس ثنائية الخير والشر التي يقوم عليها الوجود الإنساني ، كما في قصيدتَي " إلهان " " سلاحان " ، " إلهان " تصور صراع إلهَي الليل والنجوم وغلبة إله النجوم ، و " سلاحان " تصور صراع الشاعرة التي تحمل في دمها ضوءاً مع الإنسان الصلف الذي يحمل في يده قوساً ، وعلى غرار القصيدة السابقة ينتصر الضوء ، وهذا بديهي في رؤية شاعرة ، كل آفاقها لأغنيات حلمها الأب والرحم والفردوس المفقود :

وقف أمامي صَلِفاً

وفي يده قوس

بحثُ لنفسي :

لا أملك قوساً

باحت نفسي :

في دمكِ ضوء

فأطلقتُ عليه سهماً

ففرّ

أما النتيجة الحتمية المترتبة على الخلاص في التوحد ، فهي رغبة دائمة بالمنح والعطاء ، وترك آثار لا تمحى من وجودها ووجود الآخرين . ففي قصائدها " امتداد– بذل – تدفُّق " وغيرها معنىً واحد ، هو العطاء الذي يحوّل اليأس إلى أمل ، والحزن إلى فرح ، والموت إلى حياة . ففي " بذل " تقول قصيدتها عبر الحوار التالي:

– لماذا تُصدِّع نفسكَ ؟
– في داخلي كرمة
– لماذا تُبعثِر نفسكَ ؟
– على الشرفات ليل
– لماذا تَصلُب نفسكَ ؟
– أخشى أن أضيع

وكذلك في " عاصفة " ، حيث تمتلئ ذات الشاعرة بسعادة العطاء ، حيث تجمع اللؤلؤ والحرير والتبر لتصير حقلاً ، فتواجهها الأشباح رمز قوى الشر والظلام ويعدونها سارقة ، بينما هي النجمة التي تنسج للآخرين الورد والصلاة .

وفي قصيدة " تدفُّق " ، تتحدث عن الإنسان الباحث عن صوت أو ضوء ، وتذكّر بديوجين الفيلسوف اليوناني الذي كان يبحث عن إنسان بمساعدة ضوء المصباح في وضح النهار ، وحين أدركت الشاعرة فقررت بحاستها التنبئية أنه قد تمر قرون قبل مجيء ذلك الصوت الضوء ، قررت أن تكونه بضمير الغائب :

ولجَ كهوفَ نفسه
أخذ يرمي حروفه
نهض كل صوت
يستظلُّ بشمسه

وعلى لسان الشاعرة أيضاً ، يتحدث الإنسان المنشود ، الإنسان القائد في قصيدة " تمهُّل " :

سمع هديراً
سارع نحوه

هو سيلٌ

يَدعُّ نوافذ الفجر

يبرز الغموض سمة رئيسة لقصائد المجموعة ناجمةً عن عمق الفكرة إلى درجة عدم القبض على المعنى من مجرد قراءة أولى أو ثانية ، لكن هذا الغموض ليس غموض تعبير الشاعرة وحسب ، بل هو غموض التجربة الوجودية التي تتصهر فيها، إنه إحساسها البكر لحظة اصطدامها واختبارها لمعنى الحياة ، يغذي هذا الغموض نزوع صوفي في فهم الحياة وعيشها ، نزوع يظل سراً متماوجاً بين الأفكار والتعابير حتى ينكشف في مقطوعة تحمل عنواناً صوفياً صريحاً هو " حلول " :

حلمتُ بأنني رسوتُ

أمام مليون عين

تذكرتُ أن كلاً

حمل من الله شعلة

فحلّقتُ في بحارها

فتصوفتُ

ولم يبقَ هذا الحلول سمة فكر الشاعرة ، بل أصبح سمة فنها أيضاً ، حيث تجلى في نوع فريد من الوحدة الفنية والموضوعية ، لأن فكرة رئيسة تشمل المقطوعة الشعرية كلها ، وتجعل من الصعب اقتطاع شاهد جزئي على الفكرة ، فكل التشكيلات اللغوية والبيانية هي لخدمة الفكرة وإبرازها ، في رصد للذات عبر حكاية لا بد أن تقرأها كاملة ، وإلى هذا الغموض ينتمي إمعان الشاعرة في إخفاء حقيقة أبطال قصصها الشعرية ، الذين تبقيهم أشخاصاً بين الحقيقة والخيال ، ولا ترى بأساً في الإغراق في تنكيرهم ، فهم ليسوا هدف القصيدة ، بل الهدف هو رسالتهم التبشيرية .

إن من مجموعة " كل آفاقي لأغنياتكِ " شاهداً جديداً على جمالية قصيدة النثر ، وعلى قدرتها على التحليق في أفق إبداعي متميز ومتحول دائماً .

حكاية الأديبة والدكتورة الكفيفة ريم هلال

رأت ما لم يره المبصرون

لقاء أجرته حكيمة زرقة

نُشِرَ في جريدة الثورة – سورية ، عدد ١٠٩٥٤ ، تاريخ ١٩ / ٨ / ١٩٩٩

ذَكَّرَتْنا الأديبة والدكتورة الكفيفة ريم هلال ببشار بن برد و أبي العلاء المعري وطه حسين ، أدباء حُرموا البصر ، لكن نعمة البصيرة كانت عندهم متوقدة ، فأغنوا الأدب وأثْروا نهجه ، وكانوا وما يزالون علامة مضيئة لأجيال متعاقبة .

بدأت ريم هلال مع الحياة برعماً شق الصخر ونما بصعوبة ، لكن ذلك البرعم كبر وأصبح شجرة باسقة تظلل أجيالاً بفيئها وخيرها .

وهي الأديبة الشاعرة الحائزة شهادة الدكتوراه في الأدب العربي عام ١٩٩٨ من جامعة اللاذقيّة . يقول عنها الكاتب حنا مينه في تقديمه لمجموعتها الشعرية الأولى " العرّافة " : " فتاة جميلة ، محدّثة ، لبقة ، نبيهة ، ولكنها كفيفة .. " إلى أن يقول : " الأشياء في هذه المجموعة جدار فني في معبد بوذي يغريك بأن ترى ما وراءه ، وليس ما أمامه من تماثيل تبلغ في جمالها الفني حد الإبداع العظيم " .

ريم عبد القادر هلال نحتت في الصخر ، وبدأت حكايتها الصعبة مع الحياة منذ دخولها المدرسة ، ونما إحساسها بالوحدة والغربة بين أقرانها من الأطفال ، وشبّهت هذه المرحلة من حياتها بالسجن الإفرادي ، وعانت من إهمال معلماتها ، فلم يجُدنَ عليها بالاهتمام والتعليم ، ولكن والدتها الأم العظيمة كانت معلمتها الأولى ، وبدأت معها رسم الحروف والكلمات .

وهنا سأدع الكلام للدكتورة ريم هلال لتتحدث عن تجربتها مع الحياة والأدب ونيل الدكتوراه ، لأن الحديث منها يكون أكثر وقعاً من حديثنا عنها :

امتنعت المدرسة عن إعطائي صحيفة النتائج في الأول الابتدائي ، وساهموا بهذا في تحطيمي ، لكن والدتي بقيت معلمتي حتى لاحظت معلمتي في الثاني الابتدائي سامية حداد تجاوبي ، فتعاونَت مع والدتي على تعليمي ، وهنا التف حولي ثلاث من رفيقاتي ، وكان هذا اليوم يوم الخروج من عزلتي ووحدتي ، وفي ذلك العام حصلتُ

على المرتبة الثانية على أقراني . وهكذا ظللتُ متفوقة فيما تلا من السنوات ، وظلَّت والدتي هي المعلمة الأولى ، ووالدي أيضاً كان يقدم لي كل مساعدة وتشجيع ، يثقّفني ويعطيني كل ما أمكن من المعلومات ، ويقصُّ عليَّ عن طه حسين وهيلين كيلر وبيتهوفن وسواهم من العظماء من ذوي العاهات ، وكان يضع أمامي كتاب الحياة .

وإذا ما عدنا قليلاً إلى الوراء ، إلى سنة ١٩٧٥ ، فإنني تقدمتُ إلى مسابقة إذاعية لبرنامج مسرح المواهب ، ونجحتُ في المسابقة ، وصُنفتُ مطربة ، إذ غنيتُ لعفاف راضي ، وكانت بداياتي قائمة على أن أحترف الغناء ، لكن سرعان ما عدلتُ، لأنني وجدتُ أن طموحاتي أوسع من حدود هذا الميدان ، ووجدتُ في الشعر ما أغنيه بنفسي .

وفي عام ١٩٨٠ انتسبتُ إلى جمعية أسرة الإخاء السورية ، وهي جمعية خاصة بالمعوقين ، واطلعتُ من خلالها على تجارب هذه الشريحة ، فوجدتُ أن تجربتي ليست الوحيدة ، وأدركتُ أن الإعاقة ليست فقط جسدية ، بل إن كل البشر معوقون وفق صور متنوعة ، فهناك المعوقون من الداخل الذين لا يشعر بهم أحد ، وهناك المعوقون من الظاهر الذين لا تلبث أن تظهر نواقصهم للعيان ، ومن خلال هذه الرؤية أدركتُ أن لدى كل إنسان نقصاً بصورةٍ ما مقابل الكمال الذي هو لله وحده ..

وبعد تخرجي من الجامعة قُبلتُ في البداية معيدة في جامعة اللاذقيّة ، بسبب حصولي على الإجازة بمعدل ممتاز ، إذ كان الأعلى على دفعتي ، وعلى جميع الدفعات التي مرت على قسم اللغة العربية منذ إنشائه حتى عام تخرّجي ، لكن سرعان ما تم الاستنكاف عن متابعة إجراءات التعيين بفعل اطلاعهم على وضعي الصحي ، بالرغم من النصوص القانونية التي تجيز تعيين المعوقين . ربما كانت لهم ذرائعهم بأننا لا نستطيع أن نقدم ما يقدمه السليمون ، لكن عظماء العالم من أصحاب العاهات لا ينفكّون يشكلون قدوة لنا .

وبعد نيل درجة الدبلوم ، كان لا بد من مرافِقة تساعدني وتقرأ لي لأريح والدتي ، إذ إن الدراسة أصبحت تحتاج إلى جهد أكبر وأكثر تعقُّداً . وفي عام ١٩٩٢ نلتُ درجة الماجستير ، وكان عنوان أطروحتي " المنهج النقدي عند طه حسين " . وفي

عام ١٩٩٨ نلتُ درجة الدكتوراه ، وكان عنوان رسالتي " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " بدرجة امتياز . وأنا الآن مُدرّسة في قسم اللغة العربية .

وقد صدرت لي عام ١٩٩٥ ، في أثناء متابعة دراساتي العليا ، مجموعة شعرية عن وزارة الثقافة ، قدَّمها لي الأديب الكبير حنا مينه بعنوان " العرّافة " . كما صدرت لي عام ١٩٩٧ مجموعة ثانية بعنوان " كل آفاقي لأغنياتكِ " بتقديم من والدي . والآن تتم طباعة رسالة الدكتوراه في اتحاد الكتاب العرب . ولديَّ أيضاً مجموعة شعرية ثالثة هي قيد النشر . ولكن الأهم بالنسبة لي مذكراتي التي انتهيتُ من كتابتها ، لأنني سأقدم فيها للناس صراع الإنسان مع القدر والحياة .

لقد عانيتُ الكثير حتى وصلتُ ، وأنا الآن لا أتحرّج من أي تساؤل بشأن عاهتي، كما لم أعد أشعر بأنها تشكل عاهة ، بل نعمة حباني بها الله تعالى ، لكونها باتت تشكل مصدر طاقتي ، وتحولت من مثبطة في البداية إلى محرضة لخطواتي ، لذلك أخاف الشفاء لأنني إذا أصبحتُ أرى ، أخشى أن ينطفئ في داخلي هذا النور الذي أرى من خلاله أشياء أخرى .

للدكتورة ريم هلال أخت كفيفة أيضاً / الكلام هنا لصحيفة الثورة / ، وتحضِّر للماجستير في اللغة العربية ، وأخت مهندسة ، وأخ مهندس ، وهما – بحمد الله – سَليمان ، كانا وما يزالان عوناً لها في الحياة ..

ونحن هنا إذا تحدثنا عن الدكتورة ريم هلال الشاعرة والأستاذة في جامعة تشرين ، فمن حقها علينا ذلك ، فهي تشكل قدوة للمعاقين والأصحاء ، وعملت وقدّمت ما لم يقدمه الكثيرون ممن سلمت حواسهم ، فقد أنعم عليها الله تعالى بنعمة البصيرة ، ورأت ما لم يره الكثيرون من المبصرين في هذا العالم .

" حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي "

الشاعر ميخائيل عيد

نُشِرَت في جريدة الأسبوع الأدبي – سورية ، عدد ٧٠٦ ، تاريخ ٢٠٠٠/٤/٢٩

مؤلِّفة الكتاب هي الدكتورة ريم هلال .. وأول ما قرأتُ لها ، وجدتُ فيها شاعرة عذبة الشعر ، ولم يدُر في خلدي أنني سأقرأ لها مثل هذا البحث الجادّ في مثل هذا الموضوع الواسع والشائك .

وإذا كان التواضع من أبرز صفات الباحث الجادّ ، فإن القارئ سيلمس هذا التواضع في مقدمة الكتاب ، ومن ثم سيُدهَش لغنى البحث ووفرة مصادره ومراجعه وكثرة المسائل التي نظرت فيها الدكتورة الباحثة ، ومجمل الأسئلة التي طرحتْها وسَعَتْ إلى الإجابة عنها مقدِّمةً بذلك كله وفرة من المعلومات ، وغربلة للكثير من المقولات والآراء ، ومستخلصةً من ثم خلاصات يقدّرها القارئ ويعجب بها ، حتى لو لم يتفق معها بشيء من هنا أو شيء من هناك .

إن غنى المعالجة وجديتها وعذوبة شعر الدكتورة ريم هلال ، تطرح مسألة التعدُّد في تجليات النشاط الذهني الإنساني ، وروح العصر الآلي الراهن ، تطرح مسألة تضييق الاختصاص ، ثم يبقى سرّ الموهبة وغنى الطاقة الروحية ، مما لا يخضع للتحديدات أو للحصر . وإذا كانت ثلاثة أرباع الموهبة جهداً ، فإن جهد الباحثة واضح الوضوح كله إلى جانب وضوح موهبتها .

الكتاب في٢٩٠ صفحة من القطع الكبير ، والغلاف من تصميم الفنانة خديجة الشيخ بدر .

شقيقتان كفيفتان تتجاوزان الإعاقة

مروان حويجة

نُشِرَت في جريدة البعث – سورية ، عدد ١١٢٨٧ ، تاريخ ٣٠ /٢٠٠٠/٨

لم تمنع الإعاقة البصرية الطالبة الكفيفة رفيف عبد القادر هلال / طالبة الدراسات العليا في جامعة اللاذقيّة / من متابعة تحصيلها العلمي الأكاديمي بنجاح وتفوق ، في قسم اللغة العربية ، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية . فقد نالت مؤخَّراً درجة الماجستير بامتياز في اللغة العربية وآدابها عن الرسالة التي تقدمت بها تحت عنوان " الترادف بين الدرس اللغوي العربي واللسانيات المعاصرة " ، وحصلت على علامة قدرها ٨٥ درجة ، من قِبَل لجنة الحكم المؤلفة من : د. محمد إسماعيل بصل ، د. أحمد قدور ، د. فاتن محجازي . وتفكّر الطالبة رفيف هلال التي تبلغ من العمر ٢٩ عاماً ، والتي كانت قد حققت المركز الأول على دفعتها في مرحلة الدبلوم ، تفكر حالياً بالتحضير لرسالة الدكتوراه ، كي تلحق بشقيقتها الكبرى الكفيفة / د. ريم هلال/ التي تجاوزت إعاقتها البصرية ، ونالت منذ سنتين شهادة الدكتوراه من قسم اللغة العربية بجامعة اللاذقيّة ، عن رسالة تقدمت بها في النقد العربي الحديث ، وهي تعمل حالياً مدرّسة لمادة النقد الحديث في كلية الآداب والعلوم الإنسانية .

بقي أن نشير أخيراً إلى أن الطالبة رفيف وشقيقتها د. ريم قد خرجتا إلى الحياة ، دون أن تبصرا النور بعينيهما ، لكنهما أبصرتاه بعين العلم والمعرفة ....

إنها صورة من صور الإرادة الإنسانية التي لا تعرف الحدود ، ولا تسعها الآفاق .

الأديبة د. ريم هلال حوار أجرته سروة سلمان

نُشِرَ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٤٨٠٨ ، تاريخ ٢٠٠٠/١٢/١٣

ريم .. اسم يعرفه الكثيرون على أنها مثال المثابرة وأنموذج التحدي . وُلِدَت ريم هلال في اللاذقيّة ، عام ١٩٦٠ ، وقد حصلت على درجة الدكتوراه في

اللغة العربية وآدابها ، وتعمل الآن مدرّسة في كلية الآداب – قسم اللغة العربية ، في جامعة اللاذقيّة ..

– عن فقدانها البصر ، وهل كان عاملاً مثبطاً أو مشجعاً لها قالت :

إن أي أمر يعترض الإنسان يُفترَض – وفق منظوري – أن يشكل عاملاً محفزاً بغية تعويضه عما فقد ، واستفادته من ثروة الإمكانات والفرص الأخرى التي يغدقها الله علينا دائماً ..

– وعن تجربتها الحياتية قالت :

وُلدتُ مصابة بضعف شديد في البصر ، وقد صعق هذا الأمر والديَّ للوهلة الأولى ، لكنهما ما لبثا أن تماسكا ، وأمسكا بيديّ مصرَّين على اجتيازنا معاً دربي المظلم الطويل ، إيماناً منهما بما حبا الله الإنسان من قدرات كبيرة . وهكذا أخذت أمي تعلمني القراءة والكتابة ، وأخذ أبي يعمل على تثقيفي بما تنوَّع من المعارف ، وتزويدي بفلسفته البسيطة العميقة التي تشكلت لديه من خلال تجربته في الحياة .. لا شك في أنني مررتُ خلال مسيرتي بالكثير من العراقيل والمصاعب ، إلا أنني بعون الله وأسرتي والطيبين الكثيرين من حولي ، تمكنتُ من إثبات تفوقي في دراستي، والحصول منذ عامين على درجة الدكتوراه ، ومن ثم التدريس في الجامعة..

– ومن تذكرين بالفضل والخير ؟

من البديهي أن أذكر بالخير الذين انتموا في حياتي إلى صنف الأخيار ، والذين لا أستطيع الآن تحديد أسمائهم لكثرتهم وتفوقهم في العدد – كما سيتبين من خلال مذكراتي – على الذين انتموا إلى الصنف المقابل .. إن من الضروري التفاؤل بثراء الحياة ، ونصرتها للحق في النهاية مهما كان للباطل من جولات آنيّة رابحة ..

– وبمن تقتدين من النماذج الإنسانية ؟

كم أتمنى لو كنت واحدة من الذين يعملون في المنظمات الإنسانية ، ويستعدون دوماً لبذل ما أمكن في سبيل إسعاد الآخرين .. وحين لم تساعدني الظروف على تحقيق اقتدائي بهذا النموذج الرائع ، ارتأيتُ أن أحمل قلمي آملة أن أجعل كلماتي تطعم وتسقي وتداوي ، وتسعد البشر على تنوّعهم وتباينهم ..

– ماذا تعني لكِ زرقاء اليمامة وطه حسين والبردوني ومن ماثلهم ؟

إن أي إنسان يحاول أن يحقق ذاته متجاوزاً العوائق التي قد تضعها أمامه الحياة، لا بد أن يحظى بوقفتي الطويلة المتأنية ، وتأملي المبارك العميق .. إنني أخصُّ بالذكر هنا طه حسين ، الذي كان ولا يزال يشكل قدوة خطاي ، لكثرة ما تردد ذكره على سمعي ، خلال طفولتي وما تلاها من المراحل ، هذا وإن كنت أختلف عنه من حيث ميلي إلى عالم الأدب بصورة تفوق ميلي إلى عالم الأبحاث والدراسات التي كانت تشغله أساساً . أما بالنسبة إلى زرقاء اليمامة ، فقد لا أرى فيها طرفاً مناقضاً لهذين المذكورين أو لأي مكفوف قهر عاهته ، نظراً لما قد يتوقد في داخله من قوة البصيرة التي قد تعادل قوة إبصار الزرقاء ..

– عن مؤلفاتها القديمة والجديدة قالت الدكتورة ريم :

في عام ١٩٩٥ ، صدرت لي عن وزارة الثقافة بدمشق مجموعتي الشعرية الأولى " العرّافة " ، ثم مجموعتي الشعرية الثانية عام ١٩٩٧ " كل آفاقي لأغنياتكِ " ، وفي عام ١٩٩٩ ، صدرت عن اتحاد الكتاب العرب الرسالة التي نلت من خلالها درجة الدكتوراه ، وهي بعنوان " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " .. إن الأعمال الأدبية هي الأكثر قرباً إلى نفسي ، إيماناً مني بأنني من خلالها وباستقطابها لصور الحياة ، أستطيع الوصول إلى أكبر عدد من الناس الذين يمتّون إليها بصلة .. إنني لا أملُّ من قراءة مذكراتي " البصر والبصيرة " ، التي هي قيد النشر الآن مهما تكررت ، لكونها ترتبط بتجربتي الحياتية الحارّة ، وما رافقها من آلام وأفراح ، و لكونها ترتبط بالكثيرين الذين سيتبين لهم أنهم يمتّون إلي بصلة الدرب والعقل والروح ..

– بمن تأثرتِ من الكتّاب والأدباء .. ولمن تطالعين ؟

لقد قرأتُ الكثير من أعمال العرب والأجانب ، القدماء منهم والمحدثين ، ولا شك في أنني تمثلتُ الكثير مما قرأتُ ، وتشكلتْ لديّ بذلك ذخيرة معرفية لا أستطيع تقدير حجمها . لكنني حين أتحدث عن تأثري في مجال كتابتي ، قد أستطيع القول : إنني حين أسكب سطوري على أوراقي ، لا أرى فيها سوى لون واحد سائد على سواه، هو لون تجربتي الشخصية ، سواء مع ذاتي الفردية أو مع ذوات الآخرين أو مع الحياة الغنية بأسرها . لقد تمكنتُ من العثور على شخصيتي الأدبية المستقلة

التي لا أريد لها أن تكون تابعة لأحد مهما كان كبيراً .. أما بشأن مطالعاتي ، فإنني أقرأ ما كثر من الأعمال وما تنوع إيماناً مني بضرورة إغناء نفسي ، وعدم الاكتفاء بالارتواء من مصادر معينة محدودة . هذا وإن كان لا ينبغي أن أخفي ميلي إلى بعض الأدباء ، الذين ربما سيتبين أن خيطاً واحداً يجمعهم هو خيط النزعة التأملية ، وما تنمُّ عليه من محاولة التعمق في أسرار الإنسان والحياة والكون ، وأذكر منهم على سبيل المثال : زهيراً وطرفة والمتنبي والمعري والخيّام وجبران وكازانتزاكي وطاغور ..

– واليوم .. كيف تقضين أوقاتك الثمينة ؟

إن كوني صاحبة قلم ، وكوني مدرّسة في الجامعة ، ينبغي أن يعنيا قضاء الشطر الأكبر من وقتي في القراءة والكتابة والتنقيح والتفكير وسماع البرامج الثقافية من المحطات المتنوعة .. لكن يبدو أن هذه الانشغالات تتفاقم لديّ شيئاً فشيئاً ، إلى درجة أصبحتْ تجعلني أخشى من طغيانها على أوقات حياتي الاجتماعية التي أحرص على أن تكون حيوية دائماً ، بغية استيحائي منها مدادي وحروفي ..

– وماذا بعد أيتها الصالحة لتُضرَب بكِ الأمثال ؟

أحلم بأن أُخرِج الشعلة المضيئة التي ترتاح في داخلي ، وأن أعبُر بها كل الأرض .. كل البشر .. وبكلمة واحدة أتوجه إلى إخوتي المعوقين ، وإلى الذين يحتاجونها من غير المعوقين ، إنها كلمة : سيروا ..

– تقول الدكتورة ريم هلال في جميل شعرها :

أمسِ اصطليتُ
اليومَ اخضررتُ
وغداً سأصبح ثلجاً
لحرائق ما بعد غد

*

كلما التقيتُ برعماً
همس إليّ :
حينما كوكبنا تبرّد

أنا أول من غرّد

*

هل من مُتعَبٍ وراء البحار؟

هل من كسيرٍ وراء الشجر ؟

سلامٌ عليك أخي

هذي يدي أمدُّ إليك

من نافذة القمر

وقول على قول نقول : ألا .. ما أكثر العِبَر ..

" ريم هلال "

في مجموعتها الشعريّة " العرّافة "

الشاعر أحمد دوغان

نُشِرَت في جريدة الثورة – سورية ، عدد ١١٣٩٢ ، تاريخ ٢٠٠١/١/٣٠

ريم هلال ، هذه المرأة المعجزة التي عرفتها مدينة اللاذقيّة ، فقدت البصر منذ ولادتها ، لكن أبويها أصرّا على تعليمها ، وتمكنت بإرادة قوية من التفوق ، حتى تخرّجت في الجامعة " كلية الآداب – قسم اللغة العربية " ، ولم تتوقف في دراستها عند ذلك ، بل تابعت ، وحصلت على الماجستير ، وكانت رسالة البحث بعنوان " المنهج النقدي عند طه حسين " ، ثم حصلت على الدكتوراه بموضوع " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " بتقدير ممتاز في ١٩٩٨/٥/٥ ، وتقدّمت للعمل معيدةً في إطار وزارة التعليم العالي ، وقُبلت ، لكن الوزارة سرعان ما أحجمت عن قبولها بسبب وضعها ، إلا أن الجهود أثمرت ، وكان لها ما أرادت ، وأصبحت مدرّسة في قسم اللغة العربية .

وقد صدر لها أكثر من عمل أدبي ، ومن هذه الأعمال مجموعة شعرية بعنوان " العرّافة " من منشورات وزارة الثقافة في دمشق عام ١٩٩٥ ، وقد قدّم للمجموعة " حنّا مينه " . تقع هذه المجموعة في ١١٠ صفحات من القطع المتوسط ، وتضم ٥٠

نصاً ينتمي إلى قصيدة النثر ، وبصورة أدق إلى قصيدة الومضة ، لأن القصيدة الواحدة حملت لوحة درامية لا يتجاوز عدد أسطرها الشعرية أيام الأسبوع ، لكنها تأتي في تكثيفها على فكر يضع القارئ أمام تجربة تذهب به إلى هذا المعنى أو ذاك. والتكثيف هذا شمل حتى عناوين نصوص المجموعة ، فعشرون عنواناً يحمل كل واحد كلمتين ، بينما ثلاثون عنواناً لم يحمل الواحد منها سوى كلمة واحدة .

وقد أهدت ريم هلال مجموعتها إلى " رفيف " التي عدّتها قارئتها الأولى ، وهي شقيقتها . أما مقدمة المجموعة التي كتبها الروائي حنا مينه ، فقد كانت بعنوان " كلام في الشعر– ريم هلال موضوعاً " ، وامتدت بين رقمَي الصفحتين٧ – ٤٠ ، وفيها تناول موهبة ريم هلال وطموحها ، ثم قدم رأيين لشاعر وناقدة قرأ كل منهما ما كتبتْ ، لكنه لم يصرح باسميهما .

تقول ريم هلال في نص " العرّافة " الذي جاء عنواناً للمجموعة :

وإذ كنتُ أنشد في بحار طفولتي

وأظنُّ أنْ لا شيء سوى الفرح

أمسكَتْ عرّافةٌ برأسيَ الصغير

أدارته نحو زاوية من الفضاء :

أتبصرين ذلك النجم ؟

عقّبَتْ على الصمت العميق :

حقاً إنه سحيق

ويحتاج إلى خطوة الأسفار

كي يلامس نوره شرفاتك ...

الشاعرة هنا تستشرف الآتي بلغة تقدم شفافيتها وعفويتها ، وترسم ما تعلنه عاطفتها ، وهذا لا يعني المباشرة في مفهومها التقريري ، وإنما أسلوبها في التعبير لا يدفعها إلى مغامرة في انزياحات لغوية هي في غنىً عنها ، وبخاصة إذا كانت الشاعرة تعتمد كثيراً على " الذات " موضوعاً ، ليراه المتلقي ممهوراً بالصورة الشعرية التي خرجت عن إطار الأكاديمية البلاغية ، فأخذت من الحداثة ما لاءم تجربتها

بتلقائية لا قسرية . ولعلنا نقف عند نص بعنوان " صلاة " الذي يعطينا نموذجاً آخر في تجربة ريم هلال :

لأن العصافير تنفض قبلنا الكرى

وتحتسي دوننا خمرة الفجر

تهمس أنها الأكثر نقاءً

الأعمق لهفة إلى السرّ

وأنها التائقة إلى الأزل

حين كان الله والبحر وحيدين

والشاعرة في إبداعها ترسم صوراً جميلة لكل الذين وقفوا بجانبها ، وتجلى ذلك في كثير من النصوص التي جاءت موضوعاتها في تراكيب وجدانية أعلنت فيها الانتماء إلى هؤلاء الذين أثْروا تجربتها ، وعمّقوا في ذاتها الوعي الحضاري ، فالفصول في بوحها تلاشت ، والغابات سافرت ، والقمر بين غياب وحضور ، وهي – أي الشاعرة– تحلم بكروم أمها التي لا تفارقها :

كلما تساءلت نجمة

عن الواحة التي كسّرت ضياعي

عن اليد التي أدخلتني الدفء

عن الصوت الذي أنبَتَ لغاتي

لم أجد عينيَّ إلا قد هرعتا

لتؤديا طقوس الأرض في ظلك ...

كثيرة هي المؤهلات التي تحتوي لذة النص ، على تعبير الأديب الفرنسي رولان بارت ، في التكوين الإبداعي عند ريم هلال في مجموعتها " العرّافة " . وأعتقد أن ما جاءت به الشاعرة من نصوص يثير الاهتمام ، ويجسد وعي ريم الفني حاضراً ومستقبلاً ، بعيداً عن الضجيج ، لأنه يقدم ملامح لا تحتاج إلى شهود .. فالشاهد هو النص .

قصة امرأة

نالت الدكتوراه بامتياز ، وأصبحت شاعرة ومدرّسة وهي كفيفة

الإعلاميّ سجيع قرقماز

نُشِرَت في مجلة سيّدتي – لندن ، عدد ١٠٤٤ ، تاريخ ١٠-١٦ /٣ /٢٠٠١

نالت درجة الدكتوراه بامتياز في النقد الأدبي الحديث ، وأصبحت أول كفيفة عربية تنال هذه الشهادة الرفيعة ، وهي بالإضافة إلى ذلك ، شاعرة عميقة الغور في النفس الإنسانية ، حيث قدمت حتى الآن مجموعتين شعريتين ، واحدة بعنوان " العرّافة " ، وأخرى بعنوان " كل آفاقي لأغنياتكِ " أصدرتهما وزارة الثقافة السورية . لكن هذه الإنجازات لم تكن لتتحقق لولا تسلحها بالصبر والأمل . فقد تعبت ، واجتهدت وثابرت ، على الرغم من كل الظروف لتنال الإجازة الجامعية ، ثم الدكتوراه، وأصبحت مدرّسة في الجامعة ، ومع ذلك فهي تؤكد أنها لا تزال في بداية الطريق .. إنها الدكتورة السورية ريم عبد القادر هلال ، التي تتحدث عن تجربتها ، وكيف استطاعت تحقيق النجاح على الرغم من كل المعوقات :

" أشعر بأن هناك رسالة إنسانية أتمنى أن أوصلها إلى أكبر عدد من البشر ، وقد كتبتُ هذه التجربة في مؤلَّفي / البصر والبصيرة / ، الذي شرحتُ فيه تجربتي منذ اليوم الأول من طفولتي حتى حصولي على درجة الدكتوراه . لقد وُلِدتُ مصابةً بالتهاب في الشبكية ، جعلني لا أرى إلا أطيافاً باهتة ، وكان من المفترض أن يؤدي ذلك إلى استسلامي واستسلام أسرتي ، ولكن صممتُ على اجتياز الطريق الصعب ، برغم أنني عانيتُ في المدرسة من إزعاجات زملائي التي جعلتني أخلد إلى الوحدة لأكثر من عامين . وعلى الرغم من إهمال المعلمات ، وتنصُّلهن من المسؤولية ، إلا أن والديَّ أخذا بيدي ، حيث كانت أمي تعلّمني الكتابة والقراءة ، وظلت تقرأ لي حتى انتهائي من مرحلة الدبلوم ، أما أبي فقد ظل يعمل على تثقيفي حتى هذا اليوم الذي أدرّس فيه بالجامعة . لقد سجَّلني أهلي في أفضل المدارس ، ووفروا لي ما أحتاج . ومن خلال تجربتي في الحياة ، اكتشفت أنه ليس هناك فرق بيني وبين الآخرين ، بل كنت أرى أنني أتميز عن الإنسان السوي بأمور قد لا تتوافر فيه . وأذكر أنني

كنت أتمنى أن أصبح مطربة ، وكانت والدتي تساعدني على حفظ الأغاني ، وكان أخوالي يتقنون العزف ويساعدونني ، ونجحتُ في مسابقة غنائية ، وصُنفتُ مطربة ، لكن بعد فترة من دخولي الإذاعة ، فضّلتُ الانسحاب ، على الرغم من تبنّي فيليمون وهبي صوتي ، وذلك لأنني قررتُ أن أتجه إلى الشعر الذي وجدتُ فيه غناء آخر يرضيني " .

وتضيف متحدثة عن الشخص الذي اتخذته قدوة في الحياة ، وعن تجربتها الشعرية :

" طه حسين يشكل قدوة بالنسبة لي ، فقد صحوتُ على اسمه الذي حارب العاهة ، وكافح وتجاوز بيئته ، ولذلك أتمنى أن أحقق جزءاً بسيطاً مما حققه . وعندما انتهيتُ من كتابة مجموعتي / العرّافة / ، شعرتُ بأن هناك خصوصية في هذه المجموعة ، مبنية على خصوصية تجربتي التي انطلقتُ منها ، وشعرتُ بأن هناك ضوءاً في داخلها ، مستمَدَّاً من ضوء تعمقي في الحياة ، والإنسان ، وفي نفسي ، وشعرتُ بأن هذا الضوء ينبغي أن يتفجر ، وألا يبقى سجيناً . وقد خرجت هذه المجموعة بفضل الأديب الكبير حنا مينه ، الذي قرأها وعرضها على أدباء آخرين كي يعرف رأيهم ، ثم قرّر كتابة مقدمة لهذه المجموعة " .

وتختم ريم حديثها عن العمل في الجامعة ، والحلم الذي تنوي تحقيقه :

" إن الطلاب هم إخوتي وأبنائي ، فهم إذا كانوا يستمعون إلى الأساتذة الآخرين بعقولهم ، فإنهم يستمعون إليَّ بعقولهم وقلوبهم وأحلامهم . لقد كنتُ أريد أن أتفرّغ للعمل الإنساني ، وأنشد تحقيق هذا الحلم ، ودخول منظمة إنسانية ، وأن أكرس حياتي لها . لكن حين لم يُتَح لي ذلك ، وجدتُ أنه من الممكن تحقيق ذلك عن طريق الكلمة التي يمكن أن تطير وأن تصل إلى الإنسان " .

حوار مع د. ريم هلال

أجراه محمّد الحرّ

نُشِرَ في جريدة الرأي – الأردن ، عدد ١١١٩٥ ، تاريخ ٤/ ٥ / ٢٠٠١

– العرّافة ، اسم ديوانكِ الأول . هل ينطوي الاسم على شيء ما بالنسبة لكِ ؟ وكيف تختارين أسماء أعمالكِ ؟

بدايةً أقول : إن اختياري عنوان أي عمل لي يتوقف على ما يشغلني فيه بصورة متميزة ، ذلك من قصيدة ما أو سطر ما أو رؤيا ما تجمع شتاته . وهكذا فإنني اخترتُ عنوان العرّافة لمجموعتي الشعرية الأولى بناءً على تشكيله عنوان القصيدة التي امتلكَتْ أهميتها الرئيسية بالنسبة إليّ ، فهي أول ما أعددتُ بغرض النشر بعد كتابة تجريبية دامت عشر سنوات تقريباً ، يضاف إلى ذلك أنها شكلَتْ تكثيفاً لتجربتي الخاصة الحارّة التي مررتُ بها عبر حياتي . والعرّافة هي رمز يتم كشفي له في نهاية القصيدة ، أما في بدايتها ، فهي المرأة التي حاولَتْ منذ طفولتي الأولى التي ظننتُ أن لا شيء فيها سوى الفرح ، أن تبصّرني بذلك النجم البعيد جداً كي يلامس نوره شرفاتي ، وحين كان من البدهي ألا أتمكن من رؤيته ، أشارت إليّ بعد منحي زورقاً وسيفاً بضرورة الانطلاق نحوه ، وحين تم وصولي بعد مروري بذلك الدرب الذي امتلأ بما تنوع من المصاعب والمشاقّ : الصقيع والليل والشوك والأفاعي ، إذا بي ألتقي العرّافة وغمد سيفي ينتظران هناك ، وهناك نزعتُ القناع عن وجه هذه ليتبيّن لي أنها لم تكن سوى أمي ، أمي التي لم تقتنع بناءً على نفاذ بصيرتها ، وبالرغم من طيبتها اللامتناهية ، إلا أن أنطلق عبر طريق العلم والحياة متجاوزة ما كان يفترض وضعي الخاص من عجزي عن مواكبة أقراني . وبذلك كان ينبغي أن أختم قصيدتي بأخذي بيد أمي الخضراء ، وانطلاقنا معاً نحو الشجر .

– قدَّمَ لديوانكِ " العرّافة " الكاتب حنّا مينه ، وهو ليس شاعراً كما هي العادة . ترى لماذا ؟

حين انتهيتُ من كتابة مجموعتي المذكورة ، كان ينبغي بحكم كونها تجربتي الكتابية الأولى ، أن أُطْلِع عليها أي أديب بغية إبداء رأيه حولها ، والتصريح لي بما إذا كانت صالحة للنشر أم لا ؟ وحين كان الأديب حنا مينه الأقرب إلى نفسي وأسرتي ولاذقيتي وحيي ، كان ينبغي أن أصطفيه من بين سواه . وإذا ما كان قد تسلَّمَ عملي مع شيء من الحذر من أن يصاب بالحرج ، فيما إذا لم يصل ما كتبتُه إلى درجة من النضج ، فإنه ما لبث عقب قراءته الأولى له أن اتصَلَ بي هاتفياً ، ليخبرني بصوته المحلق لا أدري إلى أين ، بمدى إعجابه ، لكنه لكي يتوثق من رأيه، ويتثبت من موضوعيته ، حملني على شيء من الانتظار ريثما يعود إلى دمشق ، ويُطلع على عملي سواه من الأدباء ، الشعراء وغير الشعراء ، ولما لاحظ أنه تشكل لديهم ما ماثل إحساسه الذي تشكل لديه ، أصر على أن يتبنى عرّافتي بالنشر والتقديم لها ، غير آبه بما إذا كان روائياً أم شاعراً ، ما دامت الأجناس الأدبية لا بد من أن تلتقي في النهاية ضمن نقطة واحدة ، هي نقطة التعبير عن داخلنا وخارجنا ، وإن اختلفَتْ الأساليب والصيغ التي يتم من خلالها ذلك ما بين جنس وآخر .

– في رسالتكِ لنيل درجة الماجستير التي كانت بعنوان " المنهج النقدي عند طه حسين " ، انتقدتِ عميد الأدب العربي . حدّثينا عن ذلك ، ما هي وجهة نظركِ حول هذا الموضوع ؟ وماذا كان رد فعل لجنة المناقشة حول هذا الانتقاد ؟

على الرغم من تشكيل طه حسين القدوة النَّيِّرة التي استضأتُ بها عبر حياتي ، فإن هذا لم يكن ينبغي أن يحول بيني وبين دراستي له بصورة علمية متعقلة حين تناولته في بحثي ، ذلك لأنه هو الذي لقّنني من خلال أعماله كيف ينبغي على الباحث لدى تناوله موضوعاً معيناً ، أن يتجرد من كل ما تكوَّن في نفسه إزاءه من عواطف وميول شخصية ، وأن يُخضعه للتمحيص والتحليل كما يفعل الكيميائي بمواده في المخابر . لا شك أن طه حسين هو الذي شكَّلَ فاتحة التيار الموضوعي في نقدنا العربي الحديث ، حين استقدم من العالم الغربي ما تنوع من المناهج العلمية كمنهج الشك الديكارتي الذي قام على ضرورة التخلي عن الأفكار المسبقة لدى محاولة الوصول إلى الحقائق ، ومنهج " هيبوليت تين " الذي قام على عدّ

الأدب ثمرة حتمية لا بد من ظهورها بفعل ما يتصل بها من ظروف بيئية وزمانية وعرقية ، ومنهج " سانت بوف " الذي قام على عدّ الأدب أيضاً ثمرة ناجمة عما يتصل بها من حياة الأديب وظروفه الشخصية . لكن ما أخذتُه على طه حسين هو أنه بالإضافة إلى ما عنى تركيزه على هذه المناهج من الاهتمام بما يحيط بالأدب على حساب جوهره ، فإنه اقتصر في تطبيقه لها على الأدب العربي القديم ، وما أدى إليه هذا الأمر من خلال منهج الشك – على سبيل المثال – من إلغاء أدب العصر الجاهلي بأكمله شعراً ونثراً . أما بالنسبة إلى الأدب الغربي الذي كان ينبغي أن يتساوى مع السابق الذكر ضمن ذلك التيار الموضوعي ، فإن طه حسين سرعان ما حول موقفه النقدي تجاهه ، مصرحاً من جانب بعدم رغبته في تطبيق المناهج الثلاثة تلك عليه ، ومخرجاً له من جانب آخر مناهج مغايرة قد كان من شأنها أن تُبرِز ذلك الجوهر الأدبي كالمنهج الذاتي الذي أبدى به ما اتسع من إعجابه بكل عمل من هذا الأدب ، والنقد النمطي الذي حاول به أن يبعد هذه الأعمال عن ظروفها المحيطة بها ، ويمنحها الصفة الإنسانية التي جعلت منها ملائمة لكل زمان ومكان ، متغافلاً بذلك عن وفرة الأعمال العربية القديمة التي امتلكت أيضاً قدرتها على الامتداد ، واستمرار تأثيرها في أذواقنا وعقولنا . أما بالنسبة إلى ردة الفعل التي تشكلت لدى أعضاء لجنة الحكم إزاء ما قدمتُ ، فقد اتسمَتْ بالسلبية والحدة الشديدة، إذ لم يتمكنوا بالرغم مما قدمتُ من براهين منطقية ، من أن يتقبلوا تعرض ناقدة شابة لعميد الأدب العربي بحسب رأيهم ، فمنحوني في نهاية المناقشة تقدير جيد وعلامة السبعين ، اللذين لم يُمنحا عادة إلا لأدنى الطلاب مستوىً .

– هل اختياركِ لنقد طه حسين لرسالة الماجستير موضوعاً ، هو إعجاباً بنقده ؟ أم لأنه مثلٌ أو قدوة بالنسبة لكِ ؟

لا أستطيع أن أرجّح أحد الاحتمالين على الآخر ، فالاثنان امتلكا دوريهما الهامين ، وأبيا إلا أن يظهرا متكاملين متآلفين . إن طه حسين حين شكَّلَ القدوة التي لا أزال أسترشد بها منذ طفولتي حتى وقتنا الحاضر ، لم يكن ذلك إلا بناء على تمكنه من أن يحقق ذاته وفق تلك الصورة المتميزة النادرة ، التي لا بد من أن تبعث

على إعجابي وإعجاب سواي ، ضمن ما اختلف من المجالات : النقد والأدب والترجمة والدراسات التاريخية والسياسية والإصلاح الاجتماعي .

– لماذا جاء اختيارُكِ للشعر دون جنس أدبي آخر ؟ هل يمثّل لكِ الشعر حالة بوح للذات عن الذات ؟

دائماً أقول : إن الفارق بين القدرة الإلهية والقدرة البشرية ، هو اتسام الأولى بالشمول ، وإمكان طَرقها ما اختلف من المجالات ، على نقيض الثانية التي تحددها الإرادة الإلهية غالباً لدى كل إنسان في نقطة واحدة معينة منه ، قد تتجلى في الشعر أو في غير الشعر ، في الأدب أو في غير الأدب . أما بالنسبة إليّ ، فربما اختار لي الله تلقائياً هذا الشعر دون سواه ، وربما كان من المفترض بحكم تجربتي الخاصة أن أتجه حتماً إليه ، لإيجادي فيه من المتسع للتعبير عن رهافة مشاعري ، بصورة تفوق ما في الأجناس الأدبية الأخرى التي أرى أصحابها ينهمكون في خلق ما تنوع من عناصرها ، وذلك من حَدَثٍ وسَرْدٍ ومونولوج وحوار .

– أنجزتِ مذكراتكِ الشخصية ، وقد اخترتِ لها عنوان " البصر والبصيرة " .. ألم تأتِ هذه المذكرات في وقت مبكر ؟ أم لكِ رؤية خاصة حولها ؟

في لحظة حصولي على درجة الدكتوراه ، شعرتُ بأن دائرة كبيرة من تجربتي الحياتية قد اكتمل رسمها ، بعدما وضعتُ نقطتها الأولى في أثناء خطوتي الأولى على دربي ، وحين كنتُ أرغبُ في أن أجعل من تجربتي هذه رسالة مضيئة أبثها بين أكبر عدد من البشر ، ارتأيتُ أن أسرع في إخراجها لهم ، وكشف الحجب عن حقيقتها حذراً من أن يخونني الدهر ، ويسلبني من دنياي قبل أن أحقق هدفي .

– هناك تكثيف شديد للّغة في قصائدكِ .. فكيف تتعاملين مع اللغة في نصوصكِ ؟

نعم إن كثيراً من قصائدي لا يتجاوز عدد سطورها عدد أيام الأسبوع ، كما ذكر أحدهم ، أو ربما أقل ، لكن هذا لا يشكل وفق رأيي استجابة لما يتطلب عصرنا الحديث من سرعة وآلية في الكتابة والتلقي ، إنما انعكاس لكثير من لحظات الحياة أو لحيظاتها التي إن قصر زمانها ، فإنها تحمل من الصور الحياتية المكثفة ما يجعلها تستحق الوقوف عندها ، والتأمل العميق في آفاقها .

– هل هناك توظيف للبعد الزماني والمكاني في كتاباتكِ ؟

بالتأكيد .. ما دام الزمان والمكان يشكلان عنصرين من عناصر الحياة التي أحاول أن أُدْخِلها مجتمعةً في كتاباتي . لكنني بالمقابل لا أعمد إلى حصرهما ضمن حدودهما الخاصة الضيقة ، إنما أجعل منهما رمزين لكثير من الأزمنة والأمكنة التي قد تلتقي معهما ضمن وحدة التجارب الإنسانية .

– هل تشعرين بأنكِ تسيرين في طريق متوازٍ مع طه حسين والبردوني وهيلين كيلر؟ وهل تأثرتِ بأحدهم في مشواركِ الأدبي ؟

إن كل واحد من هؤلاء الذين ذكرتَهم ، وكل واحد من عظماء العالم الآخرين الذين استطاعوا أن يتجاوزوا عاهاتهم ، ويحققوا وجودهم المضيء في هذه الحياة ، كان له تأثيره في روحي وعقلي بصورة تفاوتت نسبتها اتساعاً وعمقاً وفقاً لما حقَّق . لكن هذا لم يعنِ – من جانب آخر – أنه كان عليَّ أن أواكبهم تماماً ، وأوازي بصورة حرفية ما بين خُطاي وخُطاهم ، بل أن أقتصر على جعلي منهم منطلقاً إيجابياً ، ثم أتخذ طريقي المستقلة الخاصة بي لئلا أشكل نسخة مكررة عن أحدهم .

– في ديوانكِ الثاني " كل آفاقي لأغنياتكِ " ، جاءت كل قصائدكِ على وتيرات ثلاث : الحزن والشجن والانكسارات العديدة . لِمَ كل ذلك ؟

إن الحزن يشكل الطابع الذي يسودني بأسري ، ويسود من ثم أعمالي الأدبية كلها، وليس واحداً بعينه ، لأن هذا ما اقتضته تجربتي الحياتية الخاصة التي كان من البدهي أن تمتلئ في كل مرحلة من مراحلها بما تنوع من العثرات والآلام بغية تخطّي عاهتي وإثبات الإرادة الإنسانية . كما أن هذا ما اقتضته بصورة عامة الحياة، التي إن تخللتها الأفراح ، فإن الحزن والألم يشكلان طابعها الطاغي أيضاً ، إن لم يكن في أثنائها ، ففي نهاياتها المحكومة دائماً بالموت . وفي النهاية أقول : إنني لست حزينة لأن الحزن يملأني ، ما دام يشكل في غالب الأحيان وقود أدبي .

– صدر ديوانكِ الأول والثاني عن وزارة الثقافة السورية ، وصدر كتابكِ النقدي عن اتحاد الكتاب العرب . ومع ذلك فلا تتواجد أعمالكِ في معارض الكتاب بالعواصم المختلفة .. لماذا ؟

لا أستطيع أن أُدلي بأي قول حاسم حول هذا الأمر ، فهو يتعلق بالمؤسستين ذاتيهما ، وبكيفية قيامهما بعملية التوزيع .

– مخطوطاتكِ التي بين يديكِ ، هل ستصدر أيضاً عن وزارة الثقافة السورية ؟ ولماذا لم تصدر تباعاً ؟ لِمَ كل هذا التراكم ؟

هنا تذكِّرني بعبارة قالها الفنان المرموق " عاصي الرحباني " ، فحين سُئِل ذات يوم عن سبب قيامه بالإعادات العديدة لتسجيل الأغنية التي يلحنها بالرغم مما تكلفه من نقود كثيرة ؟ أجاب باختصار : أنا أقدم أغنية إلى التاريخ . وها أنا اليوم أجيب بأنني أكتب كثيراً ، لكنني أتأنى كثيراً في تشذيب عملي وتنقيحه قبل إخراجه إلى الناس حذراً من ألا يبدو صالحاً لتقديمه إلى التاريخ . أما الجهة التي يمكنني الاستعانة بها لنشر مخطوطاتي ، فهذا ما أؤجل الإجابة عنه إلى حينه .

– " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " كان الموضوع الذي نلتِ عنه الدكتوراه . لماذا اختياركِ للشعر الجاهلي ؟ وهل ترين أنه استوفى حقه من النقد ؟ أم أنه قد نال منه ؟

لقد اكتسب الشعر الجاهلي بالنسبة إلى الأدب العربي بعامةٍ أهمية متميزة ، بفعل تشكيله الجذر الذي انطلق منه هذا الأدب ، أو ما يماثل مرحلة الطفولة التي تنطلق منها عادة حياة الإنسان بأكملها . لكن بالرغم من ذلك لم يحظَ هذا الشعر عبر تاريخنا النقدي الطويل بالدراسات الكافية العميقة التي كان من شأنها أن تسبر أغواره، وتوضح ثراءه ، وربما عاد هذا إلى انشغال القدماء بجمعه وتدوينه ، وبالشك في صحة بعضه وتمييز صحيحه من موضوعه ، وكذلك إلى قيام النقد العربي القديم غالباً على المنهجين الذاتي واللغوي ، اللذين ليس من شأنهما أن يحققا التعمق المطلوب . ويبدو أنه منذ منتصف القرن العشرين ، تنبه النقاد العرب المحدثون إلى هذه القضية ، فأخذوا يعيدون قراءة الشعر الجاهلي بفعل ما استحوذوا عليه من مناهج غربية ، محاولين إيفاءه حقه ، والتعويض عن تقصير ربما حدث إزاءه خلال القرون الماضية . وبذلك استقر بحثي على محاولة استقطاب ما تنوع من هذه الجهود النقدية ، فلعلي أستطيع بها أن أبرز ما تنوع من جوانب الشعر الجاهلي الأسطورية والاجتماعية والنفسية والفلسفية والفنية التي تم اكتشافها .

– يقال إن الشعر رجل .. فما رأيكِ بذلك ؟ وهل استطاعت المرأة أن تعبر عن نفسها من خلال الشعر ؟

إن أي إنسان سواء أكان رجلاً أم امرأة ، له أن يتمكن من تحقيق ذاته إذا ما سعى نحو توظيف قدراته الظاهرة والكامنة التي حباه بها الله . ولولا ذلك لَمَا تمكنَتْ الأسماء النسائية العديدة من الظهور على ساحة شعرنا العربي عبر تاريخه الطويل ، منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر : الخنساء – ليلى الأخيلية – الولّادة بنت المستكفي – رابعة العدوية – مي زيادة – فدوى طوقان – غادة السمّان – سعاد الصباح – هند هارون . وإذا ما أخَّرتُ ذكر نازك الملائكة إلى هذه اللحظة ، فلكي أتفرغ للتذكير بما كان لها من دور حيوي إلى جانب السياب في التأسيس لشعرنا العربي الحديث .

– لكل مبدع طقوس في الإبداع .. فما هي طقوس الإبداع لدى الشاعرة ريم هلال ؟

قد أستطيع الإجابة عن هذا السؤال ، بأن طقوسي التي ترافق إبداعي قد تبدو داخلية أكثر منها ظاهرية ، فأنا أتلقى من الواقع المحيط بي ما تنوع من العناصر الأولية ، وفي داخلي لا أدري ماذا يحدث من عمليات معقدة وتخمرات قد تسهم في إدخال بعض هذه العناصر تجربتي الشعرية . أما بالنسبة إلى ظهور قصيدتي التي تكون قد تشكلت ، فإنه يبدو لي مفاجئاً في أغلب الأحيان ، وقد يحدث في أي زمان، الصباح أو المساء ، الصيف أو الشتاء ، وفي أي مكان ، البيت أو خارج البيت ، وما يتفرع منهما من أنحاء .

– اختلفت الآراء حول مصطلح الحداثة في الشعر ، وحاول البعض تقسيم الأدب إلى شعر نسائي وذكوري . فما رأيكِ حول هذين الموضوعين ؟

الموضوع الأول متسع وعميق ، يتطلب الكثير من التوقف عنده ، ومع ذلك قد أستطيع الإجابة عنه باختصار ، بأن الحداثة لم تقتصر على عصرنا الحديث ، بل تَكرَّرَ ظهورها عبر تاريخنا بحكم ما كانت تفرض كل مرحلة جديدة من تجاوز التي سبقتها . لكن لا بد من القول بشأن حداثتنا الحاضرة ، وبالتحديد الشعرية منها : إنه بالرغم من مرور ستة عقود على ظهورها ، فإنها لم تصل بعد في رأيي إلى الدرجة الكافية من النضج والاستواء ، ذلك ربما بفعل استمرار شاعرنا الحديث في الحيرة ما بين الحداثة الغربية التي يرى ضرورة في أن يظل مقتدياً بها وكأنها تعنيه ، وحداثته هو التي ينبغي أن تنشأ بصورة تلقائية من تجربته التي يعيشها . أما بشأن الموضوع

الثاني ، فيجدر بنا الاعتقاد بوجود الأدبين النسائي والذكوري ، بفعل الفارق الحيوي الواضح بين الجنسين ، وحتمية انعكاسه على الأدب مثلما ينعكس أي أمر داخلي أو خارجي متعلق بالأديب . لكنني أتساءل دائماً : لماذا الإلحاح في هذه الأيام على هذا التقسيم ؟ وقد كان بالإمكان أن ينقسم الأدب وفقاً لما تنوع من الأسس الأخرى التي تحكمه : البيئة والعصر والعرق والمجتمع والدين ، وما يتفرع من كلٍّ من جزئيات . وبذلك أنتهي إلى أننا أمام خيارين : فإما أن نتعامل مع الأدب من حيث ارتباطه بكل تلك الأسس المذكورة دون استثناء ، وإما أن نتعامل معه بغضّ النظر عنها كلها ، وبعَدِّه أدباً إنسانياً قبل كل شيء ، نابعاً من الفطرة الإنسانية التي توحد ما بين البشر على تبايناتهم .

– لماذا أنتِ بعيدة عن الساحة الأدبية العربية ؟

أنتم تتحدثون عن الانتشار الأفقي الذي تقصدون به وصول المبدع إلى أكبر عدد من البشر ، وما أراه أنا مهماً بالدرجة الأولى ، هو الانتشار العمودي الذي أقصد به تأثير المبدع الإيجابي ولو في نفس واحدة حتى أعمق أعماقها . كم أتمنى أن أكون قد حققتُ شيئاً من هذا الأمر الثاني في نفوس الذين التقيتهم عبر حياتي ، ولاسيما أنه من الممكن أن يشكل المنطلق الأكثر سلامة إلى الأمر الأول ، إلى امتدادي بتأثيري العميق لأشمل به كل أبناء الأرض ولو بعد عصور من حياتي .

عميدة الأدب السوري

م – ل

نُشِرَت في جريدة الشرق الأوسط ، عدد ٨٢٢٠ ، تاريخ ٣١ / ٥ / ٢٠٠١

نبَّهني قارئ كريم عبر البريد الإلكتروني ، إلى ظاهرة سورية اسمها " ريم هلال "، فقدت البصر ، فلعلعت في خيالها البصيرة ، وهي تكتب الشعر والنقد ، وتدرّس في الجامعة في خطوات تُذكِّر بعميد الأدب المصري طه حسين .

وقد كانت رسالة الماجستير لعميدة الأدب السوري عن " المنهج النقدي عند طه حسين " ، وأشرف عليها – كما علمتُ لاحقاً – زميلنا النابه الدكتور فؤاد المرعي .

ولأني من الذين يكنّون إعجاباً استثنائياً لكل أخضر ينبت في قلب الصخر ، ويقاوم كل موجبات الجفاف ليثمر ويتحدى ويعطي ؛ فقد طلبتُ من الوطن كتُب عميدة الأدب السوري دون أن أخفي على القارئ الذي نبهني إلى جمال هذه الزهرة الساحلية ، غصة تصيبنا كلما أدركنا أن الأوطان تزداد تجذراً في القلوب ، نأت ولا يغيرها النأي الذي طالما غيَّر المحبين العاديين الذين تقصدهم فيروز بأغنيتها ، وهم غير العشاق الذين تزيدهم المسافات والأزمنة شوقاً على شوق .

ولا أعرف إن كان التلفزيون السوري قد قدّم ريم هلال بما يليق بها ، وفي حدود ما يصلنا لم نشاهد شيئاً في الفضائية السورية ، ولم نستغرب ، فالفضائيات ليست عيون الوطن على العالم ، بقدر ما هي مجموعة من الأقنعة الاصطناعية ، التي تخفي أكثر مما تُقدِّم وتكشف .

وقد لاحظتُ أن سورية برموزها الثقافية الجادّة ، قد احتفت بعميدة الأدب السوري، فديوانها الأول " العرّافة " قدّم له الروائي حنا مينه مقدمة تفيض عذوبة ، حاول أن يقول فيها إنه يكتب عن ريم هلال بما ستكون ، وهذا يعني أنه يجب عليك ألا تتوقع الكثير من بداياتها ، ولم يكن حنا مينه بحاجة إلى هذا التحرز ، لكن الروائي الذي يكتب عن الشعر لابد أن يتحرز رغم ما بين الفنين من صلات القربى ، فشعرية الرواية الحديثة تقرّب الضفتين إلى أقصى ما تسمح به المخيلة الخصبة ، مرضعة الشعر وأم الرواية .

ولاشك أن الخياط الذي يتحدى العجز ، ويدق الأرض لتشرق الشمس ، كان في ذهن صاحب رواية " الشمس في يوم غائم " ، وهو يكتب عن ريم هلال تلك الأسطر الحافلة بالحفاوة والمحبة : " الروح التي تنساب نسغاً في الكلمات تعطي للكلمات أن تقول ذاتها مشفقة حدبة ، كأنما تطل على الدنيا في شيء من وجل أشبه في خفرها بالشمس التي تبزغ على استحياء في يوم غائم من أيام الشتاء " .

وشعر ريم هلال لا يحتاج إلى مجاملات ، فهو من النوع الذي يغريك بالكتابة عنه ، وتقديمه للناس حتى وإن لم تكن خلفه أسطورة إنسانية من الانتصار على العجز ، فأين تجد في شعر هذه الأيام تلك اللمسات البارعة الأصيلة لشاعرة تقلقها

أسئلة الوجود والعدم ؟ فتذهب إلى أسّ الأشياء برشاقة نورس بحري ، تعلمت منه الأمواج أناقة مغازلة الشواطئ والانتحار حباً على رمالها :

لأن العصافير تنفض قبلنا الكرى

وتحتسي دوننا خمرة الفجر

تهمس أنها الأكثر نقاءً

الأعمق لهفةً إلى السرّ

وأنها التائقة إلى الأزل

حين كان الله والبحر وحيدين .

وهذه العودة إلى السكينة الساجية ، تندغم عند ريم هلال بشهوة وألم الولادات الصعبة ، فقد تعلمت من تجربة مواجهة ظلام الأبدية أن الورود لا تأتي إلا من جرح الأرض ، وأننا قادرون إذا تحلينا بالإرادة على تحويل الجراح إلى واحات :

كلما تسلل إليّ جرحٌ

تفتَّقت عريشة ياسمين

فيا جراحي تكاثري

تلوَّني

لعلي أنلَمُّ واحةً

لعلي أصعد نجمة

وهذا التفاؤل والتعالي فوق الجراح ، لا ينبت إلا في النفوس التي تعيش سلامها الداخلي ، وتدرك عمق وحدة الكون ، فالتأمل بالبصيرة أنتج منذ بشار والمعري وملتون شعراً أعمق من ذاك الذي نتج عن تأمل البصر ، وأجمل ما في عميدة الأدب السوري تلك البساطة الإدراكية لمسائل الوجود المعقدة ، فهي تقول لك ما تظن أنك تعرفه ، وتلك البلاغة التي قال عنها القدماء إنها إذا طرقت أذن الجاهل ظن أنه يتقنها .

والأمثلة على انشغالات ريم هلال بوحدة الوجود ، وتقبلها لحقائقها ببساطة الماء وعذوبته كثيرة ومنها :

أمس اصطليتُ

اليوم اخضررتُ

وغداً سأصبح ثلجاً

لحرائق ما بعد غد

ومن الأمس إلى اليوم ، سنؤجل إلى الغد الحديث عن عبد القادر هلال والد هذه الشاعرة ، الذي قال عنها في مقدمة ديوانها الثاني " كل آفاقي لأغنياتكِ " : " إن ريم وتجربة حياتها تمثل قصيدة طويلة ما زلنا ننشدها معاً " . وصدق ذلك الوالد العظيم، فمن يفقد نعمة البصر يتحول إلى مستطيع بغيره كما قال طه حسين . وكم بين هذا الغير من أساطير حقيقية تسعى على قدمين ، وتقدم أروع الأمثلة في العطاء وإنكار الذات من أجل أن تسطع شمس الموهبة .

حكايات تتحدّى الإعاقة

م – ل

نُشِرَت في جريدة الشرق الأوسط ، عدد ٨٢٢١ ، تاريخ ١ / ٦ / ٢٠٠١

تقول ريم هلال في إحدى قصائدها :

كان بجانبي عينان

تضيئان أَلِفي وبائي ...

والأب سور البيت وسياج الحديقة والحامي من نكبات الدهر للمبصرين ، فما بالك بمن فقدت بصرها في مهدها ؟

إنها محظوظة ولاشك برغم إعاقتها ، فوجود أب من هذا النوع النادر مسألة نادرة الحدوث . وأحلى ما في شخصية والد ريم ، فرحه السري والعلني بإنجازات ابنته . فقديماً قالوا : " كل فتاة بأبيها معجبة " ، وحقَّ عليهم بعد قراءة ما خطه يراع عبد القادر هلال والد عميدة الأدب السوري ريم هلال أن يضيفوا : " وكل أب بفتاته مفتون " .

إن المقدمة التي كتبها الوالد لديوان ابنته " كل آفاقي لأغنياتكِ " ، قصيدة حقيقية تحكي عن مسيرة صعبة لا لتستذرف الدمع ، إنما لتشجع على النهوض بأعباء

جليلة، ولتلفت النظر إلى مهمة مهملة في بعض أقطارنا ، وهي رعاية المعوقين والعناية بهم وبمواهبهم ، فما كل معوق أو معوقة يعثران على أب كوالد ريم .

يقول عبد القادر هلال عن تلك التجربة التي خاضها : " مع ريم وعلى مدى تلك التجربة عرفتُ وخز الدمع وهو يجف على صفحة الوجه ، سواء عند الإحساس بالبؤس بغوره الأسود العميق ، أو عند تلقي مكافآت الحياة على الجهاد معها وفي سبيلها ، وما أمدّتنا به من آمال تتمادى تمادي الآفاق يبدأ واحدها حيث ينتهي سابقه" .

ولا يخفي والد الشاعرة التي عوضت بالبصر بصيرة ، نقده المبطَّن لمدارسنا ، فقد تعلمت ريم في جو فيه بعض السخرية والتحرش ، والمعلمات في مدرستها يضِعنَ في زحام لقمة العيش ، وأعباء المهنة ، الأمر الذي جعل وقود الانشغال بالآخرين ينفد عند معظمهن ، وهكذا لم تبقَ غير العائلة المكونة من الأم ، والأب الذي كان يعرف أنه يخوض معركة صعبة في مجتمع غير مؤهل لرعاية المعوقين ، فيقول هو عن مسيرته مع الطفلة الضريرة التي استوت شاعرة لامعة : " كان ذلك كله يتم في بيئة لم تعدّ نفسها للتعامل مع حالة كهذه ، لقد كانت ريادة في طبيعة شائكة قلما اختطتها قدم سابقة ، أو ارتسم على أرضها أثر يهدي " .

إن عبارة من هذا النوع الحارق المحرق يُفترَض أن تنبهنا إلى تقصير عربي شامل في رعاية المعوقين ، وهو مجال يحتاج إلى الكثير من الأريحية والنبل وإنكار الذات، ويشهد الله أني أكنُّ في هذا المجال وبعد والد ريم هلال وأمثاله وهم قلة ، تقديراً خاصاً للأمير سلطان بن سلمان ، ليس لما قام به في الفضاء ، إنما لما يفعله على الأرض ، فدوره في تنشيط جمعيات رعاية المعوقين في السعودية والعالم العربي يكاد يكون الواحة شبه الوحيدة في صحراء مترامية الأطراف من الإهمال .

وما دمنا في سيرة الجمعيات التي ترعى المعوقين ، لا بد أن نلاحظ من مقدمة عبد القادر هلال لديوان ابنته ، إشارته إلى أريحية ريم ، فقد قامت رغم حاجتها بالتبرع بمكافأة تفوقها الجامعي لجمعية ترعى الأطفال المعوقين ، وهو يشير أيضاً إلى أمانتها العلمية ، فقد امتنعت ذات يوم عن كتابة جواب سؤال في قاعة الامتحانات لأنها سمعت الإجابة من حديث هامس حولها ، والذين يفقدون البصر

يسمعون أكثر من غيرهم بمراحل كما هو معروف ، نظراً لانتقال قوة الحاسة البصرية إلى الحواس الأخرى . أما عن الإرادة ، فإن الوالد المفتون بفتاته يحكي لنا عن تمكنها من تعلم الضرب على الآلة الكاتبة في ثلاثة أيام ، ويقدم مثالاً آخر على إرادتها ، فقد استطاعت أن تعود من جنوب اللاذقية حيث كلية الآداب في جامعة تشرين إلى شمالها حيث منزلهم في زقاق سوق الصباغين باللاذقية القديمة ، وفي سبيل ذلك اجتازت ، بعد أن تخلت عنها رفيقتها ، أزقة ومطبات وحفراً ، ووصلت إلى مكان لم تكن قبلها تعود إليه إلا مع دليلة أو دليل .

لقد نبغت ريم هلال في محيط يعادي الإعاقة ، فأثناء مناقشة رسالتها للماجستير عن طه حسين ، انتهرها أحد المناقشين لأنها انتقدت منهج عميد الأدب المصري النقدي ، وتأثرت درجتها من جراء ذلك الموقف . وحين كانت في الليسانس ، تفوقت على مدار أربع سنوات ، وحصلت على معدلات لم يسبقها إليها أي طالب في قسم اللغة العربية بجامعة اللاذقيّة ، وبرغم ذلك جاء من يقف في وجه تعيينها معيدة في القسم الذي تخرجت منه ، ولم تتم تسوية تلك القضية إلا بعد معركة اجتماعية حامية الوطيس ، انضم فيها الإعلام إلى الأب الذي رعى مواهب ابنته المعوقة ، وأوصلها مزهواً إلى حيث هي شاعرة وأستاذة جامعية ملء السمع والفؤاد .

وقد قرأتُ هذه الحكايات المبعثرة من سيرة تفوق الشاعرة السورية ريم هلال ، وعيني دائماً على الأب الذي حفر بأظافره الصخر ، ليوفر لفلذة كبده التي فقدت بصرها موقعاً تحس فيه بإنسانيتها وكرامتها ، بدلاً من أن تتحول إلى عاهة يضيق بها الآخرون كما يحصل في عشرات ومئات حالات الإعاقة ، التي لا يتوافر لها ذلك الأب المضحي ، ولا المناخ العائلي الحنون الذي ضحت فيه الأم أيضاً بصمت ونكران . لقد سمعنا كثيراً عن الأمهات المثاليات ، أما الآباء المثاليون فهم قلة ، نظراً لأنانية الرجال ، ومن قلة القلة هذا الأب الاستثنائي الذي منح الضوء لمن فقدته، وصار لها العينان اللتان بهما تبصر وتقرأ ، وترتقي في مدارج الثقافة والعلوم والفنون .

عبد القادر هلال وريم هلال أسطورتان سوريتان معاصرتان ، الأول بإنكار الذات، والثانية بتحدي الإعاقة ، وهما بما أنجزا حتى الآن قوة مثلى هي الشعر ذاته،

فهل الشعر إلا مقارعة المستحيل ؟ ومساعدة الزهور لتنبت ، في قلب الصخر والبحر ، وتعطر الكون متحدية القوانين الصماء ، ومثبطات الجفاف والملوحة .

" اسمي والأرض " .. والصباحات الرمادية في كل مكان

الدكتورة ريم هلال .. ومشروع العبق الشعري المصنوع من قمر

الإعلاميّ محمد الراشد

نُشِرَت في جريدة الجماهير– حلب ، عدد ١٠٨٦٩ ، تاريخ٤ /٢٠٠١/١٢

هنالك .. على الشاطئ المتوسطي الضاحك ، حيث تقيم طيور النورس أعراساً للحب ، وتلتحف الأرض بالمروج الدائمة بالضياء ، وتولّد أمواج البحر مئات اللغات، في حين تعزف الطبيعة الغنّاء سمفونية الوجود التي انطلقت منذ آلاف السنين في ربوع أوغاريت ، محققة تزاوجاً أزلياً بين البحر والجبل .. في هذه الربوع المرصعة بالخصب والعطاء والجمال ، تأخذ ورود الآداب والفنون طريقها إلى الحياة..

والدكتورة ريم هلال أستاذة النقد الحديث في جامعة اللاذقيّة ، والأخصائية في الأدب الجاهلي حسب أطروحتها لنيل شهادة الدكتوراه ، تقدّم نفسها اليوم بصورة سمفونية جديدة .. أو هكذا يلوح لي بعد قراءتي لمجموعتها الشعرية : " اسمي والأرض " . إنها تحاول تجاوز كل المدارس والقوالب والحدود عبر اندياحها الريان مع الكلمات ، حتى ليكاد يخيل إليّ ، أنها تبحث عن أبجدية خاصة بها .. ومن يدري لعلها شعرت بضرب من الغيرة من أهل موطنها القدماء .. أولئك الأوغاريتيون العظماء الذين صنعوا أبجدية أبدية للإنسانية جمعاء .

ولنبدأ من حيث انتهت في شريانها المزهر " اسمي والأرض " ، فنجدها تقول في الفقرة الحادية والسبعين من اسمها والأرض :

حين كنتُ عصفوراً

زرعتُ وردة في الشمس

وحين رمانيَ المدى

وجدتُ أني نسيتُها

ناديتُ في ليليَ المُثَلَّج

احتميتُ بمعطفيَ المبلل

ثم صرتُ أختلس

من كل فجر خصلة

والآن ..

الآنَ دعني

فأنا ذاهبةٌ

لأقِيَ خميلتي

هكذا كان مسك الختام .. فماذا عن بدايات المشوار مع الدكتورة ريم وحكاية الأرض التي لا تموت ؟ إذا ما عدنا القهقرى مع صفحات المجموعة وفقراتها ، فنعثر أول ما نعثر على ذاكرة خصبة ، تكاد لا تقل عن طبقات الذاكرة التاريخية لأي شعب من الشعوب . لذا نجد ريم أبداً تطل الورود من أكمامها .. إنها تبحر غوصاً في ماضيها الملوَّن بقوس قزح حيناً وبغيوم من السحاب حيناً آخر .. بيد أن ماضيها العتيد أبداً في ذاكرتها شفيف كالماء ، حنون كتغريد البلابل ، مرح كرفة عصفور .. إلا أن مرحه حزين ، إذا كان مثل هذا المصطلح يصلح للتعبير عن عوالم ريم هلال ونجومها وأقمارها .. لذا ترسل كلماتها أبداً كندى الصباح الريان عبر خيوط شمس الأضاحي المرصعة بالضياء .. لذا نراها حنونة كحمامة الأيك ، حالمة كفردوس مولود .. وهذا ما نتلمسه من الفقرة الأولى التي تكاد تتزاوج مع رمال بني عبس ، وواحات كل قبائل الأمس البعيد :

أطفأتُ مصابيح خيامهم

سقيتُهم أغنية النعاس

فككتُ أزرار طيني

تخفّيتُ في ثوب رند :

فأنا قبائلي ..

هنالك بيتي

هنالك بيتي .. وعلوتُ

الحلم الممزوج بأثواب الفرح وخيوط المأساة ، يكاد لا يفارقها ، وهذا ما نستشفه من الفِقَر التالية في الديوان :

كانت تلمني في الموج

تستلُّ من الصخر أرجوحتي

ترسم لي حلماً من كروم

ودون أن ينبح ليل

انزَوَتْ غافيةً

ضعتُ

بردتُ

صليتُ حتى التكسر

ثم جعلتُ نزيفيَ الشراع ...

مفردات ريم وأدواتها الكتابية ، تكاد تكون كلها مستقاة من صفحات الطفولة البيضاء السوداء المتمازجة مع كل الألوان .. إنها منساقة أبداً خلف حلمها الطفولي الذي لا تريده أن ينساب من بين أصابع عمرها الزمني .. تريده حياً لا يموت ، لتولد منه ألف أغنية وأغنية ، وتنسج منه ألف لوحة ولوحة .. من ثلج الصباح إلى ازرقاق البحر والسماء وعطر البنفسج وكل تفاصيل ريش الحمام .. لذا لا يكون صباح ريم جميلاً ، إلا عبر اخضرار الغابات العذراء ، مع أشجارها وينابيعها الحالمة بالبوح الأبدي لربيع لا ينتهي .. ومن أجل هذا تترنم الشاعرة بقانون الحب ونظمه الكونية ، لا بقانون شرائع الغاب التي تسيطر على العالم كله .. إنها تحب الله والإنسان والعالم .. لذا تغتسل أبداً بشذى الأصباح النشوانة السكرى عبر الحقول المشبعة بالضياء . ولنقرأ معاً استهلال الفقرة السادسة :

أمي ..

إلى الآن نائمة ؟ !

انهضي

المروج تعدُّ قهوتها

الشمس ترمي لحافها ...

بيد أن حليبها الساخن الذي كانت تطلبه من أمها ، لا زال ساخناً ، وسيبقى في ذاكرتها الداخلية كما في تاريخها الشخصي ، على طول امتداد طفولتها التي لا تعرف إلى الانتهاء سبيلاً :

على صحف الطفولة

أشرق مصباح

سكنت إليه جفوني

احتسته قطرةً قطره

اخضرَّت جفوني عصفوراً

غافلَت المصباح

لتتغرس مزموراً

في حقول البرد

هذا ما احتضنته الفقرة السابعة من " اسمي والأرض " ، والتي تشد بنا الرحال إلى كل البساتين والحقول ، التي اختزنتها ذاكرة ريم هلال في صيفها وخريفها وشتائها وربيعها .. لذا لا تكاد تبتعد إلا قليلاً عن نوافذها الموشحة بضياء شموس الأيام :

كدتُ أمس أخبو

على دروب الجليد

ومن حينٍ لحين

تهتدي إليَّ لُجّة

هنا

قرب نافذتي المشمسة

كما جاء في الفقرة الثانية والعشرين .. ثم لا تلبث الصباحات الرمادية أن تظهر حيناً وتتوارى حيناً آخر خلف الآفاق ، لكنها قد تزرع نفسها في الثرى لتنبت ما تنبت كما في الفقرة الرابعة والثلاثين :

من أرض ليلي

نبت ضوئي

من أرض ضوئي

نبت ليلي

فما هو اسمكَ

أيها الضوء الآتي ؟

ولعل هنا يتمركز الإشكال أو جانب من الإشكال الذي يزرع نفسه في قلب الشاعرة ويعانق كل خلية من خلاياها المشبعة تفجراً وضياءً .. لذا بقدر ما تستحم بتربة الأرض وطيبها ، تستحم بسحب السماء :

كانت السماء حينذاك

مثقلةً بالزنبق الأبيض

لماذا أرى السماء دائماً

مرآةً لفصولي ؟ !

وعند هذه الفقرة الرابعة والأربعين ، أستودع الدكتورة ريم هلال على أمل اللقاء مع إنجاز جديد ..

" اسمي والأرض "

مجموعة شعريّة جديدة للدكتورة ريم هلال

الأديبة ليلى مقدسي

نُشِرَت في جريدة الثورة – سورية ، عدد ١١٦٦٢ ، تاريخ ١٦/ ١٢ /٢٠٠١

المجموعة صادرة عن دار المرساة في اللاذقيّة ، والغلاف للفنانة تغريد صبيح ، يتمدد فيه اللون الأزرق معانقاً الشمس البعيدة كمدّ وجزر آفاق المجهول ، وشرود الطيور الثلاثة يشعرنا بانسحاب الإنسان إلى داخل ذاته ، متوغلاً ما بين انقباض وانبساط العقل والقلب والروح ، مذوّباً الصراع في الأرض ، مذوّباً الهموم على صخور القوة ، فهل كانت الدكتورة ريم تحاول أن تشعل نجوم الأمل في ليل الأرض وليل ذاتها ؟

وقد لا نتمكن من قراءة شعر الشاعرة إلا إذا تعمقنا في التجانس الكوني ورؤيته عبر الغمض الآتي ، هذا التجانس يتفتح مع الذات ، ويلامس الأشياء غير المتجانسة ، وينقل لنا أفكار الشاعرة في تماسها وتلامسها ، فهل ترتوي أحاسيس ريم من الأرض وهي تسقيها من رحيق الشعر ؟ وأجنحة المعنى اللامرئية ، تحلق بلغة شفافة من روح تملك قوة السيطرة على المألوف ، لتنمو الرؤيا التي تفكفك أزرار الأرض الوردية وهي ترى ما لا يُرى ، لتوقظنا من أغنية النعاس :

رفيقتي

وأنت في البرد نائمة

تأتينني كل صباح

تفضّين درب صنوبرٍ

تهبينني يدك الدافئة ...

البناء الشعري في المعاني تنظمه الصور الإشراقية ، والعاطفة تجعله حقيقياً صادقاً ، لأنها تمس كل ما هو مأساوي في الحياة ، وذاتها تعزف من أسرار كآبة الأسى ، والأفكار تتسرى من سراديب إحساسها العميق فتقول :

مظالمَ الأرض

ما أغزركِ

ما أشدّكِ أمام الفصول

حتى بين طفل وأمه

أحياناً تزهرين ...

وهكذا تتواصل مع التجربة الحية ، مع الأشياء التي تبدو غير حقيقية ، مع الكون وأعماقه الإنسانية ، محيطاً بلا حدود . هل هذه الروح السامية تطل من جبل شامخ لتضعنا في جواب الصمت والحروف ؟ ترسم دهشة الأسئلة على بياض غربة الذات عن البشر ، والزمن .. والحياة ؟ ولكن الضوء .. النور الداخلي الوهاج جعلها تتساءل :

من أرض ليلي

نبت ضوئي

من أرض ضوئي

نبت ليلي

فما هو اسمك

أيها الضوء الآتي ؟ !

أصبحت هي الأرض ، والأرض هي المنبت والجذور ، ولكنها تجوب بخطواتها دروب الصراع ، والزمن يتأبط صرر الشر والنفاق والقتل والحقد ، وتبقى شامخة بعنفوان إنسانيتها ، تُغرِق كل شيء في مياه النسيان الآني ، فتصبح يمامة الكلمات على شجر الشعر ، تغني لطفل القمر الذي يحبو بنوره الخافت على نافذتها ، وترش وريقات دفترها من كرمة أفكارها ، عناقيد للمحبة وصوراً للسلام . وعلى مرايا الصباح تغسل بأصابعها الشرور ، وترسم إنسانية الإنسان بحروف ضبابية وألوان رمادية منتظرة ضحكة الشمس بين زنابق الصفاء واخضرار السلام على غصن المحبة فتقول :

لأنني خنتُ الضغينة

أخذَتْ فراشة بيدي

لَمَّني مريوليَ الأزرق

التقيتُ هنالك دميتي

وهكذا تعود طفلة ، قلبها بياض الثلج ، تلاحق عصفورتها مرحة فوق مروج النقاء، وأفكارها تزاوج العقل بالحب الإنساني ، ببساطة اللغة وبراءة الصور ، وبراعة الأفكار تجعلنا نضحك ونحزن على إيقاع كلماتها ، وهي تحزم القصيدة وروداً للشمس وضحكة للطفولة وصرة للمعاناة في حقول الحياة الجافة :

والآن

الآنَ دعني

فأنا ذاهبةٌ

لأَقِيَ خميلتي

ما كنا نقرأ لغة القصيدة إلا بقدر ما تمنحنا اللغة من صور خرجت من قلب الأرض الطيبة ، من قلب ريم البكر ، وجوهر الذات يملأ لنا كؤوس الانتظار من

خمائل مقاطع مجموعتها المترابطة .. المنفصلة تبدو كقصيدة واحدة ، وكبحر فضفاض تتباعد عنه الينابيع ثم تصب به .. رأت في الأرض ما لا يراه الرائي ، وتعمقت بوعي بوضعية الإنسان الفاني الذي يعيش العالم كله كأنه حلم كبير ، وتتموج الحروف في أرجوحة العطاء الإنساني ، فترسم لدالية العمر أحلامها :

كانت تلمّني في الموج

تستلّ من الصخر أرجوحتي

ترسم لي حلماً من كروم

انزوت غافية

ضعتُ

بردتُ

صليتُ حتى التكسُّر

ثم جعلتُ نزيفيَ الشراع ...

أهذا النزيف لغة الشاعرة ؟ أم لغة الماء المغسولة بجراح قلب ينبض ابتسامة ودمعة ؟ وهي تمسح بأصابع كلماتها دمعة خفية من عيون البشر ، ولكن من يمسح دمعتها بحنان ؟

في اللحظة الشعرية المبدعة بوح اللاوعي في النفس ، فترجع إلى جَدتها ، هل هذه الجَدة هي الطفولة الهاربة ؟ هل هي الأمومة ؟ هل هي الأرض ؟ ومن دنان شمسها تسكب ذكرياتها الوردية في بستان جدتها :

ديكَ الأصيل

من أين أتيتَني

من بستان جدتي الذي

هجّأتَ لي فيه صلاتك ؟

أَتَذكُرُ كيف هجأت لي صلاتك ؟

كيف حال جدتي

لماذا نسيَتْ بيتنا ؟

القهوة على الموقد

وجمر نرجيلتها

اذهب وأيقظها

فأنا اليوم أكثر لهفةً

أكثر لهفةً إلى ظلها

إنها الأرض ، والأرض هي .. منبت الجذور الأصيلة ، وُلِدت من ذبيان وتغلب وكانت تحبو حول خيامهم ، أيقظتها روح جبران لعله يقرأها ، يقرأ نبضها على وجه نجمة الإهداء إليه .

وهكذا تم تنسيق الجذور مع الذات التي تعكس عناصر متآلفة متنافرة ، وبذلك تنظم جميع الأشياء في بناء المعنى وبناء الصور مع إيقاع الصوت الدافئ ، ويبقى اسم ريم على وجه كل صبح يعكس ضوء ذاتها على مرايا قلوبنا .. وعلى ظلمة الأرض ..

ما بين بصيرتكِ .. وبصري

نضال محمد حيدر

إلى د . ريم هلال شاعرةً وإنسانةً

بمناسبة صدور كتابها " البصر والبصيرة " ، ٥ /١ /٢٠٠٢

-١-

بكل رقّة وعذوبة ، تطلّين من عالمكِ النقّي ، تنشرين عبق الكلام ، تُشعلين حرائق الياسمين في غابات الصمت ..

يتسرّب صوتكِ الملائكيّ ليزيل عن روحي صدأها .. ليعلن أن هناك متَّسعاً .. للمحبة والصدق .. والنبل .. والحنين ..

-٢-

ما بين بصيرتكِ .. وبصري .. شوطٌ طويلٌ طويل .. عمرٌ مُندَّىً بالانكسار .. لم أكن لأقوى على اجتيازه ، دون الوقوف طويلاً ، والتمعُّن مليَّاً في كنه تجربتكِ عمقاً.. واستطالةً .. وبعداً .. أيتها الأنثى التي يخجل من نورها .. ضوء النهار ..

-٣-

إنها المحبة .. تومئ إليَّ عند مفترق الروح فأتبعها .. أتهجّى حضورها دفئاً .. واخضراراً عصيّاً على الذبول .. لأسائل نفسي .. كيف لشعلة الحقّ أن تنطفئ إذ يؤججها الإيمان والدأب .. والمثابرة .. ؟! ..

-٤-

يا أنثى الحرف الجميل .. كيف لي دخول عالمكِ الشفيف ؟! ..

كيف لي القبض على لحظة تُحيلينها دهراً من صفاء ؟! ..

كيف لي فكّ رموز الحرف وأنا الذي لم يتعلم يوماً الأبجديّة ؟!

-٥-

يا أنثى من ضياء .. تواكبين فجر الحَزانى .. تمسحين الدموع المنسكبة من القلوب الواجفة .. تُحيلين الصقيع دفئاً .. والظلمة نوراً .. وإذ تتبسمين .. تطلُّ الروح من شرفة الوقت ، لتغتسل برذاذ العافية .. !! ..

-٦-

من رماد الوقت تشرقين .. قامةً من ضياء .. موشّاةً بالحنين .. عابقةً بالصدق .. تنسجين رداءكِ القدسيّ من وهج الحروف .. وتبسمين .. فيورق الكون .. تنساب السواقي لهفانةً لعناق الجذور الممتدة عميقاً في الأرض .. ومن ثنايا التراب تنبثق الأغاني .. خضراء كالحلم الرهيف .. !!

-٧-

ملاكُ الشعر أنتِ .. أيقظَني لأحتضن الرؤى .. لأعود ذاك الطفل المشاكس الذي ينثر شغبه اللذيذ عند كل منحنىً وفوق كل رابية .. وإذ أستفيق .. أستعيد شريط الذكريات .. ألمح في دفقه السريع حنوّاً غريباً وعجيباً .. أعود نقيّاً .. كأرضٍ بكر .. غير مرتهنٍ للوقت .. غير راكنٍ للهدوء .. أستقصي ملامحكِ البهيّةَ عند كل منهل.. وفي كل حين .. أتبعثر .. أتجمّع .. أتلاشى .. أتجسد .. أتشظّى .. أتماسك .. وفي كل الحالات .. قبلها .. أثناءها .. وبعدها .. أبقى .. إنساناً .. !! ..

حوار مع الأديبة الدكتورة ريم هلال .. وإشكالية العصر وبناء الحضارة

أجراه الإعلاميّ محمد الراشد

نُشِرَ في جريدة الجماهير– حلب ، عدد ١٠٨٩٤ ، تاريخ ٢٠٠٢/١/٩

ريم هلال ، من مواليد الشاطئ المتوسطي ، الذي كان ولا يزال سجلاً كاملاً لمسيرة الحضارات .. خرجت إلى الحياة يصاحبها ضعف شديد في البصر ، لكن أمدها الله ببصيرة ريادة ، لذا لم يحل عدم قدرتها على رؤية الأشياء بينها وبين سلوك دروب الوعي المعرفي بمدد من الله ومن أسرتها ، إضافةً إلى إصرارها الأبدي على شقّ دروب العلم والمعرفة ، فقد درست المرحلة الابتدائية في مدرسة الكرمل ، ونالت الإعدادية والثانوية في ثانوية البعث ، ثم حصلت على إجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة اللاذقيّة عام ١٩٨٣ ، وفي عام ١٩٨٥ تم تعيينها معيدة في جامعة اللاذقيّة بحكم تفوقها العلمي ، بعد ذلك حصلت على درجة الماجستير في الآداب عام ١٩٩٢ ، وفي عام ١٩٩٨ نالت درجة الدكتوراه على أطروحتها " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " ، وهي تعمل الآن مُدرّسة للنقد الأدبي الحديث في جامعة اللاذقيّة ، وهي تمارس كتابة الشعر إذ صدرت لها مجموعة شعرية عن وزارة الثقافة لعام ١٩٩٥ بعنوان " العرّافة " ، كما صدرت لها أيضاً عن وزارة الثقافة مجموعتها الشعرية الثانية بعنوان " كل آفاقي لأغنياتكِ " ، أما مجموعتها الأخيرة فقد صدرت عن دار المرساة باللاذقيّة بعنوان " اسمي والأرض " ، والجدير ذكره أن أطروحتها لدرجة الدكتوراه صدرت عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٩٩ ، ولها تحت الطبع إنجاز جديد بعنوان " البصر والبصيرة " الذي سيصدر عن دار الآداب ببيروت .

تلكم هي نبذة سريعة عن إحدى أديبات سورية العربية فإلى حوار مفتوح معها :

– دكتورة ريم أنت أستاذة في جامعة اللاذقيّة ، تلقين المحاضرات على طلبة كلية الآداب ، فهل تعتقدين أنك تؤدين رسالة معرفية أم واجباً وطنياً ؟

حين كنتُ أؤمن بالرؤية الشمولية في مجالَي النقد والأدب ، أي بضرورة استقطاب ما أمكن من المناهج النقدية لدى نقد عمل أدبي ما ، واستقطاب ما أمكن من جوانب

الحياة لدى إبداع الأديب هذا العمل ، لا يفترض أن يخرج هدفي من إلقاء محاضراتي الجامعية عن هذا الاتجاه ليشمل كل المجالات التي ذكرتم المعرفية والوطنية والقومية . هذا إذا ما أمكن أن نضيف مجالات إيجابية أخرى تغني مسؤوليتي وآفاق طلابي ، ولاسيما أنني أديبة أرى في المنبر الجامعي منفذاً إضافياً أستطيع من خلاله أن أقول كل ما أريد أن أقوله ، ولاسيما أنني أرى في المدرس سواء أكان جامعياً أم غير جامعي المربّي الذي يأبى أن يخرج من يتولاه من تحت ظله إلا وفق الصورة الأكمل .

– حينما قرأتُ مجموعتكِ الشعرية " اسمي والأرض " كتبتُ عنها لمحات سريعة كما تعلمين ، لكن ما كان يطاردني سؤال مستمر عبر كل صفحة قرأتُها : ما الذي تشعرين به إزاء الأرض ؟ هل تستوقفكِ باعتبارها خصباً ليانع الثمار والخضار ؟ أم باعتبارها التشكيل الكلي للجسد الإنساني ؟ أم باعتبارها رحماً يتوالد ثم يعاود كل ما ولده من جديد ؟

لاشك أن الأرض تحمل كل هذه المعاني الثرية ، لكن ليس واحداً منها ينخرط ضمن السياق الخاص برؤيتي هنا . لقد رأيتُ في حلمي قبل أن أصبح شاعرة ، أنني أكتب قصيدة بعنوان " اسمي والمدينة " ، وبعدما أنجزتُ مجموعتي الشعرية الثالثة ، هذه ، تذكرتُ ما حلمتُ به ، فارتأيتُ أن أمنحها العنوان ذاته ، معبّرةً عن رغبتي في دمج الحلم والواقع اللذين يمكن أن يشكلا أحياناً كياناً واحداً ، لكن حين وجدتُ أن رؤيتي لا تقتصر على بقعة معينة كالمدينة ، ولا على جماعة بشرية معينة ، اتجهتُ تلقائياً إلى توسيع هذا العنوان ليصبح " اسمي والأرض " ، وليضعني أنا الفرد في حالة من التلاحم والتوحد مع تلك البقعة الشاسعة الشاملة " الأرض " التي لا تبدو لي سوى ذلك البيت الكبير الذي يضم عائلتي البشرية .

– أنتِ تدرّسين اليوم النقد العربي الحديث ، فإلى أي حد تستطيعين فيه اعتبار هذا الركام من النتاج الشعري والنثري أدباً قادراً على المساهمة في بناء الإنسان والمجتمع، بالمقارنة مع آداب الأمم الأوربية في عصر النهضة ؟

إننا لا نشك في إسهام أدبائنا الرواد الذين توزعوا عبر أقطار الوطن العربي والأجناس الأدبية ، في إسناد هذه المهمة الجليلة إلى نفوسهم ، مهمة إعادة النظر

في الواقع ، إن لم يكن من خلال تقديم البديل ، فمن خلال وضع إشارات الاستفهام على ما اختلف من جوانبها السلبية ، هادفين من خلال هذا الأمر الثاني ربما إلى حث المتلقين على التبصر بما لم يكونوا قد تبصروا به فيما سبق ، أو على إشعارهم بأن هنالك من يشاركهم ما يعيشونه ، لكن لا ينبغي التغافل بالمقابل عن الاتجاه المناقض الذي اتخذه جيل الأدباء التالي ، ولاسيما الشعراء منهم ، هؤلاء الذين نشهدهم اليوم وهم ينكفئون في كتاباتهم على نفوسهم ، على عواطفهم وأحلامهم التي لا تمتد إلى ما هو أبعد من الدائرة الفردية الضيقة ، موحين إلى المتلقين الذين لا يزالون يحتاجون إلى من يقاسمهم قضاياهم بأنهم مركز العالم ، وبأن جماله وقبحه يتوقفان على أحوال أمزجتهم ، الأمر الذي أدى شيئاً فشيئاً إلى انزلاق هؤلاء الشعراء في مغاور اللغة الغامضة التي لا تخص سواهم ، وقطع الصلة المقدسة التي كان ينبغي أن يحرصوا عليها مع قرائهم ، وألا يستغنوا عنها بهذا اليسر ، لأنهم هم الآخرون سيبدو لهم أنهم بحاجة إلى أولئك القراء الذين يشكلون ينبوعاً رئيسياً لمدادهم . ومع ذلك إننا لا نقصد من خلال ما ذكرنا أنه ينبغي للأديب إهمال ذاته ، بل إن التعبير عنها حق مشروع له ، ولاسيما في منبر حر كالأدب ، لكن ما نقصده هو أن يحقق من خلال أدبه قدراً من التوازن ما بين اهتمامه بهذا الجانب الذاتي والجانب الجمعي ، لكي ينتهي معنا وننتهي معه إلى أنه أديب الحياة .

– أنا شخصياً لا أعير التفاتاً إلى أي نتاج أدبي لا يحمل رؤية فكرية ، وبالتالي أرى أن هنالك تلازماً بين الفكر والأدب بما في ذلك الأعمال الشعرية والمسرحية والقصصية والروائية . فهل أنتِ معي في ذلك ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب ، فكيف تقيّمين المشهد الثقافي سورياً وعربياً ؟

لقد انتهيتُ من خلال إجابتي السابقة إلى أن الأدب يفترض أن يشكل صوتاً للحياة بكل ما تنطوي عليه من صور ذاتية وموضوعية انفعالية وفكرية ، إذ إن الفكر يشكل جزءاً لا يتجزأ من المضمون الأدبي ، لكن ليس بمفرده ، إنما بالتجاور مع سواه ، ولاسيما أن الأدب يبقى – كما سبقت الإشارة – ذلك المنبر الحر الذي يحقّ للأديب من خلاله أن يقول ما يشاء . أما بشأن تقييمي للمشهد الأدبي ضمن هذا المجال الفكري سورياً وعربياً ، فإن ما ألاحظه هو هذا القدر من الاتكالية لدى أدبائنا

على من سبقوهم عبر العصور ، إذ كثيراً ما نسمعهم يرددون الأقوال التي انتهى إليها فلان وفلان من الأدباء والفلاسفة والمفكرين العظماء بكل دقة وحرفية ، الأمر الذي يحملني دائماً على التساؤل : وماذا تقولون أنتم أيها المعاصرون ؟ أم أنكم تعتقدون أن العظمة والفكر قد انتهيا عند أولئك ؟ ألا يفترض أن تشكلوا صورة متطورة لهم نظراً لاتساع تجاربكم وآفاقكم عن تجاربهم وآفاقهم ؟

– انطلاقاً من حتمية التواصل بين الأدب والسياسة أتساءل : ما هو مستقبل الثلاثمئة مليون عربي في العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين على ضوء المعطيات الراهنة في أرض الضاد والعالم ؟

لست بمتنبئة كي أستطيع التبصر بمستقبل العرب سياسياً ، لكن بناء على كوني أديبة قد أستطيع التفاؤل بدور الكلمة في تحفيز الأوضاع العربية السياسية وغير السياسية نحو الأفضل ، فالأفضل ، نظراً لما تحمل في حال صدقها وحرارتها من طاقات ، قد لا تقل عن طاقات ما تنوع من الأسلحة . كما يمكن أن أضيف بهذا الصدد أن المستقبل العربي السياسي قد يتحرك إيجاباً وفقاً لحركية الظروف التاريخية التي تبيَّن لنا عبر العصور أنها لا ترسو على حالة ثابتة . فكم من دول في الماضي طغت ووسعت إمبراطورياتها ، واليوم ضعفت وتقلصت إلى حد لم يجعلها تتخذ سوى بقعة هزيلة في خارطة العالم .

– التعامل مع منجزات المدينة والحضارة شيء ، والتكوين الحضاري والمدني شيء آخر . فبحسب رؤيتكِ كيف يصار إلى توليد الإنسان والمجتمع العربي الحضاري القادر على المساهمة في الحضارة الإنسانية مستقبلاً ؟

إنني فيما يتعلق بأي مشكلة أو قضية ، أجد أن من الممكن حلها من خلال تجزئتها ، وعدم إجهاد النفس في الإجهاز عليها دفعة واحدة ، ما دام هذا قد يؤدي إلى تعقيدها والشعور بضخامتها وفداحة أمرها . ولمّا شكّل تخلف الأمة العربية أكبر مشكلة تعترضنا ، نظراً لكونها النقطة المركزية التي منها تتفرع معاناتنا على مختلف الصعد ، فإنني أرتئي بغية الخلاص منها والوصول إلى الحل الحضاري ، بدء الإنسان الفرد بنفسه وسلوكه ، والسعي نحو تطويرهما وفق إملاء القناعة والضمير الشخصيين ، دون الالتفات إلى ما يسود الساحة من ذلك التيار الكثيف الجارف ،

لأن هذا البدء لابد من أن يؤدي يوماً إلى اقتداء البعض مهما كان عددهم قليلاً .. ولأن كلاً من هؤلاء – من ثم – لابد من أن يشكل بدوره قدوة لبعض آخر وهكذا .. إلى أن تتسع الحلقة شيئاً فشيئاً ، وتتحول – هي الأخرى – إلى تيار ثانٍ يمكنه التقابل مع ذلك الذي يناقضه . وفي حال عدم حدوث هذا التأثير الإيجابي المتدرج من قبل الإنسان الفرد ، فربما يكفيه بذلك أن يكون قد أضاء شمعة واحدة بدلاً من أن يلعن الظلام .

– هنالك قواسم مشتركة بين ريم هلال وجبران خليل جبران ، وكل منكما عبّر عن هذه القواسم المختلفة برؤية إنسانية وكونية بمفردات عصره وأدواتها . ولكن السؤال : إلى أي حد استطاع جبران تشخيص الحضور الإنساني على هذا الكوكب من خلال مؤلفاته ، وخاصة كتابه " النبي " ؟

نعم إن جبران شكل من خلال رؤيته الشاملة وأعماله التي أنجزها عبر حياته غير المديدة أديب العالم ، لكن كما يتصوره هو أو يحلم به ، إذ حاول دائماً أن ينبذ منه كل ما هو قبيح وشرير ومظلم ، وأن يحلق بخياله نحو كل ما يمت بصلة إلى الشفافية والجمال والجوهر الكوني المضيء . وإذا ما عنى هذا رومانتيكيته ومثاليته والبعد عن الاتجاه الواقعي الموضوعي الذي التزم به الأدباء اللاحقون ، فإنه لا يعني بالمقابل أن أحداً منا يمكن أن يستهجن العيش ضمن هذا الكيان النوراني الذي ابتكره أديبنا ، وبدا لنا وقد تآخى فيه الإنسان والإنسان ، الإنسان والطبيعة ، الإنسان والوجود المطلق .

– كل منا يعيش أحلام اليقظة على شاكلته ، فما هي أحلامكِ العذرية والفكرية اليوم؟ وبالتالي هل هناك تجانس بين أحلامكِ في النوم واليقظة أم لا ؟

إن ما يسكن إدراكي ومشاعري دائماً ، هو هذه الأرض التي تسودها العلاقات البشرية غير القائمة على قدر من التوازن ضمن ما اختلف من الصعد ، وكذلك الزحف الجارف غير المتعقل باتجاه تخريب الطبيعة بنقائها وجمالها . فهل يمكن لأحلام يقظتي إذاً أن تتجلى فيما هو أضيق من مشاركتي الذين يماثلونني في التخفيف من هذا الغليان ؟ وإنقاذ هذا الكوكب السحري الذي لابد إذا ما استمر على حاله المذكورة من أن ينفجر يوماً بكل من فيه و ما فيه ؟ أما فيما يتعلق بالتجانس

ما بين أحلام النوم وأحلام اليقظة ، فلا يبدو أنه متحقق بنسبة واضحة لدي ، ولا لدى أي إنسان ، لأنه إذا ما أطلق في أحلام النوم العنان للاشعور في قيادة سفينتها، فإن الشعور هو الذي يطلق سفينة أحلام اليقظة ويقودها .

– يعيش المجتمع الإنساني اليوم صراعاً حضارياً أو ثقافياً أو دينياً أو غير ذلك ، فهل لديكِ رؤية من شأنها المساهمة في تخفيف حدة هذا التوتر البشري ؟ وتحويل قاذفات الصواريخ وقنابل الخمس عشرة إلى محاور ساخنة إن لم تكن دافئة كما أحلم وكما يحلم الحالمون من حملة لواء الإنسانية والإنسان ؟

ذكرتُ في إجابتي السابقة أن ما يشغلني بكليتي هو هذا النوع السلبي من العلاقات في المجتمع الإنساني ، وأن أحلام يقظتي تتجه بكليتها نحو مساهمتي المتواضعة في إنقاذ هذا الكوكب ، الذي يكاد بما يسوده تنتهي حياته ، وبماذا يمكن أن تتحدد رؤى الذين يشاركونني هذا الاتجاه المنافي ، سوى في الانطلاق من العقل والقلب الرحيبين نحو جعل أرضنا تضج بأفراح الطفولة ، بدلاً من معارض القنابل والقاذفات ، وفي إعادة تشجيرها بالخضرة والحمام بدلاً من حمرة النيران والأحقاد . هذه هي رؤيتي ، وتلك هي أحلامي فهل لكلماتي البسيطة التي لا أمتلك سواها أن تشكل مفتاحاً صغيراً لباب واحد من أبواب هذه الجنة الأرضية المرجوة ؟

قصيدة " وَدِّعْ مهاة "

الشاعر عبد اللطيف صالح

نُشِرَت في جريدة الوحدة – اللاذقية ، عدد ٥١٥٧ ، تاريخ ٢/١٩/ ٢٠٠٢

ودع مهاة .. كانت رؤى

كانت صلاة

جفنان كانا من حنان الزيزفون

كانا غواية عابد كانا هداية

لا تنحنِ وارشف ندى الورد الحنون

من نغمة الفن النبيل

فهنا .. تراتيل البقاء

تدفّقَتْ يوماً بأنفاس الصباح

يا ريم أنت شذا الصباح

سمحاً كأشهى الأمنيات

يا ريم هل عرف الضياء

أبهى من الحرف الرهيف

يكسو أناملك التي تلد الجداول والخمائل ؟

يا ريم يا بنت الرهافة

يا بوح مئذنة تسافر نجمةً في كل آن

ترقى ويحضنها الزمان

شمساً تظل تضيء تهدي التائهين

في ليلنا الضليل ما بقي الزمان

وسفينة تسع السماء

أبُنيَّتي أنت الفضاء

رحباً كلثغة طفلة كحنان شاعر

أنت الصبا لا ينحني أبداً لأفعى الليل والشوك الملفع بالهوان

هل تنحني بنت النجوم تَتَوَّجَت بالكبرياء ؟

....

يا ريم في كفيكِ أنهار وغابة بيلسان

وكروم أعناب ، وأسياف ، وسرب يمام

لا تنحني " ريم الهلال "

من صخرة شماء أنتِ ، ومن ذرا ، من قاسيون

بنت الهلال تسير شامخة على درب الهلال

ستظلُّ تشدو للنهار

ويضمها أشعار غار

ستظلُّ شامخةً كما تهوى سيوف القادسية

ستظلُّ برقاً يغسل الرمل الحزين
وتهلُّ ثائرةً كما يهوى النخيل
وأراكِ ماردةً تقول :
" لن يركع الجرح الخضيل "

وقفة مع تجربة د. ريم هلال وكتابها " البصر والبصيرة "

نضال محمد حيدر

نُشِرَت في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٥٣٧٦ ، تاريخ ٢٠٠٢/١١/١٤

في التاسع عشر من نيسان عام ١٩٦٠ ولدت ريم هلال ، وفي أعوامها الأولى أجمعت آراء الأطباء على وجود خلل في البقعة الصفراء الكائنة في أقصى الشبكية ، والمسؤولة عن تلقّي العين للضوء الخارجي . ومنذ ذلك الوقت بدأت رحلة المعاناة .. والتفوق .. من أولى المحطات : مدرسة الكرمل باللاذقية ، بدأت ريم هلال مشوارها الحافل بالمتاعب والأسى في عام ١٩٦٦ ، ومنها إلى ثانوية البعث حيث المرحلتان الإعدادية والثانوية ، ومن ثم الدخول إلى رحاب جامعة اللاذقيّة ، وتحديداً كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم اللغة العربية ، بتفوق واضح . ونتيجة لمجمل الرياح العاتية التي هبت على عالمها من كل الجهات ، والتي لم تقتلعها من جذورها ، كان لابد لريم هلال أن تكون شاعرة .. لِمَ لا ؟ وهي التي بدأت مشوارها في الحياة منذ نعومة أظفارها مع الغناء ، إذ تميزت في أكثر من محطة وعلى أكثر من صعيد ، برغم الصعوبات التي كانت تستطيل أمامها جبالاً منيعة أزالتها من طريقها بالجدّ والمثابرة والإيمان الذي لا يعرف حدوداً . من الغناء ، تنتقل صاحبة الصوت الرخيم العذب إلى التفوق في الدراسة الأكاديمية والشعر على حد سواء ، وربما كان للزخم الهائل الذي لا يمكن للمرء تصوره ، أثر كبير ، بدءاً بالآلام المتتابعة التي واكبتها منذ ولادتها ، وحتى اليوم شلالات وجع من أَلفِ الحروف إلى ياء التفوق ، وإثبات قدرة الإنسان على استثمار إمكاناته المخبأة تحت غبار الإهمال المقصود وغير المقصود . لم تكن الجراح المعنوية التي ألحقتها الأيام بريم هلال لتضعف من

عزيمتها وإرادتها ، وهي التي تمرست الصعاب واستعذبت اجتيازها ، يواكبها في ذلك أُم متفانية لا يعرف اليأس سبيلاً إليها ، ووالد مثقف معطاء كبير في كل شيء ، وإخوة وأخوات .. رفاق ورفيقات ، ساهموا قدر المستطاع في نزع الأشواك باسطين عوضاً عنها أكاليل الورود . أنهت ريم هلال دراستها في قسم اللغة العربية في عام ١٩٨٢- ١٩٨٣ بتقدير امتياز ومعدل ٨١,٩١ % . ومن ثم وبحماسة لم يقلل من جذوتها سيل الصعاب الشديدة ، تدخل معتركاً قاسياً لتنال بإصرارها الشديد في الخامس من أيار عام ١٩٩٨ درجة الدكتوراه ، ولتقول في كلمتها المرتجلة : " شكراً لكِ كلية الآداب أساتذة وزملاء وعاملين .. شكراً لكِ أسرتي المناضلة العظيمة .. شكراً لكل من رافقني خطوة للوصول إلى هذه اللحظات.. وشكراً للحضور جميعاً.. ".

د. ريم هلال ، الأستاذة الجامعية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، هي اليوم بمنزلة الشجرة الوارفة التي يستفيء ظلالها طلاب الأدب الحق ، وتجربة حية معاصرة تثبت قدرة الإنسان على اجتياز المصاعب وتحقيق الذات .

في رصيد د. ريم هلال ثلاث مجموعات شعرية : " العرّافة / ١٩٩٥ " التي تهديها قائلة : " إلى رفيف .. قارئتي الأولى .. إلى رفيف شقيقةً وصديقة " . وإذ تبين ريم هلال شفافية الإهداء فإنها تقول : " فكثفتُ بهذه الكلمات القليلة العلاقة المتميزة التي تقوم بيننا .. فأنا أشكل بالنسبة إلى رفيف منذ طفولتها وحتى وقتنا الحاضر القدوة التي تستضيء بها ، ما دامت تماثلني في وضعي الصحي ، وتجد في تجربتي الحياتية الناجحة ما يلوح لها بضرورة التقدم وعدم الحذر من العراقيل التي تمكنتُ من اجتيازها " . وفي عام ١٩٩٧ تصدر مجموعتها الشعرية الثانية بعنوان " كل آفاقي لأغنياتكِ " ، تليها مجموعتها الشعرية الثالثة " اسمي والأرض " في عام ١٩٩٩بعد عام من نيلها درجة الدكتوراه . وفي عام ٢٠٠٢ تصدر ريم هلال كتابها موضوع البحث " البصر والبصيرة " ، ليكون بمنزلة السيرة الذاتية لهذه المناضلة التي وصلت إلى ما هي عليها بدأبها وإيمانها .

شكراً لكِ ريم هلال .. فقد أذرفتِني الدموع طويلاً طويلاً ، لا حزناً .. بل فرحاً نابعاً من الأعماق بتجاوزكِ المعاناة والإهمال .. وتحويلكِ الألم إلى أمل وجد طريقه للتحقق ، وإذ باتت التجربة المريرة بقضّها وقضيضها مجرد أطياف ذكريات تستوطن

الماضي ، فإنها على الجانب الآخر من المشهد تعكس جسوراً لا حدود لها تتغلغل ضمن كل خلية من خلايا النفس .

أخيراً أقول للشاعرة هلال : إن تجربتكِ الغنية التي سكبتِها في كتابكِ القيّم " البصر والبصيرة " .. أثبتت كم يحتاج الإنسان إلى البصيرة النافذة .. ولا عجب في ذلك ، إذ ألستِ من كتب في الصفحة الأخيرة من الكتاب ذلك المقطع من الحوارية الرائعة الشفيفة :

" – لو خُيِّرتِ ابنتي
ما بين بصر هذه وبصيرتكِ أنتِ
فأيهما تُؤْثرين ؟
– البصيرة يا والدي
البصيرة "

رسالة الأديبة ليلى مقدسي إلى الدكتورة ريم هلال
تعقيباً منها على مؤلَّف " البصر والبصيرة " – ٢٠٠٢

الدكتورة الغالية ريم ..
تحيّة لروحكِ الطيّبة ..
وتحيّة لأهلكِ الأعزّاء ..
أرسلُ لكِ دراستي الانطباعيّة عن كتابكِ " البصر والبصيرة "
والألم معلِّمٌ لي وليس قاتلاً ..
طبعاً حزنتُ وغسلتُ الأوراق بدموعي ، وشاركتُكِ لحظةً لحظة بإحساسي مع تجربتكِ المريرة .. ولكن منكِ أستمدُّ القوة والتفاؤل ..
أرجو أن تعجبكِ الدراسة . وسوف أرسل نسخة إلى " ديانا جبّور " – جريدة الثورة
أرجو أن تهتفي لها حتى لا تؤخّر نشرها ، لأن الصُّحف مهمِلة جداً للبعض ، ومنهم أنا .

آسفة ليس لديّ حاسوب ، هي بخطّ يدي ، وبإمكانكِ نشرها عن طريق الإنترنيت إن كان لديكِ ، لتقرأ كلُّ الأرض تجربتكِ الرائعة والمدهشة ..

أضمّكِ بحرارة إلى صدري يا قدّيسة الصمود .. و جاندارك العصر ..

تحيّة ودّ عميقة إلى أهلكِ ..

مع محبَّتي الدائمة

وشكري على إتعابكِ معي ..

وكذلك السيّد الوالد ..

ريم هلال في كتابها " البصر والبصيرة "

الحياة ليست ثابتة والكتابة لحظتها خالدة

الأديبة ليلى مقدسي

نُشِرَتْ في جريدة الكفاح العربي – بيروت ، عدد ٣٣٥٧ ، تاريخ ٢٠٠٢/١٢/١٤

كتاب " البصر والبصيرة " ، الصادر عن دار الآداب – بيروت ، للدكتورة الشاعرة ريم هلال ، سيرة ذاتية مشوقة كتبتها بأسلوب جذاب ، ولغة شفيفة تنبع من صدق ذاتي وهي تسكب مشاعرها على الورق ، وما كتبته ليس سرداً لتجربتها المريرة فقط ، إنما لتتحدث بقلمها الإنساني عن كل المعوقين ، هذا الإحساس النبيل بالآخرين نلمسه بين السطور ، ويمس أعماق كل قارئ .

صورة الغلاف وجه عنقاء غاصت في رماد ماضيها ثم انتفضت ، أزاحت الرماد الضبابي مخترقة مساحة الأسود والأبيض في دروب تجربتها ، وتزرع شجرة العالم في تربة معاناتها ، متخطيةً الأشواك المتراكمة ، لتقتطف ثمرات المعرفة والإبداع معاً. وللدكتورة ريم هلال ثلاث مجموعات شعرية مطبوعة . يقول جيمس جويس : " إن مشاكل القلب البشري في صراعه مع ذاته ، هي وحدها التي تلهمنا الإتقان في الكتابة ، لأنها التي تستحق أن يُكتَب عنها وتستحق ما يُبذَل في سبيلها من عرق وعناء " . د. ريم هلال تشعل حروفها شموعاً ، تنزف نوراً وناراً على جسد الصفحات، وتقتحم بوابة الظلام بمشعل إرادتها وبصيرتها النفّاذة . لقد أغمضت

القدرة الإلهية نور عينيها على ما يُرى بالواقع المؤلم ، ولكن القدرة ذاتها وهبتها بصيرة الرؤيا المنبثقة من مرايا ذاكرة لماعة ، وقوة مشعة من تلافيف ذاتها الطموحة الصابرة المتحدية ، وبرغم كل الانهيارات كان مجدافها التصميم وهي تقود مركبها بشراع الإرادة الذي يخترق كل التيارات المعاكسة ، وتوقف كل الرياح الهوجاء التي تعترض سيرتها الطويلة والمريرة في الحياة ، تتساقط وريقات الحروف صفراء ، سوداء ، حمراء ، بيضاء ، ملونة بانفعالات نفسية متناقضة بين الحزن والفرح والقهر والصبر والمثابرة والنجاح ، وتلتمع الروح وهاجة لتؤجج الظلام قناديل نور من جراحها الإنسانية والجسدية ، فالحياة ليست ثابتة والكتابة لحظتها الخالدة . تستحق د. ريم هلال الشكر على جرأتها ، وهي تفتح نوافذ الذات مشرعة كل الخفايا ، وقلمها كعصفور شريد يغرد معها بحرية وعفوية في صدقها مع الذات ومع الآخرين . لقد قرأتُ هذا النوع من الأدب ، وما يسمى " السيرة الذاتية " قليلاً إلى حد ما ، إنما في الغرب له مكانته في المدارس الأدبية . وعذراً من ريم ، لأننا اعتدنا أن نقرأ هذا الجنس الأدبي بعد موت الأبطال ، وهنا تكمن جرأة وقوة د. ريم لأنها قدمت تجربتها وهي في عز صباها ، وتحدثت عن السلبي والإيجابي فيها ، موظفة أدق المشاعر في الوصف السردي المنعكس من ذاكرة تستحضر جوهر الوجود ، وامتدادها الماضي والحاضر ، ومنهما انبثقت إشراقة المستقبل متوجهة بالطموح . تتوزع السيرة الذاتية ضمن إيقاعات متناغمة ، متناسقة الترتيب بدقة مستمدة من الوجدان الإنساني. وتتفرع السيرة على وجدان الحياة ضمن محاور الطفولة ومحور الدراسة ، ومحور الجامعة والتخرج ، إلى أن صعدت قمة الطموح غير عابئة بصخور سيزيف التي تدحرجها ثم تنهض ، ثم تتعثر ، ثم تنهض قوية وتقف متأملة هذا العالم تراه صغيراً ، وتغطيه بظلال ابتسامتها المحيرة والحائرة بين السخرية والتعاسة والفرح كابتسامة " موناليزا " ، وتضيء نظراتها العميقة كل الصعاب بتحدٍّ وثبات ، وحين كانت تتعب وينهكها السعي ، تتكئ على صدر أمها الحنون ، وتتمسك بسواعد والدها البطل الذي بذل المستحيل لأجل سعادتها . هذا التفاني من الوالدين هو الذي صنع تجربة ريم التي كانت تتعثر على درب الجلجلة . طفولة ريم طفولة جميلة ، تفتحت منها للحياة مع ربيع نيسان ، وربما أرادت أن تزرع هذا الربيع بورود

أحلامها، وعطور طموحها ، وبداية خطوات ريم على عشب الخضرة وأغصان الأمل تقول : " نظرت أمي إلى أبي بعينين دامعتين : لم يأتِنا عمر ، لم أحقق لكَ كنية أبي عمر " .

تهتز الطفولة البريئة بخطوط العتمة ، حين تكتشف العمّة عاهة ريم : " كم تمنت أمي وقتذاك لو مرت زيارتها بسلام ، دون أن تطرأ عليها الصدمة العنيفة" . وتبدأ المعاناة ، ووالدها يتنقل من بلد إلى آخر حائراً مع آراء الأطباء ، وحين يخطف كل أمل ، يتشبث به هذا الأب المتفاني ، يذوي مع حزنه : " وضع رأسه إلى جانبي يستغرق في نشيج مرير " . وتصحو ريم في هذه المرحلة المعتمة والصعبة ، هذه التي شكلت لها رعباً وتوجساً ، مرحلة الدراسة الابتدائية ودخولها العالم المجهول : " حين اصطحبتني أمي في اليوم الأول ، استعدت لهفتي الأولى ، وغاب عني ذلك القلق الطارئ الذي انتابني ، وكنت أظن أنني سائرة إلى النعيم ، إلى اللحظات التي سيتحقق فيها ذلك الحلم الذي طالما راودني " . ومنذ الساعات الأولى تتلقى ريم الصدمات ، خاصة حين سحبت المعلمة أختها الصغيرة التي سُجلت لترافقها وتساعدها إلى خارج الصف : " ربما لا أمتلك العبارة التي أستطيع من خلالها التعبير ، لكن يكفي القول إنني أحسست بأن روحي انسحبت معها ، وبقيتُ جسداً واحداً لا يحييه سوى الألم والاغتراب " .

وتصف ريم الإهمال والأذى اللذين ألحقا بها من زملاء الدراسة . هذه المرحلة كانت مؤلمة وتهز الوجدان بسهم القهر وهو يقرأ التفاصيل ، لكن والدتها القديسة الصموتة الصابرة وقفت معها ، تبتكر الأساليب وتخترع الطرق لتدريسها ، وتبث في نفس الطفلة المعذبة القوة والتشجيع . وتُحرَم ريم حميمية الصداقة ومحبتها ومعناها ، وتعيش وحدة قاتلة ، وربما هذه الوحدة فجرت طاقاتها الإبداعية والعلمية ، لأن : الفنان وحيد ووحدته منبع قوته . أما المرحلة الإعدادية والثانوية فكانت أخف وطأة ، لأن ريم تعلمت أن تكون قوية بمفردها ، وتثبت طاقاتها بتفوقها ، متجاوزةً بذلك خيانة الصديقات ، واضطرارها إلى ملازمة الصف وحيدةً في أثناء الاستراحة : " معافاةً خرجتُ من أسركن زبانيةَ الأرض ، معافاةً فككتُ قيودي لأهبكن إلى الأبد قيود ذاكرتي وأوراقي ، مثل شجرة خضراء لم يكسرها شتاؤها " . وخلال هذه الفترة

شاركتْ في حفلات الشبيبة ، واكتُشفتْ موهبة ريم الغنائية وصوتها الجميل . أليس البلبل تُفقَأ عيونه ليكون صوته جميلاً أكثر ؟ : " شهدتُ من الظروف ما هو أكثر قسوة وسوءاً ، حتى قطعتُ على نفسي بأن أخرج من عالم الغناء والإذاعة " .

وتدخل ريم مرحلة الدرب الطويل ، الجامعة : " تسرع بي خطاي لألتصق بذلك العالم الذي أرضى طموحي ، وإن بدا أمامي كالمحيط بالنسبة لمن اعتاد السباحة في جدول صغير " . وتتبثق قوة ريم الخارقة وهي تخطط لحفظ تفرعات الطريق بين بيتها والكلية ، حين تخلى عنها الجميع من الصديقات ، واجتازت بمفردها المسافة الطويلة معرضة حياتها للخطر : " من أجل الانتصار على اللائي اعتقدن بتمكنهن من نقطة ضعفي ، من أجل إظهار أن تفوقي وقوة إرادتي لا يتوقفان على المجال الدراسي فحسب ، بل يمتدان إلى اقتحام الموت إذا ما افتقدتُ في الحياة كرامتي " . منفذة وصية والدها النبيل في مواقفه ومبادئه حين علمها : " ضرورة رفضنا الذل من أي أحد " .

واجتازت ريم السنين الجامعية بتفوق ، على الدفعات جميعها التي مرت على قسم اللغة العربية في جامعة اللاذقيّة ، منذ نشأتها حتى تخرجها عام ١٩٨٣ . ولكن تتلقى أعنف صدمة حين تُرفَض للتدريس في الجامعة برغم تفوقها . صرخة جريح يتلوى أمام وجدان الإنسانية : " ما ذنبي في صنع ما لم يرضهم مني ؟ " وحين تسمع نحيب أختها رفيف التي هي في مثل وضعها الصحي : " واخجلي منكِ رفيف، ومن خطاك على طريقي ، واخجلي منكم أيها المعوقون جميعاً ، والهفتي إليكم عظماء العالم ! لماذا رحلتم ؟ وتركتموني بين هاتين الضعيفتين ؟ حنان أمي وطفولة رفيف .. وصمود أبي ودموعه ؟ " . ويبدأ الأب تنقله من مكتب إلى مكتب داخل الوزارة وخارجها : " قد أستطيع أن أقول لابنتي ما ينبغي قوله ، ولكنني لا أدرك ماذا ينبغي أن أقول للمكفوفين " .

وتتضامن أسرة جامعة اللاذقيّة مع قضية ريم ، وتبعث رسالة مفتوحة إلى وزير التعليم العالي صرخة إنسانية محبة لريم ، وينتشر الخبر في القطر ، ويقدم برنامج تلفزيوني مقابلة مع ريم ، وتشرح تفاصيل تجربتها المريرة ، ثم تحدث المعجزة حين

يقف العماد مصطفى طلاس موقفه الإنساني النبيل معها ، ويصدر استثناء من رئيس الجمهورية بتعيين ريم معيدة في جامعة اللاذقيّة .

وتختتم ريم سيرتها الذاتية ببطاقات وردية لوالديها ، لأسرتها ، لكل الأصدقاء ، ولكل من وقف معها ، ولم تنسَ أيضاً كل الذين أساؤوا إليها وأصابعها النقية تباركهم بالغفران .

هكذا تخرج ريم من صحارى الحياة المعتمة ، وتترك لنا صفحات مبدعة من آلامها ومن صمودها ، وحولت بذلك عاهتها إلى طاقة مبدعة ، ومقياس الفن العظيم مدى تغلغله في النفس البشرية لا مدى قدرته على التقاط الظواهر الخارجية . وهكذا ابتكرت لحظة الماضي لتخلق لحظة الحاضر ، وهي حركة الزمن التي لا تقف ، فأثارت فينا الرغبة المعرفية من شمعتها التي انبثقت وهاجة من صومعة الظلام ، وأصبحت غيمة أرجوانية فوق بحر المعرفة والإبداع ، يرافقها الفكر المتدفق وهي تستقصي القدرات الخلاقة باعتبارها قوة دامغة في تطلعها الإنساني إلى كل المعوقين، وتحول مأساتها الإنسانية إلى مأساة اجتماعية في الصراع مع العاهة والمجتمع ، وهي تتوس في كتابتها بين لحنين متعارضين في الحياة ، الظلام والنور، ومن إيقاعها تخطط خلودها ، وتجسد الحقائق الأصلية في الكون ، الحب الأبوي ، حنان الأم ، الألم ، المعلم ، الطموح والإرادة ، من منابع النور الروحي وجوهرها الإنساني الذي جعلها تنظر إلى الحياة بالبصيرة ... التي منحتها معنىً وخلوداً .

مساحة الرؤيا في " اسمي والأرض " للشاعرة ريم هلال ..!

أحمد علي حشاش

نُشِرَتْ في جريدة تشرين – سورية ، عدد ٨٥٣٣ ، تاريخ ٢٠٠٣/١/٢٦

القيثارة التي تطير منها الحمائم ، ذات المناقير الذهبية إلى السماء المشرقة ، لا تزال ممتطية موج البحر الهادئ المتشاطئ مع اسمها " الغزالي " و " أرضها " المكتنزة بسنابل العطاء ، شكلت بسلّمها الموسيقي غلاف المجموعة الثالثة للشاعرة الدكتورة ريم هلال بعد " العرّافة " عن وزارة الثقافة عام ١٩٩٥ ، و" كل آفاقي

لأغنياتكِ " عام ١٩٩٧ ، وكتاب نقدي بعنوان " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " عن اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٩٩ .

" اسمي والأرض " ، المجموعة التي بين أيدينا ، صادرة عن دار المرساة للطباعة والنشر والتوزيع عام ٢٠٠١ ، أهدتها مبدعتها إلى روح الرائع " جبران " ، لعله يقرؤها في نجمة ، محاولةً التواصل بحميمية لامتناهية معه ، عبر قصيدة واحدة مطوَّلة رسمت لوحة شعرية ساحرة عبر / ٨٠ / صفحة من القطع الصغير ، طرزتها بوشاحات الملائكة ، وعزفت لها على أوتار أنبل العواطف بسرية الأرواح الخيّرة ، التي امتلكتها بفطرتها العفوية قريباً جداً من حروف الإنسانية الملتصقة بوجدانها الذاتي . وهي إذ تبدأ بالرقم /١/ وتنتهي بالرقم /٧١/ ، تصر على المعنى الحقيقي لضرورة الرقم في حياتنا بداية ونهاية ، وتعدّه نظرية أساسية لكل شيء ، وتطبيقاً عملياً لكل شيء . ومن خلال المعطى ، تؤكد موقعها شاعرةً مثقفةً تمتلك ناصية اللغة والتصوير والموسيقا ، انطلاقاً من مهد " قومي " بحت يسرح فيه الالتزام عنواناً :

في محيطيَ الأبيض

كنتُ أصدح

شدَّت يدي عبسٌ :

إلى هنا

شدَّت يدي ذبيان :

إلى هنا

شدَّت يدي بكرٌ :

إلى هنا

شدَّت يدي تَغلِب :

إلى هنا

.....

فأنا قبائلي

هنالك بيتي

هنالك بيتي

وعلوتُ .

هذه كانت بداية اللوحة الرقمية للدخول إلى أعماق الأصل ، وتأصيل العمق من دون التنصّل منه ، كون المقصود العودة الملحة إلى تاريخ الآباء والأجداد ، وهذا ما يجعل الشاعرة مصرّة على استخدام الفعل المضارع ركيزةً أساسيةً لاستحضار الماضي في كل لوحاتها الرقمية ، عبر قصيدتها المجموعة " اسمي والأرض " :

كانت تلمٌّني في الموج

تستلٌّ من الصخر أرجوحتي

ترسم لي حلماً من كروم

ولعل ما يميز شعر الدكتورة ريم ، محاكاتها لعمق الواقع بإرهاصات متصاعدة بيانياً ، لتشكل وهي مجتمعة حروف " اسم الأرض " ، إذا ما حذفنا الياء وواو العطف من عنوان المجموعة ، لأنها حجرة أساس تم الارتكاز عليها في عملية البوح الداخلي للكائن الأنثى ، بإضافة الاهتمام المركز على وجود الأرقام واستخدامها كنقطة تنبيه في أكثر من موضع :

قرأ في دفاتر البحر :

لؤلؤة في واحد ؟

مئة لؤلؤة

لؤلؤة في مئة ؟

ألف لؤلؤة .

لؤلؤة في ألف ؟

مليون لؤلؤة .

قرأ في دفاتر القبر :

لؤلؤة في مليون ؟

أو مليار ؟

أو بليون ؟

صفر

صفر

صفر

والملاحظ أن الترميز الرقمي الذي تستخدمه الشاعرة في مجمل أرقامها ، له دلالات تاريخية تخص مجتمعنا العربي ، ربما في بعض حقبه الزمنية " بلد المليون شهيد مثلاً " ، أو أنها ارتكزت على الرقم في بعض آيات القرآن الكريم " سورة آل عمران " ، هذا بالإضافة إلى استخدامها لبعض عبارات تحمل وقعاً قدسياً : / صليت .. صلاتك .. الحجرات .. إياك .. دثريني .. يا ليتهم كانوا تراباً / ، وهو ما يقودنا إلى التوقف أمام الصورة التي ترسمها الشاعرة في ترقيماتها لمجموعتها ، والتي من خلالها تدعونا للغوص إلى أعماق بحرها الشعري الخاص بل الخاص جداً، والتعرف إلى شاطئ الروح الحسية التي تمتلكها من خلال أكاديميتها في طرح المقولات :

١ أطفأتُ مصابيح خيامهم

سقيتُهم أغنية النعاس

فككتُ أزرار طيني

٢ طفنا حوله

شربنا من شمسه

صار وجهي قمراً

قطفتُه وحلقتُ

٣ كانت السماء حينذاك

مثقلةً بالزنبق الأبيض

لماذا أرى السماء دائماً

مرآةً لفصولي ؟

الصورة تنبع من خيال محلّق امتلكته الدكتورة ريم ، فأجاز لها استخدام بناته بطوعية ، تآخت مع شفافيتها المتماهية في فضاءات الأنثى المثقفة حصراً . ولعلني أجد من الضروري الإشارة إلى البعد الفلسفي في جميع مفردات المجموعة ، التي تأتي مكملة لرسم الصورة الشعرية ، ومنها لإكمال اللوحة الواحدة المكونة للّوحات

الرقمية في " اسمي والأرض " ، وفيها استخدام موسيقا الصوت الغارق في أحضان الطبيعة الساحلية لبلادنا ، والتي تستحضر فيها ترنيمات " أوغاريت " في مواضعها كافة ، منطلقها قيثارة " الأورنينا " الساكنة أعماق بحر التاريخ والصاعدة إلينا عبر أجنحة الحمائم الذهبية ، إلى جانب صوت " الريم هلالاً " وهي تقدم لنا " اسمي والأرض " بكامل مساحات الرؤيا :

حين يورق نجم

أيقِظوا عيون السفر

لا أريد لضوء أن يشربني وحدي

حوار على ضفاف الشعر والحياة بعد إعصار البقعة الصفراء

د. ريم هلال .. بصيرة الإبداع والدائرة الكبيرة !

أجراه : نضال محمد حيدر

نُشِرَ في جريدة الأنوار – بيروت ، عدد ١٤٩٦٦ ، تاريخ ٢٠٠٣/٢/١

في أعوامها الأولى ، أجمعت آراء الأطباء على وجود خلل في البقعة الصفراء الكائنة أقصى الشبكية ، والمسؤولة عن تلقي العين للضوء الخارجي ، ومنذ ذلك الوقت أعلنت ريم هلال وقوفها بصلابة في وجه الريح العاتية التي هزتها بعنف وقسوة ، لكنها لم تستطع اقتلاعها من جذورها الممتدة عميقاً في الأرض ، بل نشرت أريجها الإبداعي في كل مكان ، وإذ بدأت بالغناء متميزة ، فقد انتقلت إلى رحاب أكبر ، رحاب الشعر الذي كتبته بتميز كان حصيلته مجموعات شعرية ثلاث . وفي اتجاه موازٍ ، حصدت ريم هلال نتيجة جهودها المضنية ، لتنال في الخامس من أيار عام ١٩٩٨درجة الدكتوراه في الآداب عن رسالتها " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " ، لتتجه بعد ذلك إلى التدريس في الجامعة ، شجرة وارفة يستفيء ظلالها طلاب الأدب الحق ، مثبتةً مقدرة الإنسان على اجتياز الصعاب وتحقيق الذات . على ضفاف الشعر والحياة التقينا الشاعرة الدكتورة ريم هلال وكان الحوار التالي :

– من جديدكِ " البصر والبصيرة " نبدأ الحوار ، إذ يتمازج العام بالخاص في سيرة ذاتية روائية .. مع طغيان الخاص على العام بشكل لافت . هل لنا أن نتقصى معكِ دوافع إصدار الكتاب من خلال مكنوناته ؟!!

يشكل كتابي الجديد " البصر والبصيرة " حقاً سيرتي الذاتية ، وبصورة محددة قصتي مع كفّ البصر منذ قدومي إلى هذه الحياة ، إلى حين حصولي على درجة الدكتوراه ، وما تخلل هاتين اللحظتين الحاسمتين والمتقابلتين ، من تلك الطريق المديدة التي كان عليّ أن أتخطاها بكل ما انطوت عليه من ظلمات وأشواك . وإنني حين عزمت على تأليف عملي المذكور ونشره ، لم أكن أهدف إلى بثه بين المعوقين فحسب ، إنما بين أكبر عدد من البشر ، ما دامت لهم معاناتهم هم الآخرون ، وما داموا قد يجدون في تجربتي ، وإن بدت ذاتية خاصة بي ، ظلاً من ظلال الحياة بكل ما تنطوي عليه من آلام وأفراح ، من يأس وأمل ، من ضيق وانعتاق .. فلعلي في خطوة أولى ، أتمكن من أن أشكل بالنسبة إليهم ، وهم يقرأونني في شتاءاتهم ولياليهم ، صوتاً مواسياً يشعرهم بأن هناك من عاشت ما قد يقرب مما يعيشونه في لحظاتهم الآنية . ولعلي في خطوة ثانية أشحنهم من خلال ما توصلت إليه في النهاية ، بالضياء اللازم لتبصرهم بالحقيقة الكاملة لهذه الحياة ، الحياة التي إن انطوت من جانب على صورها القاتمة ، فلا بد من أن تنطوي من جانب آخر على صورها المشرقة الباعثة على التفاؤل . ولعلي في خطوة ثالثة ، وهذا هو حلمي النهائي ، أتمكن من أن أكوّن – ولو لإنسان واحد على هذه الأرض – الحافز الحيوي الذي سيوقظ إرادته بغية الانتقال بذاته من حال الخضوع والاستسلام لما قُدِّرَ عليه ، إلى الإيمان بثراء الفرص أمام من يسعى إليها . وبعد .. فهل أكون من خلال ما قلتُ قد اقتربت من الإجابة عن التساؤل الذي طالما طُرح عليّ من الكثيرين في أثناء إعدادي " البصر والبصيرة " ؟! تساؤلهم عن سبب كتابتها في هذه المرحلة المبكرة من عمري ؟! إنني أيها الإنسان كم كنتُ أخشى أن يخذلني الزمان قبل أن أُخرِج إليك هذه الرسالة ! أو هذه الدائرة الكبيرة التي اكتملت في حياتي . وكم أصبحتُ الآن وأنا أضمها إلى روحي ، وقد تمثلتْ كتاباً سوياً ، ثم وأنا أضعها بين يديك أمانةً قد أديتها ! كم أصبحتُ لا أخشى هذا الزمان وما يمكن أن يفعله .

– الكتابة مسألة عصية معظم الأحيان على التوصيف ، لكن .. دعيني أسألكِ عن خصوصية الكتابة بالنسبة إليكِ دافعاً ونتائج ؟!

أستطيع أن أقسّم إجابتي إلى محورين : الأول : صغير وثانوي لأنه يتعلق بي ، أنا الواحدة فقط من بين ذلك العدد الكبير من البشر ، فكتابتي تخلق لي دائماً على الصعيد الشخصي شيئاً من التوازن مع داخلي أو مع الخارج المحيط بي ، بعد أن أكون قد فرّغتُ على الورق ما شحن مشاعري بالضغط والانفعال اللذين يحتاجان حتماً إلى أي منفذ يتسللان منه ، بغية الحيلولة دون إلحاق الأذى بمن بات يحتضنهما . أما المحور الثاني ، فهو الذي يمتلك المكانة الأكثر تميزاً وأهمية في منظوري ، بل يشكل الهدف الأقصى والنهائي الذي أسعى إلى تحقيقه ، ولا أرى إبداعي يحمل أي معنىً من دونه ، إنه الوصول إلى البشر ، إلى المتلقين الذين لا ينبغي أن نكتب بصورة رئيسة إلا من أجلهم ، وإلا فلماذا نقوم إذاً بعملية النشر ؟! ونسعى إلى إجبارهم على تلقي ما لا يخصهم أو ما لا يستوعبونه ؟! لماذا لا نبقى في حال كهذه – نحن الأدباء – منكفئين على نفوسنا وكتاباتنا ؟ إذا كان الذي نبدعه لا يخص سوى نفوسنا وأفهامنا ؟! إنني حين أكتب لا أفعل ذلك إلا من أجل التعبير عما يشاركني الآخرون الإحساس به ، ولا يستطيعون التعبير عنه بفعل عدم امتلاكهم ما أمتلك من الوسائل الإبداعية ، فأكون بذلك الناطقة باسمهم .. أو المسهمة إلى حد ما في خلق شيء من التوازن لديهم ، بعد ما يكونون قد فرّغوا من ضغوطاتهم وانفعالاتهم أيضاً في أثناء قيامهم بعملية القراءة ، وإحساسهم بأن هنالك من يقاسمهم مشاعرهم ، فالأديب يتميز عن غيره بامتلاكه ذلك الرادار الشعوري الذي يمكن به أن يلتقط ما يمر عَرَضاً بسواه .

– بعد مجموعات شعرية ثلاث ، ماذا يعني الشعر لكِ ؟!

لقد حظيت أشعاري بإقبال متميز من الناس ، نظراً لانطوائها على وقفات تأملية شاملة ربما انتابهم بعضها أحياناً . لكنني لاحظت مؤخراً أنهم بدأوا يطالبونني بكتابة النثر .. بناء على ما يوجد من تباين في الأساس ما بين الكلمة الشعرية التي لا يسهل دائماً وصولها بفعل كثافتها وشحنها بما تنوع من الدلالات ، والكلمة النثرية التي تأتيهم بصورة أكثر يسراً ومباشرة مهما ارتقت بدرجاتها الفنية . ومن هنا رأيتُني

مع احتفاظي بالجنس الأدبي الأول ، أتجه نحو تسطير الخواطر النثرية التي أعبّر بها عما كان من المفترض أن أعبّر عنه شعراً ، ذلك لأن أساس هدفي الأدبي يتركز بالدرجة الأولى على تواصلي مع قرائي ، وفق اللغة التي يختارون ، والفنية التي أختار ، وفتح الجسور المضيئة بيني وبينهم ، بدلاً من أن أنكفئ على ذاتي ، وأحدّثهم من وراء الجدران بلغتي الخاصة التي قد تحتاج إلى وسيط يترجمها إليهم .

– هل الشعر اليوم في أزمة ؟! وإن كان كذلك ، فمن المسؤول ؟! ومن ثم كيف السبيل للخروج من هذه الأزمة ؟!

الشعر في أزمة ، وبصورة خاصة الشعر الحديث ، إذ كم ألاحظ بصدده من نفور القراء الذين لم يعودوا يستوعبونه ، أو يتمكنون من فك ألغازه . وإذا ما شكل هذا بداهة انعكاساً لما فرضت الحياة الحديثة المتطورة من تعقيدات ، فلابد من التركيز أيضاً على دور الكثيرين من الشعراء ، الشعراء أنفسهم الذين باتوا يهتمون بالتجريب في إبداعهم ، وتحقيق الخلط والغموض في نصوصه ، أكثر مما يهتمون بالتعبير الشفاف الكفيل بخلق التواصل بينهم وبين جمهورهم .. سواء تَضَمَّنَ ما يتعلق بذواتهم الفردية أو بالعالم المحيط بهم . وليس من سبيل وفق اعتقادي للخلاص من هذه المعضلة ، سوى تنبُّه هؤلاء الشعراء إلى دورهم السلبي المذكور ، وتذكرهم دائماً أن هناك من يقرأهم ويسمعهم ويبتغي الوصول إلى أعماقهم ، وما يستتبع هذا مع الاحتفاظ بالفنية العالية ، من ضرورة خلق تلك اللغة المرنة التي يمكنها أن تصبح يوماً ملكاً مشتركاً ما بين المبدعين والمتلقين .

– ماذا تعني لكِ المصطلحات التالية : القصيدة العمودية ، قصيدة التفعيلة ، قصيدة النثر ؟ وإلى أي منها تنحازين ؟ ولماذا ؟

حين تم تقسيم القصيدة العربية إلى أصنافها الثلاثة المذكورة ، لم يكن ذلك إلا بناء على التباين ما بين آفاق وإيقاعات عصورها التي نراها تتدرج في اتساعها كذلك بصورة متوازية مع الأولى ، كلما خَطَت زمنياً نحو الأمام . وبما أنني أنتمي إلى العصر الأكثر حداثة ، فقد كان ينبغي أن أتجه تلقائياً إلى قصيدة النثر التي أراها تمنحني من الحرية ما يكفي لتحفيز القدر الأكبر من طاقاتي الإبداعية ، وللتعبير من ثم عن الحياة المحيطة بي بكل ما استجد فيها من آفاق وجزئيات وأشكال وألوان

وتداخلات وتناقضات وتعقيدات لم نعهد حضورها فيما سبق بهذا الوضوح . أما بالنسبة إلى القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة ، فلا أرى أن من الممكن خوضي فيهما بما أنهما ستضيقان عن روحي وفكري ، وذلك مثلما لا أرى أن من الممكن عودتي إلى الثياب التي كنت أرتديها في طفولتي ونشأتي الأولى .

– كتابكِ الهام : " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " الصادر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٩٩ ، هل لنا أن ندخل في عالمه الفني والواسع معاً لنتحرّى ثناياه ؟!

برغم الأهمية التي اكتسبها الشعر الجاهلي بفعل تشكيله طفولة أدبنا العربي ، فإنه لم يحظَ عبر القرون بالدراسات التي كان من شأنها أن تغوص في أعماقه ، وتكشف عن جوهره ، وذلك بناء على تركيز نقدنا العربي القديم بالدرجة الأولى على تحكيم أذواق النقاد الفردية ، والانشغال ببعض الأمور اللغوية التي لا تتجاوز سطح النص ، أو بناء على انشغال بعض النقاد القدامى والمستشرقين والنقاد العرب المحدثين المنتمين إلى إبداعات القرن العشرين ، بالشك في صحة نسبه إلى العصر الجاهلي . ويبدو أنه منذ منتصف القرن العشرين ، بدأ نقادنا يتنبّهون إلى هذا الأمر ، فأخذوا يوظفون المناهج الحديثة التي اقتبسوها من العالم الغربي بدراسة هذا الشعر وتحليله ، مستفيدين من تعددها وتنوعها في توضيح ما تعدد وتنوع من جوانبه ومستوياته . ومن هنا تحدد عملي ضمن كتابي المذكور في التركيز على نماذج من جهود هؤلاء النقاد ، آملة أن أسهم بها في تقديم إضاءة شاملة ومعمقة لآفاق هذا الشعر ، إذ قسمتُه إلى ثلاثة أبواب : ضمّنتُ الأول منها القراءات التي تناولَت الشعر الجاهلي بناء على علاقته بمجتمعه كالأنثروبولوجيّة والاجتماعية . وضمّنتُ الثاني القراءات التي تناولَتْه بناء على علاقته بالشاعر الفرد كالنفسية والتأملية الفلسفية . والثالث : القراءات التي تناولَتْه بناء على علاقته بالنص كالفنية والبنيوية بفروعها المختلفة .

– كيف أثرت البيئة المحيطة بالشاعرة الدكتورة ريم هلال إبداعياً .. وإنسانياً ؟!

لقد تنقّلتُ عبر إقامتي في مدينة اللاذقية ما بين بيئات ثلاث متباينة : أولاها حي شعبي يقطنه الفقراء بما يحملون من بساطة ونقاء ، والثانية منطقة يقطنها متوسطو

الثراء وتكثر فيها الحدائق المحيطة قطعاً بكل واحد من منازلها ، والثالثة منطقة يقطنها الأثرياء ويطل عدد كبير من منازلها على ساحلنا . وبذلك فإن المتتبع لأعمالي الأدبية يمكنه أن يتبين أي اغتناء قد تحقق لي عبر هذه المراحل التي طرأت على حياتي ، فعرفتني بطبقات الناس المختلفة ، وأدخلتني بيوتهم ، وأدق تفاصيل عيشهم ، مثلما جعلتني على احتكاك بالأرض ، بعناصرها المختلفة ، من تراب وأزهار ونباتات وأشجار ، وعلى احتكاك بالبحر ، أيضاً بعناصره المختلفة التي أراها تنعكس مع ما سبق بوضوح على الكثير من كلماتي وعباراتي .

– هل يواكب النقد حركة الإبداع بشكل عام والإبداع الشعري بشكل خاص ؟!

كلا .. ليس من الممكن للنقد حالياً أن يواكب الإبداع الأدبي أياً كان جنسه ، نظراً لغزارة إنتاجه في هذا الزمان بصورة لم نعهدها من قبل ، ولصعوبة تصنيف الناقد لهذا السيل المتدفق من الكتب بغية التمييز ما بين غثّها وثمينها .

– د. ريم .. جديدكِ الإبداعي .. متى سنكون على موعد معه ؟!

أعدُّ الآن مؤلَّفاً بعنوان " من مفكّرتي " ، أضمّنُه مجموعة من الخواطر التي تغلبُ عليها اللغة النثرية ، وإن كنتُ لا أتغافل عن تهجينها بقدر من اللغتين الشعرية والقصصية .. أما على صعيد ما أطرح فيها ، فأحياناً ما يتعلق بذاتي ، وأحياناً بذوات الآخرين .. وأحياناً بأي عنصر من عناصر العالم الخارجي .. آملة من خلال هذا المزيج الحرّ أن أؤكد توقي في الكتابة الأدبية إلى تلك الشمولية التي لا تعرف التقيد بحدود أي جنس أدبي ، ولا بحدود أي موضوع ، وذلك بغية الوصول في النهاية إلى أي ميل من ميول القراء التي لا تعرف حدوداً في كثرتها وتنوعها .. أما عن الموعد مع المؤلف المذكور ، فهذا ما لا أدركه مثلما لا أدرك الموعد مع تفتح زهرة في شرفتي .

– كلمة أخيرة تودّين توجيهها ؟

أريد أن أتوجه إلى البشر بعامةٍ بكلمتي التي تشكل دائماً المنطلق الأساسي لأدبي وهي : أليس لنا أيها الإنسان منذ الأزل أبوان واحدان ؟! إذاً أنت أيها الإنسان في أي زمان ومكان .. أنت أخي ..

لماذا وكيف تكتب الأنثى ؟

سؤال طرحه نضال محمد حيدر على مجموعة من الأديبات

مداخلة الدكتورة ريم هلال

نُشِرَتْ في جريدة الغد – جامعة تشرين ، عدد ٨ ، تاريخ ٢٠٠٣/٣/١١

إن التساؤل عن كيفية كتابتي وسببها ، يتطلب التساؤل أولاً عما أكتب .. ذلك لتشكيله في مرحلة أولى العناصر الأولية التي أتصرف بها ، وأصيغ من خلالها أدبي .. ثم لإمكان ربطي في مرحلة ثانية بين طبيعة هذه العناصر ، وهدفي من صياغتها أدباً ...

إنني من خلال الأعمال التي أنجزتُها ، والتي يمكن أن أنجزها مستقبلاً ، لا أتمنى الانتهاء إلى عدّي أديبةً متخصصةً في مجال معين من مجالات الحياة ، فأكون مثلاً أديبة المرأة أو الطفل أو البحر أو الصحراء ، وما إلى ذلك من تسميات ، إنما أتمنى عدّي أديبة الحياة والكون بأسرهما ، بكل ما ينطويان عليه من أبعاد كبيرة ورئيسة وجزئيات صغيرة وثانوية . لذا أراني أتدرج في كتاباتي من الدائرة الأصغر نحو الأوسع فالأوسع ، انتهاءً بالدائرة اللامتناهية في اتساعها ، دائرة الخالق مبتكر كل شيء . علماً أنني آثرتُ هذا الاتجاه الشامل في إبداعي ، بناءً على ما تفترض تأملاتي الشاملة التي كنتُ أراها وقبل أن أصبح أديبة ، تتوقف عند كل أمر ما دام قد فعل فعله في مشاعري ، دون القول إن هذا من اختصاصي وهذا ليس كذلك ، تأملاتي التي تحملني على تذكّر ذاتي الطفلة التي كانت تعمَد بيديها الصغيرتين ، إلى عناق الكرة الأرضية المجسّمة في بيتها قائلةً : ها أنا أحتضن العالم بكليته ..!!

أما بشأن الإجابة عن كيفية كتابتي ، فربما ستعذرني إذا ما أبديتُ عجزي عن إعطائها حقها من الإسهاب والتفصيل ، ذلك لجهلي بالكثير من آلياتها التي لا تشكل في حقيقة الأمر سوى صورة مصغّرة لآليات الخلق الإلهي ، الذي لم نتمكن ولن نتمكن من فهم سرّه .

وفيما يتعلق بسبب كتابتي ، فقد أستطيع أن أشطره إلى محورين : أوّلهما صغير وثانوي ، لأنه يتعلق بي ، فكتابتي تخلق لي دائماً على الصعيد الشخصي شيئاً من

التوازن مع داخلي ، أو مع الخارج المحيط بي ، بعدما أكون قد فرّغتُ على الورق ما شَحنَ مشاعري بالضغط والانفعال اللذين يحتاجان إلى أي منفذ يتسللان منه ، بغية الحيلولة دون إلحاق الأذى بمن باتت تحتضنهما . أما المحور الثاني ، فهو الذي يمتلك المكانة الأكثر تميزاً وأهميّة في منظوري ، بل يشكل الهدف الأقصى والنهائي الذي أسعى إلى تحقيقه ، ولا أرى إبداعي يحمل أي معنىً من دونه .. إنه الوصول إلى البشر ، إلى المتلقين الذين لا ينبغي أن نكتب بصورة رئيسة إلا من أجلهم ، وإلا فلماذا نقوم إذاً بعملية النشر ؟! ونسعى إلى إجبارهم على تلقّي ما لا يخصهم ؟ أو مالا يستوعبون ؟! إنني حين أكتب لا أفعل ذلك إلا من أجل التعبير عما يشاركني الآخرون الإحساس به ، ولا يستطيعون التعبير عنه بفعل عدم امتلاكهم ما أمتلك من الوسائل الإبداعية ، فأكون بذلك الناطقة باسمهم .

" البصر والبصيرة " سيرة ذاتيّة

ريم هلال على نهج طه حسين

الدكتور عبد الله أبو هيف

نُشِرَتْ في جريدة تشرين – سورية ، عدد ٨٦٢١ ، تاريخ ٥/٧ /٢٠٠٣

يندرج كتاب ريم هلال " البصر والبصيرة " في السرد السّيري ، غير أن قيمته الفكرية والفنية تكمن في إضاءته لتجربة ممعنة في فرادتها وخصوصيتها من منظورات متعددة ، قوامها استخلاص الحكمة الباقية ، على أن العاهة لا تمنع تحقق الذات أو تعوقها عن الإدراك الجمالي والمعرفي والنضالي لمعاني الحياة واشتراطات الوجود الأقسى مع هذه العاهة .

١- تجنيس النص :

يفترق النص مع الرواية ليلتقي مع السرد الروائي السيري الذي يجعل السيرة مرجعاً للنص ، ومراحاً للتخييل السردي غالباً من جهة ، ولتجنيح اللغة نحو أمداء فسيحة للتأمل وتمحيص الذات الخاصة قليلاً من جهة أخرى . إنه نص سيري يلوذ بالسرد بما هو تخييل ، فيستغرق في فضاء الوقائع الشخصية ابتعاثاً لوطأة الحال ،

واكتناهاً لجوهر التجربة الموجعة . ولعلنا ننطلق من التعريف المتفق عليه في النظر إلى السيرة الذاتية بوصفها " قصة استعارية نثرية يروي فيها شخص حقيقي قصة وجوده الخاص ، مركّزاً حديثه على حياته الفردية ، وعلى تكوين شخصيته بالخصوص " . غير أن نص ريم هلال أقرب إلى السيرة الذاتية في شكله " السرد النثري الذي يتقاطع أو يقاطع بالوثائق والنصوص الأخرى " ، وفي موضوعه " التركيز على حياة المتكلم وتاريخه الشخصي ، بل إن هذا التاريخ الشخصي عند هلال يصير مثار الاهتمام وحده دون العناية بالتاريخ العام " ، وفي وضعية المؤلف " الإحالة إلى الشخصية الحقيقية وتطابق هذه الإحالة مع منطق الراوي / المتكلم ، وقد كان متمازجاً مع الراوي الغائب في الفصل الأول ، ثم باشر الخطاب المتكلم في بقية الفصول " ، وفي وضعية الراوي " التطابق مع الشخصية الحقيقية من المنظور الاستعادي للقصة " . ونلاحظ في " البصر والبصيرة " وحدة المؤلف والراوي والشخصية باستخدام ضمير المتكلم الذي ضيّق حدود الرؤية أو وجهة النظر في مراحل معينة ، ولا سيما الطفولة واليفاعة إلى المعرفة الذاتية بالعالم وبآفاق التجربة ، بينما يتيح الضمير الغائب رحابة رؤيوية أوسع للسرد وللمنظور السردي . ولا يقلل من هذا الشأن تمتع " البصر والبصيرة " بما دعاه منظّرو السيرة الذاتية بالميثاق السير ذاتي حول أهمية التطابق بين الراوي والشخصية والمؤلف .

٢- التوصيف :

يقع الكتاب في مئتين وأربعين صفحة من القطع العادي ، ويتوزع على واحد وعشرين فصلاً مرقماً ، واستعادت المؤلفة في الفصل الأول ميلادها في التاسع عشر من نيسان سنة ١٩٦٠ ، واعتنت بوصف الولادة والمكان وفضاء العائلة .

وعاينت في الفصل الثاني التنبه لمرضها ، وزيارة الأطباء في دمشق ، والمرارة القاتلة لدى الأب التي لم تبارحه قط ، والإشارة إلى انتقال هذه المرارة لدى المحيطين بها .

ووصفت في الثالث الطفولة المعذّبة والالتحاق بالمدرسة ، وفصّلت القول في الرابع حول تفاصيل هذا الالتحاق برفقة أختها الصغرى رندة للعام الدراسي ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، وهي متاعب جو غريب وجديد عليها ، مما أثار تبعات العاهة المروّعة

منذ الخطوة الأولى على سلّم الحياة . وعنيت بأشجان السنتين الدراسيتين الثانية والثالثة في الفصل الخامس والسادس ، ورصدت في الفصل السابع بعض الملاحظات حول المرحلة الابتدائية وممارسة المعلمات والطالبات المتباينة معها ، ليتفاقم في روعها الإحساس القاهر بلطمات الزمان .

وخصصت الفصل الثامن لولادة أختها رفيف التي تعاني من المرض إياه ، وفي دمشق ، غطت الغشاوة البيضاء عين ريم تماماً . ثم كشف الفحص آنذاك أن عيني رفيف سليمتان . وسرعان ما لاذ الأب – تطميناً لها – بذكر العظماء من ذوي العاهات ، وما لبثت أن قاربت وضعها السابق : ضعف الشبكية بالعلاج .

ونقلت في الفصل التاسع اكتشاف موهبتها الغنائية ، ومشاركتها في حفل للشبيبة مؤديةً أغاني لفيروز وعفاف راضي ، ووصفت في الفصل العاشر انتقالها إلى ثانوية البعث وتطورات وضعها الصعب . ووقفت في الفصل الحادي عشر مليّاً عند مُعضلة وجودها وعذابه ، فهي عند مفترق طرق مادامت ماضية في مسار الآلام ، فتعلن مع نفسها الإصرار على مواجهة التحدي لتتجاوز تقييده لإرادتها المكينة وإمكانيتها الكامنة نحو تحقيق ذاتها تفوقاً وإبداعاً ، فحصلت بعزيمتها على الدرجة الأولى في الصف الثاني الإعدادي على قريناتها بالكامل .

ونظرت في الفصل الثاني عشر إلى مشاركتها في الاحتفالات الشبابية ، وفي مسابقة المطربين في الإذاعة باللاذقية ، ومشاركتها في التصفية النهائية في دمشق ، فأُعلِن اسمها فائزة بين مجموعة هواة الغناء ، ومنهم من صار مطرباً فيما بعد أمثال فاتن حناوي وفهد يكن وسمير سمرا . وأمعنت في هذا الفصل في تقدير العلاقة المميزة والإنسانية الرحيبة بجدتها الأولى لأمها ، وحزنها على رحيل فيلمون وهبي الذي ساهم في رعاية موهبتها الغنائية ، ثم عرضت لأغانيها ، ولقرار استنكافها عن الغناء في ظل اشتعال حماستها على التخرج من الجامعة مبرزة ومتفردة .

وتصاعدت في الفصل الثالث عشر وتيرة تحدي الإعاقة تعزيزاً لوعي الحالة الخاصة إثر إصابتها بمرض التيفوئيد ، فقررت أن تعتمد على ذاتها في تكوين ذاتها، وقد أسرفت في مديح والدها لإسهامه في تربيتها الثقافية من خلال العناية بالعلم وبسِيَر أصحاب العاهات ومعاني دروس الحياة في هذا الاتجاه ، والاعتراف

بفضل الأب والأم بعامة في تكوينها الذاتي ، وتجدد حلم الحصول على الدكتوراه تحقيقاً لذلك .

ووصفت في الفصل الرابع عشر دخولها إلى الجامعة وصعوبات بُعدها عن منزلها ، والتباين في مواقف المحيطين من صديقتها " م " التي خذلتها ، إلى بقية الوجوه ذات الفضل عليها ، ولا سيما محمد حاتم . وواجهت في الفصل الخامس عشر تحديات الإعاقة ، فقررت الذهاب إلى الكلية بمفردها ، وامتدت هذه المواجهة إلى الفصل السادس عشر إذ تصاعدت وطأة مكابدة الدهر التي ترافقت مع قسوة الرفيقات حولها ، وبدأت في بثّ حكمة الحياة .

ووصفت في الفصل السابع عشر اقتراب رفيقتها " م " منها نادمة ، وانغمار الموقف منها بالتسامح والغفران والرحمة ، بينما تنثال الدروس والعبر من نبع حكمة الحياة التي اندغمت بها ، والتحقت بجمعية المعوقين .

وأظهرت في الفصل الثامن عشر حصاد عزيمتها في سيرتها الدراسية الجامعية ، مما جعلها تحوز الدرجة الأولى على الدفعات جميعها حتى تخرجها ١٩٨٣ ، وأفصحت عن مرارة التعاضد الإنساني الملتبس لدى تسجيلها ندم صديقتها " م " التي حافظت على ودّها .

ووثّقت في الفصل التاسع عشر صعوبات تعيينها معيدة ، وغضبها من إقصاء المكفوفين ، وغضب الأساتذة وإرسالهم رسالة إلى وزير التعليم العالي لمجاوزة هذا الظلم الفادح ، وتَلَتْها رسالة والدها إلى رئيس مجلس الوزراء ، وذلك بالمزيد من جهد الاتصالات والتضامن حتى صدر قرار رئيس الجمهورية بتعيينها معيدة .

وخصصت الفصل العشرين لمعاناتها في أطروحة الماجستير التي كانت عن نقد طه حسين ، ووصفت وقت الدفاع ونقمتها على أحد المناقشين لأطروحتها ، ثم التفتَتْ إلى تجربة أختها المماثلة لها رفيف ، ولفتت النظر إلى صدور ديوانها . وختمت سيرتها في الفصل الحادي والعشرين بذكر تفاصيل دفاعها عن الدكتوراه تتويجاً لمعنى تحقق الذات .

٣- قضايا السيرة الذاتية :

تتميز سيرة " البصر والبصيرة " بقيمة فنية عالية ، إذ نقلت هلال قصتها إلى خطاب يقارب السرد الروائي ، ويزهو بتعليله للوقائع واستنطاقها المعاني والدلالات ، مثلما ينهض على تنظيم السرد وضبطه لعمليتي التكثيف والتوسع ، فلا تستطرد هلال في سرد الأحداث وتفاصيلها الحارقة ، ولا تقع في وهدة التكثيف المخلّ بوعي التجربة . وقد بنت الكاتبة سيرتها على روابط ظاهرة منتشرة في السرد السير ذاتي ، وهي الاستعادة والتداعي والتتابع ، فقامت السيرة على استعادة الحوافز " الوحدات القصصية الصغرى " الدالة على خصوصية التجربة وسبل مجاوزة الإعاقة إلى التحقق الذاتي المشرّف للكرامة الإنسانية ، وتكاد تكون السيرة برمّتها استرجاعاً بوعي الراهن لدى صاحبة السيرة لتفاصيل حياتها المرّة . واستعانت لإكمال المبنى الاستعادي بالتداعي المعنوي الذي يركز على وقائع معينة أو أفكار محددة من شأنها أن تضاعف من وظيفة الربط بين الفصول ، وعمدت إلى التتابع في السرد ، لا على سبيل اليوميات أو المذكّرات ، بل الإحاطة بالمفاصل الرئيسة في هذه التجربة المتفردة .

وقد اختارت ريم هلال الصوغ الفني التخييلي في الفصل الثاني بالمزج بين الراوي المتكلم والراوي المضمر ، وبالعناية بالفضاء الزماني والمكاني العام ، وبمحيط الشخصيات الأخرى الفاعلة ، وبضبط المنظور السردي ، ثم ما لبثت أن باشرت خطابها في الفصول التالية شيئاً فشيئاً تحت ضغط مواجهة العاهة والسعي إلى تحقق الذات ، لتقترب الفصول الأخيرة من التسجيل الحرفي لوقائع ضاغطة أو حاسمة أو دالة على تحولات التجربة .

وكشفت المباشرة عن عناء أفعال وردود أفعال بعض المحيطين بها على رهافة إحساسها إلى الدرجة التي شمتت فيها من حكم القضاء عليهم ، وتتضح السيرة بعشرات المواقف المادحة لأسماء صريحة عرفاناً بجميل أصحابها ، مثلما أفصحت عن عشرات المواقف القادحة إظهاراً أو إضماراً لأسماء موصوفة أو مُرمز إليها بالحروف الأولى .

ويتضح الأمر الثاني في مبنى السيرة الذاتية ودلالته العامة .. ولعل ريم هلال اختارت في بادئ الأمر نهج طه حسين في " الأيام " ، ثم لجأت إلى المباشرة أكثر

تعميقاً للميثاق السير ذاتي ، غير أنها اعتمدت على بعض خصائص منهج طه حسين نفسه ، ولا سيما الانتقاء في ذكر تفاصيل بعينها أو إيراد وجهة نظر صاحبتها دون العناية بأعوان السرد الآخرين ، فليس ثمة اهتمام بمواقف الشخصيات الأخرى ، أو بما تفكر فيه ، أو بما يعمّق السرد من خلاله التحليل النفسي ، لأن هلال آثرت الإحاطة بقضية واحدة هي تصوير سيرتها المعرفية مثل طه حسين ، وذِكر ما يعزز هذا التصوير من وجهة نظرها وحدها .

وتضافرَ مع الانتقاء مسعاها إلى تفسير وجهة نظرها من تلاقي المعرفي مع الإيماني بلوغاً إلى تحقق الذات المبدعة والفاعلة ، فأضاء التفسير لحظات العسر والقيد والضغوط الكثيرة التي جاوزتها ريم هلال مقاربة للفيض العرفاني في فضاء البصيرة .

" البصر والبصيرة " في ندوة كاتب وموقف

الإعلاميّ سهيل خليل

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٥٥١٤ ، تاريخ ٢٠٠٣/٥/١١

بالتعاون مع مديرية الثقافة باللاذقية ، أقامت الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون ندوتها الأسبوعية من برنامج " كاتب وموقف " في صالة المركز الثقافي باللاذقية ، وكانت الندوة بعنوان " البصر والبصيرة " ، وهو عنوان رواية لضيفة الندوة الدكتورة ريم هلال ، وكعادته في احترام المواعيد بدأ مدير الندوة ومعدّ البرنامج الأستاذ عبد الرحمن الحلبي الساعة السابعة تماماً . وكانت صالة الندوة تغصّ بجمهور نوعي يحب ضيفة الندوة ، ويجلّ شجاعتها في التغلب على الصعاب ، فالمعروف أن الدكتورة ريم فقدت البصر صغيرةً ، ولكنها لم تفقد البصيرة ، فبعد نيلها الثانوية العامة انتسبت إلى جامعة اللاذقيّة – كلية الآداب . والجميل أن ريم قررت حفظ تفرعات الطريق من البيت إلى الجامعة ، كي تذهب بمفردها إلى الجامعة ، ونجحت بالبصيرة لا بالبصر . وقال الأستاذ الحلبي في البداية : هذه الريم الهلالية تشكل حالة خاصة ، فهي التي حولت الظلمة إلى نور يمور بالأمل منطلقة بإرادتها

الصلبة، ساعية إلى هدف منشود ، وهو دحر الظلام . لم تحقد ريم على من أساء إليها ، وكانت تتمنى للمسيء السلامة من الأذى .. إن ريم هذه تؤمن بمبدأ يقول : " من يمتلك مثلي القدرة على تحدّي الصعاب ، لا بد أن يمتلك القدرة على السماح " . ثم تحدث الأستاذ الحلبي عن فن السيرة الذاتية في الأدب العربي مستشهداً بسيرة عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، لأن القواسم المشتركة كثيرة بين الدكتور حسين والدكتورة هلال . وبعد ذلك قام بتقديم ضيفَي الندوة الدكتور عبد الله أبو هيف والدكتور محمد عبد الرحمن يونس ، وأشار إلى وجود الناقد المعروف وفيق خنسة راجياً منه أن يشارك بمداخلة . وقال الأستاذ الحلبي : موضوع الندوة هو رواية ريم هلال " البصر والبصيرة " ، وسنتحدث أيضاً عن كتابها " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " . ثم طلب مدير الندوة أن تتحدث فقالت :

حين أتحدث عن تجربتي في الحياة والأدب ، لابد من العودة إلى الأصول . وُلدتُ أعاني من ضعف في البصر ، وهذا الأمر وضعني أمام خيارين : إما الانكفاء على الذات وإما الانطلاق عبر عالم النور ، ووقع اختياري على الأمر الثاني إيماناً بثراء النور واقتداءً بعباقرة العالم ، وهذا الاختيار جعلني أمرّ بالكثير من المصاعب والمشقات ، ولا سيما على درب العلم والمعرفة . وبالإرادة والتصميم وبجهودي وجهود أسرتي تمكنتُ من اجتياز خطواتي الأولى وتفوقتُ وتخرجتُ من الجامعة ، وكان حلمي أن أكون معيدة في الكلية كي أتابع دراساتي العليا مقتديةً بالدكتور طه حسين ، وليس هنا من مجال لذكر الصعاب التي اعترضتني في سبيل ذلك .

وهنا بدأ الحديث الدكتور أبو هيف عن تجنيس رواية الدكتورة هلال ، فقال : يندرج كتاب الدكتورة هلال في إطار السرد السيري ، وقيمته الفنية تكمن في الخصوصية والفرادة ، واستنباط الحكمة من أن العاهة لا يمكن أن تعيق المجتهد في الوصول إلى هدفه . إن كتاب ريم يلوذ بالسرد بما هو تخييل وهو أقرب إلى أدب السيرة الذاتية ، الذي يتقاطع بالوثائق والتركيز على حياة المتكلم ويعير الاهتمام بالذات ، دون الالتفات إلى التاريخ العام ، لقد آثرت ريم استخدام ضمير المتكلم بعكس الدكتور طه حسين الذي آثر ضمير الغائب . وبعد ذلك تحدث الدكتور يونس

مستعرضاً الرواية ، ولا أجد ضرورة لتكرار ما قاله الدكتور يونس . وبعد ذلك طلب الأستاذ الحلبي من والد الدكتورة ريم أن يتحدث ، فقام الأستاذ عبد القادر هلال بكل وقاره ، وجلس إلى جانب ابنته ريم ، وحاول الحديث ، ولكن الدموع غلبته ، وأنا تذكّرتُ قول شاعر ألمانيا العظيم " غوته " ، إذ قال : " ليس هناك شيء أغلى من دموع الرجال .. " ، واستطاع الأستاذ الحلبي بلباقته أن يجعل الأستاذ هلال يتحدث، فقال الأستاذ هلال : كنت من أنصار الشعر العمودي ، إلى أن أطلعتني ابنتي ريم على قصائدها ، وعندما انتهيت من قراءة تلك القصائد التي لا تنتمي إلى شعرنا الكلاسيكي ، قلت لها : يا ريم أنت شاعرة .. !!

ثم طلب الأستاذ الحلبي من الأديب والناقد وفيق خنسة المشاركة ، والمعروف عن الأستاذ خنسة عمق وجدية آرائه ، لذا أثارت مداخلته الحاضرين بعمقها وجديتها . وفي ختام الندوة أهدت الدكتورة هلال جمهور الحاضرين أغنية بصوتها الحساس الرهيف . وأعترف هنا ببساطة بأن ندوة كاتب وموقف من أكثر الندوات إمتاعاً لغناها بالمشاركين . بقي أن أقول : تحية من القلب لصديقة النور ريم هلال ، وتحية احترام لوالد ووالدة ريم اللذين أشعلا درب ريم بألف نجمة من الحب والحنان .

الدكتورة ريم هلال تحاضر في سيدات الأعمال

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٥٥٥١ ، تاريخ ٢٠٠٣/٦/٢٤

في إطار نشاط لجنة سيدات الأعمال في اللاذقية ، ألقت الدكتورة الأديبة ريم هلال محاضرة بعنوان " البصر والبصيرة وتحدّي الإعاقة " ، وذلك في المركز الثقافي ، تحدثت فيها عن تجربتها الشخصية كما أودعتها في كتابها الخامس الذي يحمل عنوان " البصر والبصيرة " ، الذي تتحدث فيه عن حياتها منذ لحظة الولادة حتى لحظة حصولها على درجة الدكتوراه في الأدب العربي .

قسمت الدكتورة حياتها إلى قسمين : القسم الأول منذ لحظة ولادتها وهي لا تكاد ترى حتى حوالي سن السادسة . والمرحلة الثانية عندما تجسدت معاناتها الحقيقية بإدراكها عاهتها ، وما سببته لها من آلام وصعوبات .

تناولت الدكتورة في محاضرتها أيضاً معاناتها على الصعيدين الدراسي والاجتماعي ، فقاومت العزلة ، وانخرطت في المجتمع بطريقة طبيعية ، ورفضت مساعدة الآخرين حتى أثناء السير في الشارع ، وتابعت دراساتها بعد ذلك للحصول على درجة الدكتوراه ، لتثبت مدى قدرة الإنسان على تحدي الصعوبات والمعوقات بالجهد المتواصل الدؤوب .

جاء في حوار مع الإعلاميّ توفيق حلاق أجراه مصطفى علوش
نُشِرَ في جريدة تشرين – سورية ، عدد٨٦٧٢ ، تاريخ ٧/٧ /٢٠٠٣

– شخصيات برنامجكَ " ابن البلد " الاستثنائية – إذا صحّ التعبير – اعتادت العمل في الظل وأنت فجأةً سلّطتَ الضوء عليها .. ألم تخشَ أن يربكها الضوء ؟ أو يغيّر من عطائها ؟

هذا النوع من الشخصيات ، لا يمكن لأي ضوء أن يغيّرها أو يغيّر من طبيعتها الخيّرة والإبداعية ، فأمثال د. ريم هلال ، أو ماهر عيون السود ، أو الأب بولس سليمان ، وغيرهم من الذين ظهروا في البرنامج ... جلسوا أمام الشاشة ، وشاهدوا ذواتهم ، وفي اليوم التالي عادوا إلى طبيعتهم وحياتهم وعملهم وعادوا لعائلاتهم .

حوار مع الدكتورة ريم هلال
أجرته ريم ديب
نُشِرَ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٥٥٦٤ ، تاريخ ٢٠٠٣/٧/٩

لم تكن الإعاقة البصرية إلا دافعاً وحافزاً لمتابعة حياتها ودراستها وتحطيم العقبات وتذليل الصعاب ، وتصميماً على متابعة الدراسة والتفوق . إنها الأديبة الدكتورة ريم هلال ، الإنسانة الشفافة الرقيقة ، التي تزرع في النفس حب الحياة والتصميم على قهر الظروف مهما كانت . مع الشاعرة الأديبة ريم كان لنا الحوار الآتي :

– من هي ريم هلال ؟

ولدتُ في اللاذقية مصابةً بضعف شديد في البصر ، لكن هذا لم يعنِ اجتياز دراستي في مدرسة خاصة بالمكفوفين ، إنما في مدرسة للمبصرين ، إيماناً منا بأن المعوق ينبغي منذ طفولته أن يعتاد الانخراط في مجتمعه المحيط به على اختلاف فئاته ، وإنْ أدى به هذا إلى مروره بالكثير من الصعوبات . حصلتُ على إجازتي الجامعية في اللغة العربية وآدابها عام ١٩٨٣ ، ثم تابعتُ دراساتي العليا استجابة لطموحاتي التي لا تُحدّ ، فحصلتُ على درجة الماجستير عام ١٩٩٢، وكانت رسالتي بعنوان " المنهج النقدي عند طه حسين " ، ثم حصلتُ على درجة الدكتوراه عام ١٩٩٨ ، وكانت رسالتي بعنوان " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " ، والآن أعمل مدرسة في كلية الآداب – قسم اللغة العربية بجامعة اللاذقيّة ، محاطةً بمحبة طلابي وتقديرهم الكبير لتجربتي . وإلى جانب هذا دخلتُ عالم الأدب الذي أجد فيه نفسي الآن بالدرجة الأولى ، لكوني أنفتح من خلاله على تجارب الآخرين التي لا أرى فيها سوى صور لتجربتي الشخصية . وقد صدرت لي ثلاث مجموعات شعرية " العرّافة " عن وزارة الثقافة عام ١٩٩٥– " كل آفاقي لأغنياتكِ " عن وزارة الثقافة عام ١٩٩٧– " اسمي والأرض " عن دار المرساة في اللاذقية عام ٢٠٠١ ، ومؤخّراً صدر كتابي الحلم " البصر والبصيرة " عن دار الآداب ببيروت ، أقول كتابي الحلم لانطوائه على سيرتي الذاتية التي كنت أتطلع إلى تسجيلها منذ يفاعتي الأولى ، لذا يمكنكِ أن تتصوري أي احتضان قد حظي به هذا العمل لدى قدومه إليّ نسخةً مطبوعة .

– ريم هلال تشكل حالة خاصة تلخص معنى التحدّي . بماذا تحدّثيننا عن ذلك ؟

منذ يومي الأول في المدرسة توقدتْ أول جذوة من التحدي في داخلي ، إذ برغم الصعوبات التي اكتنفتني على الفور ، وتبدُّل صورة ذلك العالم المأمول الذي كنت أظنه زاهياً ، فإنني لزمتُ الصمت ، وتجنبتُ بثّ أي شكوى لوالديّ خشية أن ينتزعاني منه ، من ذلك المكان الذي يوجد فيه كل من هم في مثل سني ، ويفتتحا أبواب مدرستي في البيت .

– وما هي الصعوبات التي واجهتك ؟

صعوبات كثيرة خُصِّصتُ بها منذ طفولتي بناءً على وضعي الخاص ، وقد توزعتْ ما بين مجالين أساسيين : أحدهما مجال تعليمي ، إذ كان عليّ من خلال بقايا بصري الضعيفة التي لا تتعدى ثلاث درجات أن أتبين الحروف وأدرك رسمها قراءةً وكتابةً . ثم هناك المجال الاجتماعي الذي لم يقلّ تصلّباً عن المجال الأول ، إذ تمثّلَ في مصادفتي عبر كل زمان ومكان العديدين من غير الأخيار الذين وجدتُهم يعاقبونني على إعاقتي ، وكأنني أنا التي أسهمتُ في خلقها ، مما أظهرهم أمامي أكثر قسوةً من الإعاقة ذاتها ، لأن هذه إذا لم تَعِ ما تفعل ، فإن أولئك يعون ويصممون .

– من كان صاحب الفضل في انتصارك على هذه الصعوبات والظروف القاسية ؟

إنهم الصنف المقابل ، صنف الأخيار الذين التقيتُهم أيضاً على طريقي بالتوازي مع غير الأخيار ، إنهم أولاً أسرتي التي لولاها لَمَا أتيح النماء لتلك الغرسة الضعيفة التي كانت تحتاج إلى المزيد من الرعاية والاهتمام والجهود ، إنهم الكثيرون الكثيرون الذين تلوا الأسرة ومنحوني جميعاً شُعَلاً من عيونهم ، وقد تفاوتت درجات توهجها ما بين فرد وآخر . لذا فإن كل مبصر إذا هو يرى بعينين اثنتين ، فإنني غدوتُ أرى بآلاف العيون .

– هل صحيح أنك أول فتاة عربية كفيفة تنال درجة الدكتوراه ؟

منذ سنوات عرضتْ إحدى المحطات الفضائية فتاة أردنية كانت قد حصلت على درجة الدكتوراه في الحقوق ، وقدمتْها على أنها أول فتاة عربية كفيفة تحصل على هذه المرتبة العلمية العليا في الوطن العربي ، علماً أنني كنتُ قد حصلتُ على المرتبة ذاتها قبل الفتاة المذكورة بأشهر . على أي حال إن ما أستطيع أن أدلي به هنا هو أنني حزتُ درجة الدكتوراه في الخامس من أيار عام ١٩٩٨ ، فإذا لم توجد واحدة سبقتني إليها ، فإن هذا سيعني انتقال الأولية بهذا الصدد إليّ ، وإذا وُجِدتْ ، سأكون من بين المهنئين لها .

– هل كان لتجربة الدكتور طه حسين دور في مسيرة حياتك ؟

لا شك أن الدكتور طه حسين شكّل بالنسبة إليّ القدوة المضيئة التي اهتدت بها خطواتي ، لكن هذا كان في مراحلي الأولى التي لم تكتمل فيها تجربتي ، أما بعد

اكتمال دائرة كبيرة من هذه التجربة ، فقد وجدتُ ضرورة في دخولي طور الانعتاق ، وبلورة شخصيتي المستقلة التي لم يَعُد من الملائم لها أن تظل خاضعة لتأثير أحد . إنني إذا ظللتُ متشبثة بصورة طه حسين أو سواها ، هل سأكون حينئذٍ قد قدمتُ سوى نسخة مكررة عنها أو عن سواها ؟ وهل هذا يعني ما هو مهماً بالنسبة إلى نهر الحياة المتجدد ؟

– وماذا عن بداياتك الشعرية ؟

هناك أمر أختلف فيه عن كثيرين من الشعراء ، وهو أنني لم أكتب الشعر في سن مبكرة ، ذلك لانشغالي خلال دراستي المدرسية والجامعية بتحقيق تفوقي ، ثم بمتابعة دراساتي العليا بغية الحصول على درجة الدكتوراه ، لكن ما إن حصلتُ على درجة الماجستير حتى حدث تحوُّل في نفسي امتد إلى مسيرتي ، فقد تفجّرتْ موهبتي الشعرية التي يبدو أنها كانت تنمو ببطء خلال السنوات السابقة ، وبدأتُ أحيد عن حلمي بالتفرُّغ للبحث الأكاديمي . وكان من العوامل التي أسهمت في ذلك ، هو أنني في الحين المذكور أخذتُ أُعمِل التأمل في تجربتي بعد قطعي ذلك الشوط من حياتي، فوجدتُها مليئة بالأحداث والصور التي هي جديرة بأن تمطر مدادي ، ومن هذه التجربة تبيَّن لي أنني أنطلق دائماً إلى تجارب الآخرين حاملةً حيالها أحاسيسي ذاتها ، التي أراها تتكون حيال ذاتي . وإلى هذين العاملين اللذين أسهما في تفجُّري الشعري أضيف ما كان لدراستي للأدب ، ولتحضيري لرسالة الماجستير من دور في تكوين ذخيرتي الثقافية ، وفي تمرسي بالكتابة اللازمين لإنماء هذه الموهبة . وبناءً على هذا كله ظهرتُ وقد حققتُ نبوءة والدي الذي قال لي ذات يوم وأنا لا أزال فتاة صغيرة : ستصبحين شاعرة يا ريم .

– ما أهم الموضوعات التي كتبتِ حولها في مجموعاتك الشعرية ؟ وهل هناك بعدُ ما لم تتطرقي إليه ؟

إن كل أمر في الحياة والكون بدءاً من الذرّة الصغيرة حتى الخالق العظيم ، هو جدير بأن يدخل النص الأدبي ، ما دام بإمكانه أن يُحدِث انفعالاً في النفس الإنسانية، أو يحملها على التأمل . وأنا وقد وعيتُ هذه القضية ، لا أرى أن تجربتي الأدبية قد قصَّرتْ تجاه بُعد آخر سوى الأبعاد الكبيرة التي تطرقتُ إليها : الذات

الفردية – الإنسان – الطبيعة – الحياة – الكون – الله ، إنما تقصيري الحتمي هو تجاه الجزئيات الكثيرة اللانهائية التي ينطوي عليها كل بُعد ، والتي لا تكفي أعمار البشر جميعاً للإحاطة بها بأكملها .

– بماذا تحدثيننا عن دور الموسيقا في حياتك ؟

في مطلع الصّبا تلقيتُ دروس عزف على البيانو لدى مدرّسة خاصة ، وكم كنتُ أنطلق عبر تلك الأنغام الرقيقة بأحلامي إلى معهد الكونسرفتوار ، آملةً أن أستكمل فيه دراستي الموسيقية ، وأطوّر من خلالها موهبة الغناء التي ظهرت لديّ منذ الطفولة . لكن حين أرادت لي الأقدار أن تستبدل بدربي الفني درباً أدبياً ، وجدتُ نفسي أستبدل بالأوتار التي كنت أملكها قلماً أعبّر به عن موسيقا الحياة والكون المتنوعة ما بين لحظة ولحظة ، بقعة وبقعة . هذا مع استمراري في الإنصات اليومي إلى الموسيقا الكلاسيكية التي أنا شغوفة بها إلى حد بعيد ، والتي باتت تشكّل أحد منابع إلهامي لكثرة ما تجعلني أنفتح على بحار فسيحة لا نهاية لألوانها .

– ماذا تقولين أخيراً ؟

استوقفتني مؤخّراً إحدى الأمهات بحماس ، ورجتني أن أتحدث عن الواقع السلبي الذي يشكّله المدرسون ... مؤكَّداً هي لا تقصد المدرسين جميعاً ، الذين أشكّل أنا شخصياً واحدة منهم ، ومؤكَّداً أنا لن أخوض في تفاصيل هذا الواقع الجارحة التي نعرفها جميعاً ويعرفونها هم . لذا أكتفي بهذا النداء : أيها البعض الكثيرون أو القليلون من المدرسين .. ليتنا نتذكر دائماً أننا نحمل أكبر أمانة وأقدس مهمة على هذه الأرض ، ليتنا نتذكر دائماً أننا ينبغي أن نظل كباراً أمام طلابنا ، طلابنا الذين ينبغي أن يظلوا ناظرين إلينا على أننا كبار ، ذلك حفاظاً على نفوسنا ، وعلى الأجيال التي تتوالى على وطننا الذي يُبنى يوماً بعد يوم ، صرحاً بعد صرح ، إنساناً بعد إنسان .

" البصر والبصيرة " لريم هلال ... سيرة ذاتية مبكرة لكفاح راءٍ ...
الحياة إذ تَشُقُّ بالحب الموت ... وتتفجّر ينبوع ضياء من الحلكة
الدكتور محمد عبد الرحمن يونس
نُشِرَتْ في مجلة الكويت ، عدد ٢٤٠ ، تاريخ ١/أكتوبر /٢٠٠٣

إذا كان من المعروف في تاريخ السِّيَر الذاتية العربية ، أنها قلما تُكتَب في مقتبل الشباب أو أوجِهِ ، لأن هناك فضاءً زمانياً متسعاً يمكن أن يعاصر الكاتب بعد سنّ الشباب ، وبالتالي يمكن أن يكون مشبعاً بالأحداث والذكريات والرؤى والخبرات المعرفية والإنسانية الجديدة ؛ فإن الشاعرة والباحثة والأستاذة الجامعية الدكتورة ريم هلال ارتأت أن تدوّن سيرتها الذاتية مبكّراً ، وهي في أوج شبابها وعطائها العلمي ، وكان يمكنها أن تتأخّر في كتابتها عشر سنوات أخرى ، لكن ما يسوّغ لريم كتابة هذه السيرة الإنسانية المتشعّبة إلى أدقّ مفاصل الحياة ، وجزئياتها الغائرة إلى أعماق النفس الإنسانية بأحلامها وآمالها وطموحاتها وآلامها الكثيرة ؛ هو أن تجربتها في الطفولة والصبا والشباب كانت تجربة متميّزة ثرّة غنيّة بكل ما هو مفرح ومؤلم في آن، فهي كفيفة البصر منذ سنواتها الأولى . في سيرتها " البصر والبصيرة " تنساب ذكريات الطفولة ، والصبا والشباب كشلال يفيض عذوبةً ونبلاً ، ويتدفّق بالآمال البعيدة الأمداء ، والأحزان العميقة الشفيفة .

أصداء الطفولة والحنين :

نشأت ريم هلال في بيت تربّى على قيم المعرفة والحق والخير ، والكرم ، ومعاملة الناس باحترام نبيل ، وكرم إنساني ، فقد فتح هذا البيت صدره الرحب لجميع الأصدقاء والمعارف . تقول واصفةً فضاء منزلها : " لقد تحوّل بيتنا الجديد إلى مقهىً حقيقي يستقبل الزوار منذ السادسة صباحاً حتى الثانية عشرة ليلاً ، يشربون القهوة ، يدخّنون النراجيل ، يرافقوننا على موائد الفطور والغداء والعشاء ، يلوّنون الجو الداخلي بالحيوية والفرح ، فباتوا وكأنهم جزء من البيت ، أو وكأن البيت جزءٌ منهم ، ولا أزال أتذكّر كيف كنا نضطر إلى فتح باب البيت الخارجي لنوفّر على

أنفسنا عناء الاستجابة لكل رنين من جرسه الذي كان يتكرر في اليوم الواحد عشرات المرات " .

وقد منحها هذا الفضاء ألفة إنسانية كبيرة ، وأضفى على حياتها جواً شاعرياً حميماً ، حتى بدا بالنسبة لها ، بأطيافه وخصوصياته الصغيرة والكبيرة جنة مصغّرة ، فهو البيت الوحيد في الزقاق الذي يتسع لجميع الأصدقاء ، وهو الوحيد الذي يملك تلفازاً ، يوم كان التلفاز حلماً من أحلام الرفاهية السحرية والأسطورية التي قلما تتحقق في حياة الناس في ذاك الزمان ، أي في عام ١٩٧٠ ، وقد تكرّست في هذا الفضاء نزعة كبيرة لتحصيل العلوم والمعارف ، وقد كان والدها هو معلمها الأول ، إذ رسم لها خطىً وخطوطاً عريضة ، عزّزها بقيم إنسانية تؤكّد أن الأهداف الكبيرة في الحياة التي يجب على المرء أن يسعى إليها هي المعرفة والتحصيل العلمي ، والأخلاق الكريمة التي تتأسس على التسامح وحب الناس ، وقضاء حوائجهم والوقوف في صفوف المظلومين والمستضعفين من بني البشر . وفيما بعد أتت والدتها لتعمل على ترسيخ هذه الخطى بثبات وقوة ، وعزيمة تبدو أقرب إلى الأسطورة ، وكان لهذه العزيمة – فيما بعد – الدور الأول في بنية ريم معرفياً وثقافياً وإنسانياً .

وفي هذا الفضاء تعودت أن تحصّن نفسها بالثقة والاعتزاز بالنفس ، والكبرياء النبيلة التي ترفض الإهانة من أي شخص كان ، فقد عمل والدها على تجنيبها " المهانة التي لا ينفكّ يردد علينا ضرورة عدم القبول بها مهما بلغ شأو الذي يمكن أن تصدر عنه تجاهنا " .

بصيرة الوصف :

ومن داخل هذا الفضاء تتراءى صور مدينة اللاذقية وطبقاتها الاجتماعية المتغايرة في ذاك الزمان ، ومن هذا الفضاء تعرج ريم على علاقات الناس وقيمهم وعاداتهم ، وأعرافهم الإنسانية والاجتماعية واصفةً أدقّ الأشياء في حياتهم وطباعهم ، فهم فقراء منخورون بفاجع قاتم ، وهم مؤمنون متديّنون ، وَرِعون تارة غارقون في البسملة والحوقلة في صومعاتهم ، يناجون الله سبحانه وتعالى علّه يمنحهم مساكن شاسعة في جنانه ، وأن يمدهم بالعزيمة على طاعته ، وهم سكارى ومعربدون تارة أخرى ، لا

يصحون من سكر إلا ليبدؤوا في سكر آخر ، لكنهم في غاية الأدب والتهذيب ، لا يؤذون طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً .

لقد شكّل هذا الزقاق في بنيته صوراً شتى لطبائع الناس ومعتقداتهم ، لأن الفئات والشرائح الاجتماعية التي تقطنه تنتمي مذهبيّاً إلى مذاهب عديدة وجنسيات متغايرة ، وطبقات اجتماعية متباينة في دخلها الاقتصادي ، ولم تنسَ ريم من خلال وصف هذا الفضاء ، أن تعرج على الخلفيات المعرفية لقاطني هذا الزقاق ونظرتهم إلى الحياة والمرأة ، فالمرأة في بعض بيوت هذا الزقاق ترفض رفضاً قاطعاً أن تجلس بحضور رجل غريب ، مهما كان نبيلاً وخلوقاً وطيب السمعة ، لأن الوعي الجمعي المكرّس تاريخياً لدى بعض قاطني هذا الزقاق ، لا يرى في المرأة إلا عورة ، وهذه العورة تكمن في أي نقطة من نقاط جسدها ، لأن جسد المرأة عورة " من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه " .

ومن الفضاءات المكانية في البصر والبصيرة ، والتي بدت بالنسبة لريم رمزاً للأمان ، ومصدراً للتعلّق ، فضاء منزلها في حي القلعة ، الذي تقول عنه : " لا يزال يرتاح في ذاكرتها شعلة مضيئة تحملها على الحلم بأن تَلِجه ثانيةً " . ولقد أعطاها فضاء هذا البيت مزيداً من الألفة والدفء الإنساني الذي بدا راسخاً قوياً في ذاكرة ، تشبّعتْ بمحبة الناس البسطاء والطيبين وخزّنَتْ صوراً متشعبة للناس والحياة ، كان لها فيما بعد أثر قوي في حياتها وأحاسيسها ومشاعرها من جهة ، وفي تشكيل لغتها الثرّة الإبداعية التي وصفت الفضاءات التي دخلتها وصفاً لا يستطيع كثير من المبصرين تشكيله ، من جهة أخرى .

فضاء المحبة :

ومن خلال فضاءات المنازل الكثيرة الكريمة التي ضمّت ريماً ، وأغدقت عليها المحبة والود الإنساني الكبير ، يَرِدُ في سيرتها الذاتية نسق طويل من الأسماء الكثيرة التي أضفت على روحها مزيداً من الأمان والطمأنينة والسلام ، ويأتي في طليعة هذه الأسماء والدها ووالدتها اللذان منحاها الأفق البعيد الجميل المضمخ بطيب الأحلام والرؤى المشرقة المشعّة التي ستدفعها شُجاعةً مقدامة ، وواثقة بنفسها ، لأن تكرِّس نفسها ببصيرتها الداخلية الرائية الكاشفة ، مستنفرةً طاقاتها جميعها ، لكي تتفوّق في

دراستها تفوّقاً بديعاً ومذهلاً ، أثار دهشة كل من عرفها ويعرفها ، فقد حصلت على الدرجة الثانية يوم كانت في السنة الثانية من التعليم الابتدائي ، وعلى الدرجة الأولى يوم كانت في السنة الثانية من التعليم الإعدادي " المتوسط " ، ولم تستطع أن تتمالك نفسها حين علمتْ بهذا الخبر السارّ الذي أثلج صدرها ، تقول واصفة حالتها : " فما كان مني إلا أن أخذتُ أتقلّب على الأرض من رأسي إلى قدميّ بين أهلي والأقارب والجيران مصحِبَةً ذلك بصخب أيقظ جدي لأبي الذي كان يقيم في بيتنا ... شاكرةً الله والحياة التي مهما طالت غيومها لابد أن تسكب يوماً أزهارها التي جاءت مواكبة لذلك المساء الربيعي الجميل " .

وتكبر ريم ، وتكبر ثقافتها معها ، وتدخل الجامعة ، وتصبح قضية التفوّق العلمي والتحصيل المعرفي هاجسها الأول ، وتتخرّج من الجامعة متفوقة حاصلة على المرتبة الأولى ، وذلك ليس على طلاب دفعتها فحسب ، وإنما على جميع الدفعات التي تتالت على قسم اللغة العربية في جامعة اللاذقيّة منذ نشأته حتى ذلك الحين ، أي حتى عام ١٩٨٣ .

وينمو جموحها وثّاباً توّاقاً لاكتساب المعرفة والنَّهل من مصادرها الغزيرة ، فتلتحق بشعبة الدراسات العليا ، وقد استنفرت طاقاتها لتحضير رسالة الماجستير ، منهمكةً انهماكاً شديداً في قراءات كثيرة متنوعة ، في الفكر والأدب والثقافة ، ولتدخل مرحلة البحث العلمي شُجاعةً واثقة بقراءاتها المتعددة ، وبقدرتها على الاستيعاب الواعي المنظم ، والفهم العميق لِما يُقرأ عليها من قِبَل قارئة جديدة غير أمها ، فقد آن الأوان لأن ترتاح هذه الأم المعطاءة من تعب القراءة الطويل الذي رافق ريماً منذ طفولتها حتى حصولها على الإجازة الجامعية الأولى . ثم سرعان ما تتخرج من الجامعة حاملة شهادة الدكتوراه بتقدير ممتاز ، وبدرجة مقدارها خمس وثمانون درجة .

ومن الأسماء المضيئة الكثيرة في حياتها : المعلمتان : سامية حدّاد ونهى إلياس اللتان قامتا بتدريسها في المرحلة الابتدائية ، فهاتان المعلمتان تجسّدان الصورة المثلى للمعلمة الكريمة التي تسكن شغاف القلب ، لتصل بمنزلتها إلى منزلة الأم الحقيقية ، إنهما النموذجان الجماليان المثاليان المحتفى بهما في سيرتها احتفاءً جماليّاً تبجيليّاً ، حيث اللطف والرقة والدماثة ، والروح الإنسانية الشفيفة والمثل

الرفيعة السامية ، والهيبة الواضحة والتواضع ، والتعامل الطيب الرائع والصوت العذب الرقيق . أما المرحومة الدكتورة سلوى الخير التي كانت أستاذتها في الجامعة، فقد كانت مثالاً نبيلاً ، وقد سجّلت موقفاً إنسانياً رائعاً حين تضامنت معها في قضيتها الكبرى ، يوم رفضت وزارة التعليم العالي تعيينها ، في الجامعة ، بحجة أنها كفيفة ، إذ دعت زملاءها الأساتذة إلى منزلها ليوجهوا رسالة إلى وزير التعليم العالي يطالبونه فيها بالموافقة على تعيينها . غير أن الوجه الأكثر قرباً إلى روحها وقلبها وعقلها ، هو وجه أختها رفيف التي تهديها مجموعتها الشعرية الأولى " العرّافة " قائلة: " إلى رفيف قارئتي الأولى – إلى رفيف شقيقةً وصديقة " .

وتجدر الإشارة إلى فضاء أليف آخر في حياتها ، وهو فضاء جمعية المعوقين ، التي أصبحت عضواً فيها ، هذا الفضاء الذي كان له تأثير واضح في حياتها ، إذ عمّقَ إنسانيتها ، واستنفر مشاعرها الإنسانية العميقة صوب المكفوفين ، الذين تسميهم إخوة لها ، وزاد في بعدها المعرفي والإنساني ، حيث " تعلمت في هذه الجمعية ما لم تتعلمه في بيت أو مدرسة أو جامعة " ، كما تذكر ، وزاد في رهافة مشاعرها الإنسانية ، وقدرتها على التأمّل والغوص في جوهر الأشياء ، فتشكّلت لديها تلك النظرة العميقة إلى الله والإنسان والكائنات والطبيعة والحياة والأشياء ، لتبثّ في أرجائها قوة الدفء الإنساني ، والضوء والأمان ، ولتتعلم ألا تخاف الموت، بل تطمئنُّ إليه ما دام الإنسان قادراً أن يكتب لنفسه الخلود بما يترك خلفه من ظلال مضيئة عطرة .

فضاء العزلة :

وإذا كانت هذه الفضاءات السابقة قد أضفت على روحها وقلبها مزيداً من الأمان والسلام والوعي المعرفي ، مستنفرة بذلك مشاعرها الإنسانية العميقة لتوظفها على من حولها ، ولتتعامل معهم تعاملاً وفيّاً أخلاقيّاً ؛ فإنه ينبغي ألا ننسى تلك الفضاءات الأخرى في سيرتها الذاتية التي عمّقت حسّها بالفاجع والقتامة ، ورسمت أخاديد عميقة من الحزن الدفين ، واليأس العميق ، الذي وسم خطاب لغتها وامتداداتها عبر رؤيته السرديّة ، ولعل من هذه الفضاءات ثانوية الكرمل الخاصة ، وهي أولى المدارس التي تلقّت تعليمها فيها ، فقد كانت هذه الثانوية فضاءً صامتاً كئيباً ترك في

نفسها كما تقول : " احتراقاً لا تزال آثاره قائمة إلى الآن " ، وغرس فيها بغضاً شديداً للمدرسة ، ولكل ما يمتُّ إليها بصلة ، مما جعلها تشفق على كل طفل يريد أن يبدأ حياته الدراسيّة ، غير أن هذا الفضاء الكابوسي كان مقدمة ضرورية لأن تنسج من خلاله خيوط سيرتها المثيرة ورحلتها مع الحزن والفرح والمعاناة الكبيرة ، والتحصيل المعرفي الذي تفوقت فيه تفوقاً غير عادي ، فمن الألم الكبير تولد أجمل الخطابات الإبداعية ، وهذه هي حال ريم ، فقد وجدت في قاطني هذا الفضاء نزعة تدميرية لإيذاء الآخر ، وفرض عزلة عليه ، فزملاؤها الطلبة يعاملونها بحساسية ، ويفرضون عليها شعوراً حادّاً بالعزلة ، تقول : " لقد عُدتُ إلى وحدتي المحزنة ، لأن أقراني ظلّوا يقْصرون علاقاتهم معي على التجاور المكاني دون أن يخطر ببال أي أحد منهم أي توجه يُشعِرني بوجودي " .

وبِلُغةٍ شفيفة يَسِمُ خطابها حزن صامت ، تسجل ذكريات الوحدة في هذه المدرسة، وافتقادها إلى صداقة حميمة تمنحها ظلاً آمناً ، تقول : " وحين لم تكن لي صديقة ولا صديق ، لم أجد من أجاور سوى ظلّي .. شعرتُ في بداية سيري خارج المدرسة بشيء من الهلع ، فقد كنت في نهاية الصف ، وكانت المعلمة في بدايته لتدل على مشاركتها التلاميذ في إهمالي وعدم الالتفات إليّ " . وقد أسهمت بعض معلمات هذه المدرسة ، إلى حد بعيد في تكريس عزلتها ، ونفورها من الدراسة ، لأنها لم تجد منهن إلا الإهمال ، مما جعلها ترفض المشاركة في أي نشاط ترفيهي تقوم به المدرسة ، وستحاصرها هذه المدرسة بحاجز من الخوف والغربة وفقدان الطمأنينة الروحية ، إلى أن تأتي المعلمتان سامية حداد ونهى إلياس لتكوّنا ياسميناً ونوراً في طريقها ، عندها تعيد انسجامها الجمالي والإنساني مع من يحيط بها .

فضاء الوباء ... وكفاح الحلم :

غير أنه يجب ألا ننسى أهم الفضاءات المكانية في سيرتها الذاتية : " البصر والبصيرة " وهو فضاء وزارة التعليم العالي الذي تصفه بمزيد من الجرأة والمرارة والألم، والشعور بيأس كالح هبط قوياً على ذاكرتها ، فغطى عبير النفس وأريجها ، وترك فيها جروحاً عميقة ، ستحتاج إلى وقت طويل حتى تندمل ، هذا الفضاء الذي يحتلّ مساحة سردية واسعة تمتد من الصفحة ١٦٩ حتى الصفحة ٢١٠ ، ولعل هذا

الفضاء هو الذي جعل من سيرتها عملاً مهماً ، استطعنا من خلاله أن نلمس مدى معاناتها وقلقها الإنساني ، ورؤيتها العميقة للحياة والكون ومدى ما يعانيه المعوقون من إهمال مؤسسات الدولة لهم ، وعدم النظر إلى قضيتهم برؤية إنسانية ونبيلة عادلة . فعلى الرغم من أن القانون السوري رقم ١٤٤ لعام ١٩٥٨ كان واضحاً في مادتيه السادسة عشرة والسابعة عشرة ، إذ حدد بشكل لا التباس فيه الوظائف التي يمكن للمكفوفين ممارستها ، ومنها : وظيفة إلقاء المحاضرات العلمية والثقافية في المؤسسات التربوية ، وفي المعاهد والجامعات ، إلا أن وزارة التعليم العالي رفضت تعينها معيدةً في الجامعة رفضاً قاطعاً ، غير أن المواطن عبد القادر هلال – والدها المسكون بالهم الفاجع على مصير ابنته – لم يستسلم لرفض الوزارة ، بل حرّك الرأي العام في سورية ، واستنفر هِمَم الرجال الشرفاء ودهشتهم ، واستنكارهم ، ورفع كتباً عديدة إلى المسؤولين طالباً إنصاف ابنته ، والعودة إلى تطبيق روح القانون ، متسائلاً في كتبه : " ألا يحق لي ، وأنا رئيس فرع الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش باللاذقية ، أن أتساءل مع ابنتي : هل يصح أن يُخرَق القانون في وجه ابنة من يُكلَّف بتلقّي شكاوى المواطنين من عدم تطبيق القوانين ؟ " . وظل والدها وجميع معارفها المهمين في الدولة ، من أيلول / سبتمبر ١٩٨٣ حتى العاشر من آب / أغسطس ١٩٨٥ ، وهم يخوضون حرباً غير متكافئة مع وزارة التعليم العالي ، إلى أن اضطر وزير التعليم العالي مكرهاً – وأمام غضب الناس واستنكارهم – وبعد أوامر صدرت له من القصر الجمهوري ، إلى إصدار قرار يقضي بقبولها معيدة في جامعة تشرين باللاذقية .

ليست الدكتورة ريم هلال شاعرة وباحثة وناقدة وكاتبة سيرة فحسب ، بل لقد منحها الله سبحانه وتعالى مواهب أخرى عديدة ، ومنها موهبة الصوت الجميل الذي غنّى أغنيات عديدة متميزة بثتها الإذاعة السورية ، ثم غنتها من على مسارح اللاذقية ، ومركزها الثقافي ، وألهبت مشاعر الناس بصفائها وحميميتها ، ولم يمنعها فقدان البصر من أن تنجز كثيراً من الأعمال المنزلية التي قد لا تستطيع إنجازها السيدات تامات البصر ، فقد كانت ترسم المناظر الطبيعية بجميع تشكيلاتها ، وكانت تنسج الصوف ، وتتقن أعمال التطريز ، والضرب على الآلة الكاتبة ، وتعزف بمهارة على

البيانو . ولم تمنع ممارستها لهذه الهوايات المتعددة من تفوقها العلمي والمعرفي ، بل كانت جزءاً من هذا التفوق ، ودعامة من دعائمه ، ولا نغالي إذا قلنا إن تجربتها في التعليم والكتابة والثقافة تُعدُّ تجربة عربية متميزة ، وهي من التجارب القليلة في بُعدها الإنساني وأفقها الرحب ورحلتها الطويلة مع الآمال الطموحة والأحلام التي لا تهدأ صاريتها ، والآلام الكبيرة التي تفرد أشرعتها معبرةً عن قساوة عالم قاتم أسود ، بقوانينه التي لا تعرف الرحمة . وعلى الرغم من كل هذه الآلام ، فإن ثمة نوراً يشعّ دائماً في أفق هذه الكاتبة متضامناً مع المهمشين " بفتح الميم " والشرفاء والبسطاء ، داعياً جميع الناس إلى أن يستنفروا شرطهم الإنساني الكامل في أعماقهم ، ومن لم يثبت قدرته على استنفار هذا الشرط فهو يظل صغيراً ، مهما كان عالياً في مرتبته ووضعه الوظيفي ، حتى ولو كان طبيباً أو عميد كلية أو وزيراً ، ومن خلال هذا النور تُبدع ريم وتكتب وتغني هازئة بكل ما هو غير إنساني ولا نبيل .

إن هذه السيرة الذاتية " البصر والبصيرة " يمكن أن تشكل رواية طويلة مهمة إذا ما أجري عليها بعض التقنيات الروائية في السرد والحوار والفضاء المكاني والزماني ، وبعض التقنيات الروائية الأخرى ، وهي تثير أمام المجتمع وأنظمة الحكومات مجموعة من الأسئلة الحسّاسة والمهمة التي تتعلق بحياة المعوقين وهمومهم ، ومدى معاناتهم ، ونظرة المجتمع لهم ، وحرمانهم من حقوقهم التي أعطاها القانون لهم ، وهي تؤكد أن المعوقين يمكن أن يكونوا مبدعين وفاعلين حقيقيين في حياة المجتمع ، مثلهم مثل الأسوياء ، بل ربما يفوقون كثيراً من الأسوياء في العطاء والخبرات ، والتحصيل العلمي والمعرفي ، ويمكن أن يسهموا إسهاماً كبيراً في تطوير المجتمع ونموه وخدمته، والدفع به قُدماً نحو آفاق الحضارة والمعرفة والتقدم العلمي .

نساء متميّزات

الدكتورة ريم هلال .. توهُّج بصيرة في مواجهة انطفاء البصر

أجرت الحوار رندة حيدر

نُشِرَ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٥٦٥٤ ، تاريخ ٢٣/١٠/٢٠٠٣

الدكتورة ريم هلال الحائزة شهادة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة اللاذقيّة بدرجة امتياز ، نلتقيها اليوم عبر ركن " نساء متميّزات " ، وهي التي تغلّبت على انطفاء بصرها بتوهّج بصيرتها ، فحوّلت الظلام إلى نور بالإرادة والحب والعمل . التقيناها نأخذ منها دروساً في مواجهة ظروف صعبة ، ودروساً تؤكد انتصار التصميم والإرادة . التقيناها نستطلع رأيها الهام في شؤون مجتمعية :

– في مسيرة حياتكِ ودراستكِ كيف وجدتِ تعامل المجتمع معكِ في ضوء ظرفكِ ؟ وكيف كان تقبّله لكِ كامرأة أولاً ؟

لا شك أن مجتمعنا العربي ينطوي على مثلَبَة كبيرة ، تتحدد في تمييزه الواضح ما بين الذكر والأنثى ، ذلك منذ لحظة ولادتهما التي تتهلل فيها الوجوه للذكر ، وتظل مسودّة وهي كظيمة للأنثى ، إخلاصاً للموروث الجاهلي الذي لا ينبغي تجاوزه فيما يبدو ، بالرغم مما طرأ – فيما بعد – من انفتاحات وتغيرات . ثم يمتد هذا التمييز إلى المرحلة التربوية التي تُمنَح فيها غالباً الامتيازات المادية والمعنوية للذكر ، وتُلقى فيها كل مسؤولية على كاهل الأنثى . وهكذا حتى الوصول إلى مرحلة النضج التي نسمع فيها أبناء مجتمعنا يرددون مراراً عباراتهم المنطوية على عدم الثقة بطبيبةٍ امرأة، أو بمحاميةٍ امرأة ، أو بقائدةٍ امرأة ، فقط لمجرد كونها امرأة . هذا بالنسبة إلى وضع المرأة على الصعيد العام ، أما بالنسبة إليّ شخصيّاً ، فلا أخفي أنني لم أشهد مثل هذه المعاناة ، بدءاً من أسرتي التي حال مستواها الثقافي دون اتخاذها مثل هذا السلوك ما بيننا نحن الفتيات الثلاث والذكر الوحيد ، باستثناء لحظات ولادتنا مؤكَّداً، وانتهاءً بمجتمعي الذي أراه يتجه تلقائياً إلى إظهار غير قليل من التقدير لتجربتي ، ولِما حققتُ ، ومن الثقة بإمكاناتي وقدراتي ، ولا سيما بعد حصولي على درجة الدكتوراه . الأمر الذي يعني – من جانب مقابل – أنه لا يكفي أن نعيد تأخّر مرتبة

المرأة إلى مجتمعها فحسب ، إنما كذلك إليها هي التي يُفتَرَض أن تسعى وتسعى إلى تطوير نفسها ، وتحقيق حضورها بكل ما أوتيتْ من طاقات لا تختلف عن طاقات الرجل كمّاً ونوعاً ، ثم تدع بعد ذلك لمَن حولَها مسؤولية الموقف السلبي أو الإيجابي الذي يمكن أن يُتخَذ حيالها .

- ماذا عن تقبّل المجتمع لكِ كفيفةً ؟

في طفولتي ... حين كانت العاهة هي المتغلّبة عليّ ، توزَّعَ تعامل الناس معي ما بين المواقف الإيجابية التي ابتدأت من القلق عليّ ، مروراً بالتخطيط لِما يمكن فعله من أجلي ، وانتهاءً بالمحاولات العملية لإعانتي على تجاوز ما أنا فيه .. والمواقف السلبية التي تنوّعت ما بين القسوة والإهمال والتطفّل ، وعدم التأخّر عن إطلاق ألفاظ وعبارات التعيير ، التي أراها ربما انطلقت من السلبية إزاء العاهة ذاتها وصولاً إلى صاحبتها . أما في الوقت الحاضر الذي انتصرتُ فيه على عاهتي ، ولا سيما بعد حصولي على درجة الدكتوراه ؛ فقد تراجعت المواقف السلبية خجولةً ، وتم الاقتصار غالباً على المواقف الإيجابية التي أراها اتجهت نحو إظهار الدهشة والذهول إزاء ما وصلتُ إليه ، والتقدير اللامتناهي لتجربتي ، وتعبير الكثيرين عن تمنيهم لو أنهم كانوا بجانبي منذ بدايات دربي ، بغية ردهم عني الأمواج العاتية التي حاولتْ اقتحامي وإلحاق الهزيمة بي . وهكذا أنتهي إلى أن المواقف حيالي تفاوتت عبر مرحلتَي تجربتي تفاوت المواقف التي نشهدها إزاء كل من الضعيف والقوي في هذه الحياة .

- ماذا عن تقبُّل المجتمع لكِ أستاذةً جامعيّة ؟

إنه مثلما يتم التفريق ما بين الناس بناءً على فقرهم وثرائهم الماديين ، كذلك يتم التفريق ما بينهم بناءً على فقرهم وثرائهم المعنويين المتمثلين في المراتب العلمية المتدرّجة التي قد يستحوذون عليها ، لذا يمكن أن نتصور أي توقير يَحظى به من يحوز المرتبة العلمية التي تفوقُ سواها علوّاً " درجة الدكتوراه " ، وأي حلم تشكلُ هذه حتى بالنسبة للأثرياء الذين تبيّن لي كم يتوقون إليها مقابل أي قدر من ثروتهم ، وعلى هذا يمكن تصوّر ما حدث من حولي لدى حصولي عليها أنا شخصياً بالرغم من عاهتي . علماً أنني على الصعيد الشخصي لا أمتلك مثل هذه النظرة التي

تنطوي على هذا القدر من الرفعة إزاء المرتبة العلمية ، إذ لا أقيم لها وزناً يقاس إلى وزن المستوى الثقافي الذي قد يحصّله الفرد ، والذي ليس ضرورياً أن يتواكب دائماً مع هذه المرتبة ، إذ كم يرتقي في أحيان كثيرة بالرغم من عدم وجودها ، وكم يتدنى في أحيان أخرى بالرغم من وجودها . ولكي أقدّم موقفاً وسطاً بهذا الصدد ، أنتهي إلى القول : ما أحسن وما أجمل أن تكون مستوياتنا الثقافية وأضيف إليها الأخلاقية قَطْعاً ، على قدر الشهادات العلمية التي نحملها .

– ماذا يمكن أن تقدم الأسرة للكفيف ؟

إن أوضح ما نلاحظه بشأن تعامل الأسرة العربية مع الكفيف أو المعوق بعامةٍ ، هو أحد أمرين سلبيين : فإما إهمالها له ونبذه ، بناءً على إعاقته ، معبّرةً عن يأسها منه ، وإما الإسراف في تدليله إلى درجة إفساده وإشعاره بأنه يجوز له ما لا يجوز لإخوته المبصرين . وتجاوزاً لهذين الأمرين اللذين أعود إلى نعتهما بالسلبية بالرغم من تناقضهما ، فإنني أقترح الخطة السلوكية التي اتبعَتْها معي أسرتي ، وخرّجتني منها إلى المجتمع وفق الصورة الصحية اللائقة . فهي أولاً لم تُشعرني يوماً لا من خلال القول ولا من خلال الفعل بأنه ينقصني أي أمر ، ذلك إلى درجة جعلي أنسى ما أنا فيه ، ولا أتذكره إلا مابين حين وحين متباعدين ، ربما إيماناً منها بأن النقص موجود لدى كل إنسان لا محالة ، وأنه لا فارق ما بين المعوق والسليم إلا من حيث ظهور نقص الأول للعيان ، وتخفّي نقص الثاني في الأعماق . إن أسرتي نشّأتني كما نشّأتْ إخوتي ، وعلّمتني كما علّمتهم ، وكلّفتني في أحيان كثيرة كما كلّفتْهم مستفيدةً من حواسي وطاقاتي الأخرى التي تبيّنَ لها أنها يمكن أن تحلّ محلّ الحاسة المفقودة . أما بشأن الرعاية والعناية الخاصتين اللتين كان لابد من أن أحتاجهما ، فقد قدّمتْ لي منهما الكثير ، ولم تبخل عليّ بأي قدر يسير منهما ، لكن فقط حين كنتُ أحتاجهما بصورة فعلية ، ولا أستطيع التحرك من دونهما أو التعويض عنهما بما أمتلك .

– ما الذي يتعيّن على المجتمع – متمثلاً بالدولة – فعله من أجل الكفيف ؟

حين تتم المقارنة مابين المجتمع الشرقي والمجتمع الغربي ، فإن أول ما نتصوره هو الفارق المتحدد في امتلاك الأول طابعه الإنساني الشفاف الذي من شأنه أن

يخلق التعاطف ما بين البشر ، وامتلاك الآخر طابعه الآلي الصناعي الذي لم يَعُدْ يفسح المجال لحضور ذلك الإنساني . هذا ما يظهر لنا للوهلة الأولى ، أما بشأن التعامل مع المعوقين ، فما نلاحظه هو النقيض تماماً ، ذلك حين تُنظم الدول الشرقية حياتها بكل مجالاتها وفروعها وجزئياتها بصورة قائمة على التغافل عن وجودهم تماماً إلى درجة نسيانهم ، والظن كل الظن أنه لا يوجد فيها سوى السليمين. وحين تُنظم الدول الغربية حياتها بالمقابل بكل مجالاتها وفروعها وجزئياتها بصورة قائمة على تذكّرهم الدائم ، والظن كل الظن أنه لا يوجد سواهم فيها . وعلى هذا الأساس ، فبماذا يمكن أن نطالب دولتنا أو الدول الشرقية بعامةٍ بشأن هذه الفئة المذكورة ؟ أليس بالاقتداء بالدول الغربية ؟ والأخذ بخطتها الكاملة التي أعدّتها بهذا الصدد ؟ بدءاً من تجهيز الطرقات ومداخل الأبنية والمرافق العامة ، مروراً بالمؤسسات الاجتماعية التي تقدّم – كما لو أنها أسر لهؤلاء المعوقين – ما يحتاجونه من الرعاية في حياتهم الخاصة ، وانتهاءً بضمان عيشهم ، إما بتأمين رواتب لمن لا يستطيعون العمل منهم ، وإما بتأمين العمل لمن يستطيعونه . أليس من حق المعوق في بلدنا أن يعمل ؟ أو أن يُطبَّق النص القانوني الذي أنشئ لصالحه ؟ ليحقق حضوره ويؤمّن لنفسه النقود التي يحتاجها أكثر من سواه بغية الاستطاعة بغيره بصورة مأجورة ؟ نعم هذا هو ، لكن ما يحدث هنا للأسف هو النقيض ، إنه استبعاد المعوق من هذا المجال بذريعة أنه لا يستطيع أن يقوم بما يقوم به السليم . علماً أنه ينبغي أن نعود لنذكّر بما يمتلك المعوق هذا من طاقات أخرى تعويضية ، كما نعود لنذكّر متسائلين ما إذا كان السليم في بلدنا يؤدي دائماً واجبه الوظيفي بصورة كاملة ؟

مهرجان الخريف للأدباء الشباب في يومه الأول

هدى سلوم ، رنا عمران

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد٥٦٩٢ ، تاريخ ٢٠٠٣/١٢/١١

أقام الاتحاد الوطني للطلبة – فرع جامعة تشرين ، مهرجان الخريف للأدباء الشباب ، حيث افتتحت المهرجان ضيفة الشرف الدكتورة الشاعرة ريم هلال ببعض الإرشادات للأدباء الشباب قائلةً : أنتهز هذه الفرصة الثمينة لكي أزفكم بعض النصائح أو المبادىء التي تمكنتُ من استخلاصها عبر تجربتي الأدبية ، فلعلي بذلك أختصر عليكم بعض الخطوات مثل :

– ضرورة توسيع الأديب الشاب لثقافته ومعرفته ، فالموهبة الأدبية كالبذرة التي إن شكّلت الحياة الأدبية ، فهي تحتاج إلى الكثير من الظروف الملائمة لإزهارها وإثمارها .

– توسيع التجربة : إن التجربة الذاتية التي يكتب من خلالها الأديب مهمة جداً في التعبير الأدبي والإبداع ، لكنها غير كافية ، إذ لا بد له أن ينفتح على الحياة والأحداث والنماذج البشرية ، ويتأمل في الطبيعة والكون ، لأن التجارب المتنوعة تشكل عناصر أساسية تسهم في إغناء النص .

– عدم التسرع في النشر : إن ما يُقدَّم في بداية الطريق الأدبية ، لا يشكل إبداعاً حقيقياً بقدر ما يشكل تدريبات على الإبداع ، وليس من شأننا أن نُري الآخرين ذلك، وأنا أحدّثكم بهذا الصدد من تجربتي الشخصية ، إذ لم أبدأ بنشر أعمالي إلا بعد عشر سنوات من التجريب في الكتابة .

ثم قرأتْ الدكتورة بعض قصائدها ، ومنها نقتطف :

منذ عشرين عاماً

جمعتُ كلَّ حقائبي

وغادرتُ بيتيَ القديم

إلا طفولتي

نسيتُها نائمةً على سلالمه .

*

أنا لا أستطيع أن أغيّرَ العالم

ولا أن أُنزِلَ الجنانَ إلى الأرض

لكنني أستطيع

أن أزرع وردة .

د. ريم هلال ورحلتها مع الحياة والأدب

حوار أجرته معها : ربى صقر

نُشِرَ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٥٧٧٣ ، تاريخ ٢٠٠٤/٣/٣١

نشأتْ مكفوفةً ، لا تملك من القدرة البصرية سوى التمييز الضئيل بين الظلمة والنور ، وتبيُّن الأطياف . وبدلاً من أن يشكّل هذا عاملاً لاستسلامها ويأسها وانكفائها على ذاتها ، كان عاملاً محفزاً لانطلاقها عبر دروب العلم والحياة ، إلى أن تمكنتْ من التفوق في دراستها ، والحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها ، واعتلاء المنبر الجامعي أستاذةً في كلية الآداب – قسم اللغة العربية . إنها الدكتورة ريم هلال التي التقيناها ، وكان معها الحوار الآتي :

– ما كان تأثير الضرر الذي أصاب حاسة البصر على الحالة الإبداعية والموهبة ؟

إن فقداني حاسة البصر كان له الدور الأول والمركزي الذي أسهم في توقّد موهبتي الأدبية ، ليأتي بعده دور الثقافة والمعرفة اللتين أسهمتا في إنمائها وإغنائها.. ودليلي على ذلك هو أنني من خلال علاقتي مع إعاقتي ، وعملي على تجاوزها ، واستخلاصي الحكمة الحياتية منها قد أبدعتُ شطراً من سطوري . أما الشطر الآخر، فقد أبدعتُه من خلال انطلاقي من إعاقتي هذه ، وما شكّلتْ لديّ من تجربة خاصة ، وما حفزَتْ في داخلي من مشاعر وأحاسيس تجاه ذاتي إلى تجارب الآخرين ، متعمقةً في أبعادها التي ربما تلاقت وأبعادي ، شاعرةً بتفاصيلها المؤلمة والمفرحة التي ربما تلاقت وآلامي وأفراحي .

– كيف يمكن للبصيرة أن تتغلّب على البصر عند ريم هلال ؟

إنني مذ قرأتُ حول اكتشاف " أدلر" مبدأ التعويض عن مركّب النقص ؛ أحسستُ وكأنه يعنيني به تحديداً ، بالرغم من امتداد المسافة الزمنية التي تفصل فيما بيننا ، ذلك لأنني ما إن أُطفِئَ قنديلا عينيّ منذ الولادة ؛ حتى توقّدتْ فيَّ شمسٌ أصبحتُ شيئاً فشيئاً أرى من خلالها كل شيء ، أرى الأعماق التي ربما لا يتبصر بها الكثيرون ، أرى السطوح الخارجية التي سرعان ما تنتقل إليّ بأشكالها وألوانها من خلال عيون الآخرين . إنها شمسٌ بدأتْ معي طفلةً ، وأخذت تكبر وإياي يوماً بعد يوم ، إلى أن أنارت داخلي كله ، أنارت زماني وحياتي ، وكم أتوق إلى أن تمتد في الغد إلى الآخرين القريبين مني والبعيدين . لذلك فإنني الآن ربما أستطيع أن أعلن بيسرٍ، من خلال أنوار شمسي أعلن أنني لم أعد مكفوفة .

- لنتحدث عن مشوارك التعليمي وصولاً إلى درجة الدكتوراه ، والصعوبات التي واجهتك ؟

لقد كان مشواراً طويلاً وشاقاً ، لا أدري ما إذا كان بالإمكان تكثيفه في بضعة سطور ، لكن أحاول أن أختصر قائلةً : إنه بدأ بما انتابنا من تساؤل وحيرة وقلق حول كيفية دراستي في مدرسة للمبصرين ؟ ما دامت لا توجد في اللاذقية حتى الآن مدرسة خاصة بالمكفوفين ، وما دام من غير الممكن لأهلي العطوفين المحبين أن يُلحِقوني بمدرسة خارج مدينتي ، ويُخضِعوني منذ تلك السن الصغيرةِ لتجربة الاغتراب . ثم استمرت الصعوبات حين تم التصميم على إلحاقي بإحدى مدارس المبصرين ، نظراً لما كان يعني هذا من ضرورة الاستفادة قدر الإمكان من بقايا بصري ، بغية التمييز المتعذر ما بين الحروف ، وما بين الكلمات ، وتعلمها قراءةً وكتابةً . وبصورة متوازية مع ما سبق ذكره ؛ وُجِدَتْ في ذلك المكان الصعوبات الاجتماعية التي كان من الممكن - فيما لو لم تظهر- أن تذلل لي الكثير من تلك الصعوبات التعليمية . إنها ظهرت من أقراني الذين عبّروا عن اندهاشهم من حالتي الخاصة غير المألوفة لديهم من خلال إلحاقهم بي ما تنوّع من صور الإيذاء التي كانت تحملني على الانكفاء على ذاتي ، والبقاء وحيدةً خلال دوامي الطويل هناك ، وكذلك ظهرتْ من المعلمات أنفسهن اللائي صرفَتْهن مشاغلهن الحياتية والاهتمامات بالتلاميذ الآخرين عن إيلائي أي قدر من الرعاية الخاصة . لكن بالرغم من ذلك

كله، استطعتُ وأسرتي تجاوز كل ما اعترضَنا ، بل تحقيق تفوقي على أقراني بعد ما كان الحلم مقتصراً على التمكن من مواكبتهم ، ذلك بتصميمي أنا على مواصلة الطريق وعدم العودة إلى البيت ، وتصميم أمي على تعليمي بنفسها مستعينةً بما أمكن من الوسائل التوضيحية والمكبّرة للحروف ، وتصميم والدي على تثقيفي ما أمكن ، وتزويد ذهني دائماً بما يمتلك من المعلومات الكثيرة حين كان يتيح له دوامه الوظيفي المديد من تفرّغ لي .

- ماذا تعني الكتابة بشكل عام لك ؟

إن الكتابة تعني في خطوة أولى التعبير عما يختلج في عقل الكاتب ونفسه من قضايا وفِكَر ومشاعر . وفي خطوة ثانية النطق بما يختلج في عقول ونفوس الآخرين الذين ربما كانوا يبتغون في الأصل الإفصاح عن الأمور المذكورة ذاتها ، لكنهم لا يمتلكون الوسائل التعبيرية المرنة التي تمكنهم من ذلك . وفي النهاية ، إن الكتابة تعني إحياء صاحبها عبر الأزمنة والأمكنة من أجل منحه الخلود المنشود بصورة معنوية ، ما دام لم يتمكن من تأمينه بصورة مادية ، وكذلك من أجل أن يكون بنفسه وعقله هذين وبما أبدعا من سطور إلى جانب البشر ، كل البشر الذين لا بد من أن يحتاجوا إلى وجوده المضيء في يوم من الأيام ، أو بقعة من البقاع .

- للمجتمع المحيط أثره في النفس المبدعة ، فهل أثَّرَ في نفسكِ سلباً أم إيجاباً ؟

بل إنه خلّفَ في أدبي التأثيرين الاثنين معاً ، السلبي والإيجابي ، بفعل انطوائه في الآن ذاته على الصور القاتمة غير المُرضية ، والصور الناصعة النقية ، أو بالأحرى بفعل تشكيله ظلاً من ظلال الحياة التي تنطوي دائماً على جانبيها المتناقضين . لذلك فإنني كتبتُ في يوم حول براءة إحدى طالباتي التي أخذتْ تُدفِق عليَّ الورود إما من حديقتها ، أو من جنينة زرعتُها أنا في روحها . وكتبتُ في يوم آخر حول طفل يعيش وحيداً في إحدى الحدائق العامة وسط عواصف الزمان . صورتان متباعدتان كل التباعد ، متباعدتان إلى حد التنافر ، لكنهما في مجتمعنا وفي كل مجتمع موجودتان .

- يقال إن الشعر يبحث اليوم عن هوية ، فهل هذا صحيح ؟

لقد كان الشعر العربي القديم يشكل ديوان العرب ، بفعل تمكنه من استقطاب ما أمكن من صور الحياة العربية على اختلاف جوانبها ، ذلك ضمن صياغة فنية لم يُتقصَّد وضعها ، قدرَ ما تولدتْ بصورة تلقائية عروضاً وصوراً وأسلوباً مما أملَتْ تجربة الشاعر العربي الشعورية والحياتية ذاتها . أما في العصر الحديث ، فقد أصبح الأمر مختلفاً تماماً ، ذلك لأن شعراءنا الذين دخلوا ما سُمِّيَ تجربة الحداثة ، لم يخرجوا منها إلى الآن وبرغم مرور ستة عقود ، بما هو ناضج ومتبلور ، ربما لانشغالهم بالحداثة الفنية إلى حد الحيرة والضياع في بحارها الشاسعة العاتية ، أو بالأحرى إلى حد الانصراف عن التعبير الذي يُفترَض أن يكون تلقائياً بسيطاً عما أصبح يتوقد في داخلهم وداخل حياتهم . لذلك فإننا ربما بناءً على غياب هذه الرؤيا الشعرية الواضحة الشفافة ، نستطيع أن نفسر جنوح شعرنا العربي الحديث إلى الغموض والتعقيد والإلغاز ، وبُعده – من ثم – عن المتلقي الذي إن كان لا يزال متعلقاً بهذا الجنس الأدبي ، فإنه لم يعد قادراً على استيعاب طلاسمه ، بالرغم من وصوله أحياناً إلى درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها . وهكذا أنتهي إلى القول: ليتكَ تبحث أيها الشاعر العربي الحديث عن الهوية الشعرية العربية الحديثة من أقصر السبل ، من التعبير العفوي عن تجربتك الخاصة والعامة ، وفق صياغة فنية ستكتسب مرونتها ، إذا حاولتَ أنتَ منحها العفوية الكافية .

– ما الذي يمكن أن يعيق أدب المرأة في مجتمعنا ؟

إن من الأمور الواضحة التي تُلاحَظ في مجتمعنا ، هو التباين الحضاري ما بين بيئاته الاجتماعية الراقية والمتخلفة ، لذلك لنا أن نتصور الوضع المحزن للمرأة في هذه البيئة الأخيرة المذكورة ، نظراً لما يُفرَض عليها من تضييق شامل يضم حياتها وفكرها ومشاعرها ، وصولاً إلى أدبها فيما إذا توافرت لديها هذه الموهبة ، ليس من حيث تعبيرها الكتابي الذي قد يتفجر من أعماقها أحياناً بفعل التضييق ذاته ، إنما من حيث ما يُفرَض على هذا التعبير أيضاً من حصار يحول دون انتشاره بين القراء، وقبل ذلك دون إنمائه بالثقافة والمعرفة اللتين تُحظَران على المرأة هناك ، بدءاً من إبقائها في البيت ، ومنعها من الذهاب إلى المدرسة والجامعة والمكتبات . كما لا ينبغي التغافل عن الدور الذي يتخذه زواج المرأة في إعاقة إبداعها ، نظراً لما تُلقى

عليها من مسؤولية شاملة إزاء أدق التفاصيل المرتبطة ببيتها ، إضافة إلى عملها الخارجي الذي أصبحتْ غالباً منخرطة فيه ، بغية إعانة زوجها في تأمين الحياة اليومية .. لذلك فكم من المواهب النسائية قد أُطفئَتْ ما إن دخلتْ صاحباتها الحياة الزوجية ، واضطررن ضمنها إلى الانصراف عن كثير من شؤونهن الشخصية .. لذلك أنتهز هذه المناسبة ، لدعوة المجتمع إلى تأمين ما أمكن من وسائل الراحة البيتية التي قد تختصر على المرأة الكثير من الوقت والجهد اللذين يلزمانها لتحقيق ذاتها .

– الأدب ، هل انهار أمام معطيات العصر الحديثة ؟

لا أعتقد هذا بدرجة كبيرة ، لأن الإنسان مهما وصل إلى درجة من التقدم العلمي والتكنولوجي ؛ لا يمكنه أن يتخلى مطلقاً عن أحاسيسه ومشاعره التي تشكّل الينبوع الأساسي للإبداع .. بل ربما يقتصر الأمر لديه في هذه الحال على ضبطها والحد من آفاقها التي تبدو لا نهائية لدى الإنسان الفطري . ولعل الدليل الأوضح على بقاء الأدب وعدم انحسار أهميته في العصر الحديث ؛ هو تحويل الغربيين قراءة الشعر – كما علمتُ منذ أعوام – إلى وسيلة للعلاج النفسي . هذا فيما يتعلق بالإجابة عن التأثير السلبي للتقدم الحضاري في الأدب ، أما فيما يتعلق بالتأثير الإيجابي ، فلا ينبغي أن ننسى ما لهذا التقدم من دور في انتشار الكلمة الأدبية في ثوانٍ معدودة عبر الأرض ، أو بالأحرى فيما يشكّل ما هو أكبر من الحلم لدى الكتّاب الذين لم يُتِح لهم زمنهم شهود ما يتجدد ويتطور الآن .

– في إطار تعدد الأنماط الشعرية ، أين تجدين نفسك في القصيدة العمودية أم قصيدة التفعيلة ؟

بل إنني أجد نفسي في قصيدة النثر ، التي منحتني بتحررها من الأوزان والقوافي والتفعيلات ما يكفي من الحرية ، للتعبير عن الرؤيا التي أصبحتْ أكثر اتساعاً وتنوعاً وتلوناً في هذا العصر الحديث ، متجاوزةً بذلك القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة اللتين لم تشكلا في نشوئهما حينذاك ، سوى انعكاس للحياة التي بدت أكثر محدودية ، واللتين لم تعودا قادرتين بأبعادهما الضيقة على استيعاب آفاقنا وآفاق عصرنا .

– أين هي المرأة المبدعة في عالم الإبداع اليوم ؟

لا شك أن المرأة استطاعت أن تثبت ذاتها في مجال الأدب ، ليس في عصرنا الحديث فحسب ، إنما عبر العصور مجتمعة بدءاً من الجاهلية . لكن ما آخذه عليها، هو انطلاقها غالباً في إبداعاتها من الذات الأنثوية ، التي لابد من أن تبقى محدودة بقضاياها الخاصة بها ، وإغفالها بالمقابل الذات الإنسانية التي كان من المفترض أن تشكل منطلقاً لتأملاتها في قضايا الإنسان بعامةٍ والحياة والكون .

– مشوارك الشعري إلى أين وصل ؟

بالرغم من اعتقادي أنني أكتبُ الشعر الواضح الذي يشفُّ عما يكمن خلفه من تعبيرات ، فقد وُجِدَ من لم يتمكنوا من استيعابه ، ومن لم يوصلهم مستواهم الثقافي غير الكافي إلى رموزه التي غدت بديهية بالنسبة إليّ وإلى الكثيرين الذين هم على تماسّ مع عالم الأدب . لذلك اتجهتُ في الأعوام الأخيرة إلى إبداع نصوص جديدة، هي مزيج من النثرية التي من شأنها أن تُوصِل بيسرٍ ما أريد التعبير عنه إلى مختلف شرائح الناس ، ومن الشعرية التي أودّ الاحتفاظ بها ، بفعل استمراري واستمرار الكثيرين في التعلق بجمالياتها .

جاء في حوار أجرته لمى يوسف مع الروائي حنا مينه ما يلي :
نُشِرَ في " الكفاح العربي " – بيروت ، تاريخ ٢٠٠٤/٥/١٧

– طرحتْ الإعلامية المعروفة ديانا جبور عليكَ سؤالاً يتعلق بقصيدة النثر .. فكان ردّكَ قاسياً بشأن هذه القصيدة .. فما هو السبب ؟! وقد سبق لكَ أن قدّمتَ مقدّمة تقريظية تربو على ثلاثين صفحة لديوان قوامه قصيدة النثر .. ألا ينطوي الأمر على مفارقة ؟

قصيدة النثر من أصعب القصائد ، ولا يجيدها إلا القلائل من الشعراء ، إلا أن الناس حسبوا أن رصف كلمات ترابية بائسة ، وصور مشوهة ، يمكن أن تكوّن قصيدة نثر ، لذلك تكاثروا حول هذه القصيدة حتى بلغ عدد دواوين قصيدة النثر في سوريا وحدها أربعة آلاف ديوان في العام ٢٠٠١ ، وهذا ما جعل قصيدة النثر مجال

تجربة لكل جاهل وجاهلة من الكتّاب ، وصارت مَهزلة ومَضحكة معروفتين من النقاد الجيدين في الوطن العربي ... أما المقدّمة التي كتبتُها للشاعرة ريم هلال ، فإنها مقدّمة موضوعية منصفة ومتوازنة ، لأن ريم هلال في دواوينها اللاحقة قد أثبتت وهي كفيفة البصر أنها شاعرة أصيلة ورائعة أيضاً .

مداخلة للدكتورة ريم هلال حول سؤال طرحته الإعلاميّة ربى الحايك بشأن دخول الأديب مجالات الإبداع كافّةً

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٥٨٨٢ ، تاريخ ٢٠٠٤/٩/١

إن دخول الأديب ما تعدَّدَ من الأجناس الأدبية ، ربما يكون منطوياً في هدفه على أحد احتمالين :

فضمن احتمال أول : ربما يهدف إلى مجرد إثبات مقدرته على التنقُّل عبر هذه الأجناس على امتداد حياته ، أياً كانت ، مهما بدت متباعدة مابين القصيدة والقصة والخاطرة والمسرحية ، وإلى توكيد تمكّنه من الإبداع في كلٍّ منها دون استثناء بنِسَب متساوية . وضمن احتمال آخر : ربما يهدف إلى مجرد التجريب ، أو محاولة تبيُّنِه عند أيٍّ من هذه الأجناس يمكنه الاستقرار نهايةً ؟ أو إيجاد ذاته ، وإثبات إبداعه ؟ وانطلاقاً من هذا الهدف قد يتحقق الإغناء لأدب الأديب وتقويته ، لأن الأديب هذا لا يكون قد ثبت عند الجنس الذي اختاره إلا بعد أن يكون قد ألمَّ بأسسه وآفاقه ، ومتحَ من الأجناس الأخرى التي من شأنها أن ترفده . هذا مقابل ما يُفترَض بالأديب ضمن الاحتمال الأول من أن يكون قد حقَّقَ من إفقار لأدبه حين سيبدو موزِّعاً إمكاناته الإبداعية ما بين الأجناس مجتمعةً ، بدلاً من تركيزها في جنس واحد بمفرده. أما إذا ما تطرقتُ لتجربتي الأدبية الشخصية ، فإنها حين قامت – هي الأخرى – على مثل هذا التنقُّل ، ذلك من الشعر إلى السيرة الذاتية إلى الخاطرة النثرية ؛ فربما كان هدفي النهائي من خلالها ابتكار ذلك النص المهجَّن الذي يمكن أن يجمع شتات ما تعدَّد من الأجناس ، لكنني لن أدلي مؤكَّداً بما سيكون لهذا من دور إيجابي أو سلبي في أدبي تاركةً ذلك للقراء .

جاء في حوار أجرته كريمة ناوي الإبراهيمي مع الروائي

فاضل السباعي ما يلي :

نُشِرَ في مجلة بانوراما – دمشق ، عدد ٢ ، تاريخ حزيران /٢٠٠٥

– ما تقييمكَ للرواية النسوية ؟

في تقييمنا هذا لن نغفل عن أن الرواية ، في شكلها الفني العالمي ، هي نتاج القرن التاسع عشر . ولم يُتَح للروائي العربي – مع أنه حفيد لشهرزاد أميرة من حكى وقصَّ وروى عبر الزمن – أن يتملّك أدوات الروائي إلا في منتصف القرن العشرين ، حين ظهر في مصر نجيب محفوظ ورفقاؤه كتّاباً للرواية مُجلّين ، وكتبها في سورية شكيب الجابري في شكل الرواية المعاصرة ، ومعروف الأرناؤوط في شكلها التاريخي. وبعد أن راجت الرواية في الوطن العربي قراءةً وكتابةً ، برزت المرأة كاتبةً متفوقةً تنال حظها وحقها . وما زالت في خاطري النكهة التي تخلّفتْ عندي من قراءتي ، في خمسينيات القرن الماضي ، لرواية صدرت في سلسلة " اقرأ " ، دار المعارف بمصر ، بعنوان " الجامحة " للكاتبة القديرة أمينة السعيد .. ثم كرَّت السُّبحة، فتوالى نزول الروائيات إلى المعترك في جميع الأقطار العربية ، وكتبن سيناريو الأفلام والمسلسلات ، وقمن بالإخراج أيضاً ، وهذا ما أراه يندرج في الإبداع الروائي.

ولن يفوتني أن أشير هنا إلى إبداعات أنجزَتْها في سورية الرائدتان : وداد سكاكيني وألفة عمر باشا الإدلبي ، كما أشير إلى عمل أدبي لكاتبة شابة تعمل في التدريس بجامعة تشرين – اللاذقية ، مكفوفة البصر ، هي الدكتورة ريم هلال ، قدّمتْه في شكل سيرة ذاتية ، وسمَّتْه " البصر والبصيرة " – دار الآداب ، بيروت ٢٠٠٢ ، وقد كان لهذا العمل من التأثير حتى إنه استدرّ دموع القرّاء .

البصر والبصيرة

الباحث عطيّة مسوح

نُشِرَتْ في جريدة النور – سورية ، عدد ٢١٣ ، تاريخ ٧/ أيلول /٢٠٠٥

ذلك هو عنوان كتاب فرغتُ من قراءته منذ أيام ، فكان من الكتب التي تركت في نفسي أثراً ، وأثار لديّ عدداً من الفِكَر التي تتجاوز حدود الاستمتاع بعمل إبداعي جميل ، أو بحثٍ خفيف يداعب العقل ، أو ثقيل يحرّكه ويشغله . إنه سيرة شخصية للكاتبة الدكتورة ريم هلال ، تعود فيه إلى طفولتها ، وترصد أهم ملامح حياتها ، بذاكرة عفوية ، واضعةً القارئ على مفاصل محددة كان يمكن لها أن تدفع تلك الطفلة الكفيفة أو شبه الكفيفة ، بأحد اتجاهين ، فإمّا اليأس والاستسلام لتلك العاهة التي وُلِدتْ معها ، والانكفاء على الذات ، وإما الاندفاع في طريق الفعل المستند إلى رفض داخلي نفسي لتلك العاهة ، ومواجهة المأساة ، وتحقيق الذات بقوة الإرادة التي تجعل فقدان حاسة البصر حالة إيجابية ، أو شيئاً لا قيمة له .

أول فكرة أعادني الكتاب إليها هي الحصيلة العظيمة لاجتماع الموهبة والدأب . قد يقرأ أحدنا قصيدة أو قصة أو بحثاً ، أو يشاهد عملاً فنياً ، فيستنتج أن ما قرأه أو شاهده يقوم على موهبة استثنائية ، وينسى أن تلك الموهبة كان لها أن تتبدد وتضيع، أو أن تعبّر عن نفسها تعبيراً تافهاً لولا الدأب الذي صانها وغذّاها . ريم هلال موهبة دؤوبة ، واجتماع الموهبة والدأب هو مصدر كل إبداع .

أما الفكرة الثانية التي أعادني إليها الكتاب ؛ فهي تتعلق بالصلة الوثيقة بين رقة القلب ونقاء السريرة من جهة ، والقوة الداخلية ، قوة الإرادة والروح من جهة أخرى . وأحسب أن الإنسان يكون سويّاً بالمعنى النفسي والسلوكي بمقدار ما تتحقق لديه هذه الصلة . فالرقة والنقاء وعمق الإحساس بألم الذات وألم الآخر ، تسمو بالإنسان عن جعل قوته مصدر أذىً للآخرين ، وقوة الروح والإرادة تحمي الرقة من عبث الظروف، وتصونها من التداخل مع الانكفاء والاستسلام .

امتلكت ريم ، في طفولتها وشبابها ، ثنائية الرقة والقوة ، تبوح بذلك صفحات كتابها " البصر والبصيرة " . فرقّة القلب والإحساس ، ونقاء السريرة ، يدفعان الطفلة

ريم إلى موقف إيجابي تجاه كل من تلتقيه ، والاستعداد للتواصل معه بألفة ومحبة ، والتفاعل مع كل نفحة إنسانية تبدو لدى هذا الشخص أو ذاك ، كبيراً كان أم صغيراً، وقوة الروح والإرادة ، تجعل تلك الطفلة قادرة على الصمود أمام إيذاء الآخرين ممّن تغلِّفُ قوتهم الجسدية أو المالية والسلطوية عند الكبر الكثير من جوانب الخواء الروحي وضعف الشعور الإنساني .

استطاعت الطفلة الرقيقة القوية أن تخطو خطواتها الأولى ، ثم تتابع مسيرة التفاعل والتجاوز، لتصل إلى مرتبتها العلمية والاجتماعية العالية ، محققةً ذاتها على خير صورة يطمح إليها الإنسان السويّ ، صورة من يحقق ذاته من خلال دوره الاجتماعي الفاعل والمفيد .

أما الفكرة الثالثة التي أثارتها لديّ قراءة الكتاب ؛ فهي دور ذلك الدفء الإنساني في تمكين الطفل المصاب بعاهة جسدية من تجاوز عاهته ، والتفاعل مع مجتمعه تفاعلاً إيجابياً ، بعيداً عن الشعور بأنه دون الآخرين قدرة .

تتحدث الكاتبة ، بنبل ووفاء وعرفان بالجميل ، عن كل من أشعل شمعة في طريقها الصعب المظلم ، وأذكى قوتها الداخلية ومدّها بالنسغ الاجتماعي ، فتجعل القارئ يجلّ الأم والأب والإخوة والجيران والأصدقاء ، ويفتح قلبه ، كما فتحت الكاتبة قلبها ، لذكرى أولئك المعلمات النبيلات ، اللواتي أدركن بالعقل والإحساس دور المربّي الإنساني ، ومارسنه ممارسة نموذجية ، لا يطمحن إلى جزاء سوى راحة الضمير ، ولا يفرحن لشيء بمقدار فرحهنّ بتقدم من يرعينه في طريق المعرفة والتواصل الاجتماعي .

الدفء الإنساني هو ثروة المجتمع الحقيقية ، وهو ما أمسك بيدَي ريم في طريقها الطويلة ، لتصبح تلك الطفلة الرقيقة الكفيفة باحثة وكاتبة وشاعرة وأستاذة جامعية ، دون أن تفقد رقة الطفولة ونظافتها .

تُنبئِكَ ريم في كتابها أنها ذات صوت جميل ، تدرّبتْ على الغناء فأتقنته ، وشاركت في حفلات شبابية ، غنّتْ فيها لفيروز وعفاف راضي ، ولعلي أقول إن انقطاعها عن الغناء كان خسارة لنا ، فما كان أجمل أن تكون الأديبة والباحثة

والأستاذة مغنية أيضاً ، فالإبداع واحد في طبيعته وجوهره ، متعدد في تجلّياته التي هي لغات مختلفة لمخاطبة روحِ الإنسان .

كما تُنبِئكَ ريم أنها شاعرة ، صدرت لها مجموعتان شعريتان ، أسفتُ لأنني لم أقرأهما ، وأنا الذي أحبُّ الشعر وأحلِّق في فضاءاته قارئاً مستمتعاً ، لكنني سأسعى إلى قراءتهما ، فلا بد أن يكون شعرها رقيقاً وعذباً وعميقاً .

بأسلوب روائي شائق ، وبعفوية أخّاذة ، تعرض لك ريم هلال سيرتها الشخصية ، فتجعلك أباً لها ، وأخاً ، وصديقاً ، دون أن تراها ، وتفتح أمام عينيك نوافذ الثقة بالإنسان النقي الطيّب الدؤوب القوي .

شقيقتان كفيفتان حاصلتان على درجة الدكتوراه

حكيمة زرقة

نُشِرَت في صحيفة الثورة – سورية ، العدد ١٢٨٩٣ ، تاريخ ٢٠٠٥/١٢/٢٥

الدكتورتان ريم و رفيف هلال ، شقيقتان تنظران إلى العالم بالبصيرة لا بالبصر . رفيف زميلة لنا تعمل في الصحافة في جريدة الوحدة باللاذقية ، وريم مدرّسة في كلية الآداب – قسم اللغة العربية منذ عشرة أعوام ، وهي أوّل كفيفة تنال شهادة الدكتوراه في الوطن العربي ، وهي شاعرة لديها أربع مجموعات شعرية مطبوعة وسيرة ذاتية بعنوان " البصر والبصيرة " ، إضافةً إلى كتابين أحدهما حول نقد طه حسين والآخر حول الشعر الجاهلي . وتشارك في الكثير من الندوات والأمسيات الشعريّة والمنتديات الثقافيّة . عند ريم و رفيف قصتان ، بدأت أحداثهما مع الطفولة ، مع اكتشاف اختلافها عن أترابها . ومن هنا بدأت الحبكة على عكس القصص الأخرى، فبدأ عندهما البحث والتقصّي في عالم الطفولة المليء بالتساؤلات ، فارتسم في الذاكرة عالم تخلّلَته مواقف صعبة من المحيط وعلى مقاعد الدراسة ومن بعض المعلمات ومن الزميلات في باحة المدرسة ، لكن والدة الطفلتين كان لديها صبر جميل وتصميم عظيم في تعليم الطفلتين رغم كل المصاعب ، وبدأت معهما رحلة التعليم الشاقّة والانخراط مع المحيط الذي لم يكن يدعم ولا يقدّر ، فكانت أماً ومعلمة

ومرشدة وقدوة طيبة يُحتذى بها ، حتى كبر حلم الأم وتحقّقَ لها ما تريد في شابتين جميلتين تحملان أعلى الشهادات في الآداب . والأستاذ عبد القادر هلال غنيّ عن التعريف ، كان لسنوات طويلة رئيساً للرقابة والتفتيش في اللاذقيّة ، عُرِفَ بنظافة اليد وبالخلق النادر ، كان خير أب لريم و رفيف وقدوة حسنة يُحتذى بها في كلّ شيء . من ريم و رفيف نتعلم الكثير من الدروس في الحياة ، أولها أن لا شيء مستحيل أمام إرادة الإنسان ، وأن البصيرة هي البصر الحقيقي في رؤيتنا لأنفسنا وللعالم .

" أُكَحِّلُ الحرفَ بعينيكِ "

ديوان شعر كتبَتْه في الدكتورة ريم هلال

الشاعرة ليلى مقدسي

صدر عن دار مقدسيّة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦

*** قال الشبلي :**

وعينان قال الله كونا فكانتا

فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

* ر

ي

م

أنتِ رائعةٌ كالمسك

فأينما تكوني يلحظكِ الناس

" جوته "

*** لغة القلب**

هديّةٌ إليكِ

إلى ..

الدكتورة الشاعرة

ريم هلال

ويتوهّج الزنبق

جدائل العطر تُورّدُ

اسمَكِ يا ريم :

وحروفي   ليلى

*** ريم**

اسمُكِ والأرض

وأنا

غرباء

سنابلُكِ

ريقُ حنان

بيادرنا ..

دفاتر أحزان

<u>لغة القلب</u>

*** زنبقة الحرف**

كيف أبدأ ؟

مَبسَمُ الحرف

يُساهِرُ الشَّفق

* أرسمُ ..

حبرَ الضوء

لعرّافةٍ

تُورِّدُ

شجرَ أيامي

بالنسرين

والزنبق

* **انبهار**

بهرَني

هذا الترحال

مفرداتُ الضنى

خضرةٌ

تهلَّلَتْ

عطشُ المسافة

بيننا

لُهابُ غياب

* **غَمغمةُ لغتي**

ترنيمُ دعاء

* **تبَرَّقَ البحرُ**

تأوَّدَتِ السحاب

((لعرّافةٍ

اسمُها والأرض

في كل الآفاق

أغنيات))

ما بين قوسين :
عناوين مجموعات شعرية
للدكتورة ريم هلال

* **غوى**

بُلبلةٌ نشوى
فقأتْ عينيها
ليصدح
صوتُها
ودوداً
هزار ..
مزامير ..
وعَندَلَة التغريد
صلاة

* **سجى الليل**

معلِّلَتي
نجمةٌ سادرة
أنا ..
وسادةٌ ساهرة
حرفيَ ..
الليلُ والسَّحر
مداري ..
مواويلُ العشاق

* **خَدَرُ العرّافة**

عرّافةٌ

اسمُها يفوح

بحبر العمر

معاً ..

تهادينا

في ..

بيادر الحياة

* كيف عَرَفتِني

أنا .. قمحةٌ غريبة

تألفُني ..

سنابلُ الأبجدية

تكتبُني ..

قصيدةً منسيّة

في .. بحار الاغتراب

* رأيتُها ..

ما بين :

الغداة والعشي

غزالةَ ضحىً

كحيرة

الزرقة ..

والبياض

والسواد

* تباركَ البحرُ
أنفاسُ السحاب
تسقي
براءةَ التراب
خطواتُنا ..
جزيرةُ انتظار

* بعيدةٌ
قريبةٌ
تخالسُني
ضحكةَ الشعاع
أو ..
دمعةَ
غيمةٍ وطفى
تؤرِّجُ
السراب

* وضّاءةٌ
كقمر
استَوسَنَ
لألاءَ الليل
يا لَفتنةِ ..
جلنارِ النهار !..

*** ريم**

تتفتَّحُ

القوافي رؤىً

ميّاسةً

كحبّات التوت

على ..

غصن ريّان

*** ريم**

رملةٌ عطشى

تُرَندحُ

هديلَ الروح

تَتهودجُ ..

أميرةً شرقية

في الفلاة

*** ريم**

الراء ..

ريحانةُ عشقٍ

نداوتُها

نوّارُ الشجر

في فصول

اللقاء

والغياب

مَندلُ الشوق

احترق

*** الياء**

ياسمينةٌ

خجولٌ

كجدائل القمر

مفتونة

بريعان قلبها

فيا ..

ناهِلَ الحب

تَخَضَّلْ

*** الميم ..**

مُنَمنمةٌ

كضمَّة حبق

تُعسِّلُ

فراشات

الكروم

غاديةً

ما بين ..

الغبش

والغسق

*** هلال**

مَهاهُ

يروي كوثرَ الفجر

مغرومٌ

بحزن البنفسج

نورُه الساجي

أَبكى ..

الشفق

* تسافرُ إليك

كلمات

وتأتي

كلمات

ريّانةً ..

بخمر الثغام

تُزهِر ..

بروج السماء

* حَفحَفُ الشعرِ

رَحراحٌ

في كل الفصول

سلا

مَبسمَ السهر

وأنت ..

الكأس والراح

* دخان لغتي

بهار

اقطفي ..

الآس

والخزامى

والنعناع

هذه الطلال

لقمرية صبَّة

تُنادمُ .. الفرقدين

* أستهلُّ

شَهدَ الحرف

منادَمةً

لشادنٍ شَجنٍ

ذروة الرؤيا

قربان وفاء

* تسحُّ

نقاط الشوق

راقصةً

كزبد بحر

والطيوف ..

شغوفةٌ

بالطيوف

* شَجاني

طفل الحب

سرارُ الهمس

خفيٌّ

بناتُ القلوب

تبوح

* شواردُ الشعر
مستغرمة
غُرة الشجون
والنوافر
هموم
هوىً جريحٌ يذوب

* حَبحَبَ
دمعُ الصمت
غاسقُ الضفاف
بحرُ الغروب
يناغي
كآبة الموجِ
وريحٌ تُنَفنِفُ
اللؤلؤ
وتروح

* اسكبي
ماء الروح
تتثنى
بجعة الغناء
عيناكِ
لهب نور

* أُعيدُ معكِ ترتيب
الحلم

والطفولة

والجروح

وترٌ موجوع

* محروقةٌ

على شواطئ الشمس

دمُ الحب

أرجوانُ نقاء

بالسّرّ مباح

لكل العشاق

* تهويدُ الفرح

قريبٌ

بعيدٌ

نحيلٌ يهيم

كقلب مستهام

* ثَغثَغَ

أريجُ الكلام

فاض كالدّنان

مهجورة

مثلكِ

عذارى عشتار

منذورة

لوجع الشموع

* ينهمرُ
الغيم الأخضر
مذبحُ الحب
قناديل نور
فضفاضٌ
كالأزل

* **مُنغَّمٌ**
هذا المدار
رفيفٌ
منى الدفء
والريم
وصال

* أستعتبُ
كلمات العرّافة
تزرعني
سوسنة
في تربة العشق

* أهدابي
صلاةٌ كونيّة
تزهرُ
بآيات الله
سبحان المعشوق

*** واو الوله**

مسكونـةٌ

بنرجس الشعراء

" نرسيس "

ضائع

بين :

هموم

البياض والسواد

* بحيرةٌ

من أصابعك

صبَّت : السلوى

والمنّ

ثملَ

الياقوت

والتفَّ على العوسج

مقهور

* ريق المحب

أنفاس صفاء

سلاف البنفسج

غضّ حياء

* برج الحب

شموخ

لمّامٌ دفق الشذى

تعالي ..
نرشق المدى
سرّ الروح
للروح
الصدى

* **ر**

ي

م

رنيم صوتك
أليفٌ كدمع الفراق
حنونٌ
كثغاء
طفل بريء

* **عرّافةٌ**

خرجت
من ..
بحار الطفولة
واللاذورد
مروجَ عطاء
سادرة
وهج الحياة

*** وجهٌ**

تحيّرَ فيه

لون القمح

والشهد

والبياض

تَنحنَحَ

على الخدين

خمر النعمان

* مدّي

أغصان الزيتون

كرومُنا

مهفهفةُ سلام

...

خبزٌ

وعنبر

ورغيف حب

محروق

* مسكونةٌ

بالترحال

يألفُني ..

الاغتراب

جرحُ الفقدان

على صدري

نبضُ حنين

* كل الأشياء

التي

أحببتُها

مخطوفة

كهبهبة سراب

* **أتلفَّتُ**

أفٍّ

من كرب الحياة

ضجيجٌ

ووحدةٌ

وفراغ

أتفيّأ ..

غابة جدائلكِ

يشعل الزمرد

بخور الصفاء

* طيفكِ الساجي

يلهمني

ومضُ الروحِ

يهدل

حروفُ القصائد

تستفيق

غفوةُ الأوراق

حول ..

ضفاف الأحلام

* تبتسم القصيدة

أو ..

تكتفي

بنغم الرويّ

لونٌ آخر للشعر

إيقاعه قلبٌ

ونهر كلمات

* حاكورةُ

الحروف

مغسولة

بماء الورد

دروب الصداقة

عصافير حب

والشدو

وفاء

* قبّةُ الوجد

هسهسةُ هيام

جرحُ الشوق

بحجم الحزن

* بهرَني فيكِ

أغصان عينيكِ

أكحِّلُ بحرفي

ضحكة الرمّان

* حفَّ ..
غيث القصيدة
أنا بعيدة
والأَلِفُ تألف
كلّ ..
غيمات الحروف
ما أجمل !..
أمومة الأرض
ورائحة التراب

* تغفو
بقيّةُ
زهور الأبجدية
" لوتسيّة بوذيّة "
بين غلائل الطهارة
والدعاء

* سناكِ
سَهاري
في الدجى
وارف الظل
يكسّر
عزلة القلب

* تزفني
لهفُ
الحزن .. والأسى
جرحاً
على كتف الشمس
أعرّشُكِ
داليةً
على خدّ ..
الأرض
والمطر

* يذبل
وعد الحبيب
يزرع الشوق
بين صبّارات النسيان
مخضوضرةٌ
أنت
يا ..
شرنقة
الروحِ
الأَلوف

* جفنكِ
يهزُّ الحنان
جفني ..
دمعٌ سجين

يلتف

على ..

أهداب الحرف

بكِ ..

يستكين

* وجهي

وجهكِ

بطيوب الآلاء

يسغسغُ

الأمد

* نبلّلُ

الأيام

والشهور

والسنين

بدمع الابتسام

* كيف

أرّزت السماء

نعناع الأمل ؟

...

كيف ..

أزهرتْ أصابعكِ

بيداء النخل ؟

* قلتُ :
لجارة البحر
والزريابُ
غالسٌ
كزيت الوجد
أهيف
شجن الموج
كبحّة العطر

* يباغمني
حديثك
أستعبرُ
دمعة
دمعة
ثغبَ الصبر

* أستعتب
حروفاً ..
معشبة
بالهجر
والوصل

* هيَّمني
زعفران الشعر
بيني
وبينكِ

مجذاف الحرف

رسول

والرذاذ

شغوف

* يا ..

جُمار نخلة

سامقة

أُحَتْحِتُ

أوراقي

على خدّ الخضرة

أغصاناً

لعينيكِ

* أستعطف

البحر

يغني لعينيكِ

فيا ..

تباريح الرباب

أسبلي ..

بهاء البياض

* فُلكُ شجوني

دلفٌ

قال الفرح :

سلام عليكِ

يا بوح الزنبق
لدموع السماء

* غرّةُ المساء
فوحان حرف
يرعش الأنسام
قنديلُ التهدّج
تراويحُ
يا جفن
وعد ..
لا ينام

* أُطفئُ
قناديل عشقي
أنا ..
رعافُ صخر
دمي
حفرات

* أرشقُ
شوك الأخاديد
دثّريني
بالاخضرار
واتركي
رعشة الألوان
على شجر الحلم

* لا شيء

ينتظرني

ولا أنتظر أحداً

قبرُ عزلتي

هموم

تركني الفقدان

منفيّة

في جزر النسيان

* أُشعِلُ

جمرات التهدّج

هالةُ غربتي

حزنٌ صوفيٌّ

يحنو عليه

غاسق الظلام

* أستعطفُ

كشفَ الحب

أصابعُكِ ..

نقطة نور

يا راهبة الهوى

جريحٌ وجدُ الروح

سبحان ..

الخالق الصبوح

* الوصول
إلى حركة المعنى
في
عينيكِ
سِفرٌ طويل
أنا ..
مولعةٌ
بتشعبات المستحيل

* أنتِ
في دمعي
بحّة ابتهال
مَدَدٌ
مَدَدٌ
مَدَدٌ
قلبي
معبد حبٍّ
مهجور

* طوّافةٌ مع الزاهدين
أغنّي لعينيكِ
بمن أستغيث ؟
لنجعل
الحب
شجرة للحياة
ونمضي مع العابرين

* زَفزفةُ الريح

حفيفٌ

مغروم

بوليمة الأزل

أرى العالم

نشوةً سكرى

أمام عينيكِ

* فراشةُ الرؤيا

حطَّتْ لحظةَ التجلّي

هل ..

نادمتْ عينيكِ ؟

أم .

تفيّأتْ

طيبَ المسك

على كفيكِ ؟

* أَتُطوى الروح

مستندة

على حجر الغياب

أعبُّ

تجاعيد الأيام

يدكِ ..

تزيح

غيم القلب

أستعطرُ

سلاف البحر

يا بسمة انكسار الموج

*** اسمُكِ**

والأرض

عرّافةُ المعنى

ترذِّذُ

الآفاق ببراعم الحب

هل اعترفَ الندى

لحظةَ اللقاء ؟

نبضُ الحرف

عصفورٌ شاردٌ

في كل الفصول

حوار مع الدكتورة ريم هلال

ضمن ملف بعنوان : " أديبات سوريات "

أعدَّه كل من : مانيا معروف – رانيا خطيب – لمى مسالمة – هناء الدويري – طهران بدور – مها يوسف – بشار الفاعوري

نُشِرَ في جريدة الثورة – سورية ، عدد ١٣١٩٠ ، تاريخ ٢٠/١٢/ ٢٠٠٦

د . ريم هلال ، كان لها رأيها في سؤال فتح آفاقاً على عالمها الأدبي الإبداعي الهادئ ، كنبع يشقّ عبر الصخور بهدوء ، ليعرف سرّ الماء .

– تقول د. ريم عن تقسيم الأدب الأنثوي و الذكوري : لا يمكن أن أؤمن على الإطلاق إلا بأن هناك نصاً أدبياً تحققت فيه الأسس المطلوبة بصورة عالية ، ونصاً آخر لم تتحقق فيه هذه الأسس . أما بالنسبة إلى من صدرَ عنه هذا النص أو ذاك ،

من ذكر أو أنثى ، عربي أو أعجمي ، أبيض أو أسود ، فهذا يأتي لديّ في الدرجة الثانية ، ومن باب الفضول والرغبة في التعرّف إليه لا أكثر ..

– أما عن بداياتي في الكتابة ؛ فقد كانت في مرحلة متأخّرة بعض الشيء بالقياس إلى المراحل المبكرة التي بدأها الكثيرون من الكتّاب ، إيماناً مني بأن هذا لا ينبغي أن يحدث إلا بعد تبلور تجربتي الحياتية والشعورية التي يُفترَض أن تشكّل الكتابة صدىً لها ، وكذلك بعد تمكُّني من الأدوات الكتابية التي اكتسبتُها شيئاً فشيئاً ، من خلال دراستي المديدة للّغة العربية وآدابها ، ومع ذلك لابد من الإشارة إلى ماكنتُ أقوم به قبلاً ، ما بين حين وحين وخلال سنوات عديدة ، من كتابات تجريبية حاولتُ بها أن أبحث عن ذاتي الإبداعية المستقلّة ، وهي لا تزال إلى الآن في حوزتي ، لا من أجل أن أنشرها ذات يوم مؤكداً ، إنما من أجل أن أبتهج بها ذكريات إبداعية كما يبتهج الإنسان بذكريات طفولته ، وما يتخللها من حبوٍ وخطوات أولى متعثّرة .

– أما عن إصدارات د. ريم هلال ، فهي ثلاث مجموعات شعرية : العرّافة ، كل آفاقي لأغنياتكِ ، اسمي والأرض ، وكذلك سيرة ذاتية بعنوان " البصر والبصيرة " ، وكتاب نقدي يمثل الرسالة التي نالت بها درجة الدكتوراه .. وتتابع د. هلال : وأعتقد أن هذا الأخير المذكور سيكون الأخير في مجال النقد والأبحاث ، لرؤيتي ذاتي حصراً هناك ، في بحار الأدب .

– نحتاج النقد الأكاديمي : لقد منحني النقّاد ما يفوق حقوقي ، حين جعلوا نصوصهم النقدية أحياناً أكثر جمالاً من نصوصي الأدبية التي تأمّلوا فيها ، إلا أنني أتمنى الآن أن يخرجوا قليلاً من نقدهم الانطباعي نحو نقد أكاديمي موضوعي ، توقاً مني إلى تبيّن نتاجي في ميزانه العلمي الدقيق المتجرّد من العواطف ، والتبصّر بصورة أوضح بحقيقته التي قد تنطوي على السلبيات كما على الإيجابيات .

– ما هي قراءاتك في بحر الأدب ؟

كل كتاب ينتمي إلى الخارطة الأدبية ، بقاعاً وأزمنةً وأجناساً ، هو مرشّح لقراءتي، وكذلك كل كتاب ينتمي إلى العلوم الإنسانية الأخرى التي تمتُّ بصلة إلى الأدب ، نظراً لِما تمدّني به هذه القراءات من روافد كثيرة متنوعة تثري تجربتي

الإبداعية ، ولِما تُحقِّقُ لي شخصياً من متعة خاصة قد لا ألقاها مثلاً في القراءات العلمية البعيدة عن ميولي واختصاصي .

كشّافة اللاذقيّة تكرّم الأديبة د. ريم هلال

شعبان سليم

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٦٤٦١ ، تاريخ ٢٠٠٦/١٢/٢٥

أقام فوج كشّافة اللاذقيّة " ٤٦ " حفلاً تكريمياً للأديبة الدكتورة ريم هلال . وقد بدأ الاحتفال بالنشيد العربي السوري ، عزفته فرقة تابعة للكشّافة . ثم ألقى قائد الفوج نبيل أسمر كلمة ترحيبية ، ومنها : إن هدف كشّافتنا تربية النشء تربية إنسانيّة ، والغاية منها المساهمة في تقدّم الوطن ومجده ، وفي رفع مستوى الأخلاق والحب والعطاء ، وفي بناء بيئة صالحة في الوطن ، وغرس قيم الحب والإخلاص والخير لتكوين شخصية الإنسان ، والمساهمة في تطوير المجتمع .. ونحن نكرم الشاعرة اليوم ضمن منهاجنا الثقافي سعياً لتنمية الذوق الأدبي ، ورهافة الحس الشعري ، وإبراز قيمة الأدب . ثم ألقى السيد إسكندر ميّا ، رئيس اللجنة المركزية لكشّافة اللاذقيّة كلمة ، ومنها : عندما يتحدث الأدباء ، على الساسة أن يصمتوا .. قد ترى سهولاً أثقلتها الجبال ، و شطآناً تروي لنا حكاية قرطاج ، وكيف تراكضت ألوانها راسمةً قوس قزح ، هل أحسستَ بما باح الليل للضجر ؟ وخفق قلبك لصوتٍ غاب مطلِقُه ؟ ما الفرق بين دموع الفرح والحزن ؟ والصمت والسمسرة ؟ وبين البصيرة والأبصار ؟ وتلفُّت العيون والقلب ؟ أسئلة تجيب عنها ريم .

وقُدِّمَ نشيدُ الفوج من قبل فرقة الكشّافة . ثم قَدَّمتْ عدة مُشرِفات ومضات نثرية جميلة ، أضافت جواً أدبياً جميلاً . ثم صعدت الأديبة د. ريم هلال المنبر ، وقدّمت عدة قصائد ، ومزجت بين القصة القصيرة والشعر . وأول ما بدأت به بعنوان " تساؤلات " ، وهي تأمّلات شعرية رائعة ، وذلك بعد أن شكرت الكشّافة ودورها الريادي في المجتمع ، وفي الحفاظ على الجيل الصاعد ، وغرس القيم والمبادئ السامية فيه :

– ماذا تكتب العصافير بأرياشها

على لوحة الفجر ؟

– من رأى بيت الشمس الذي

تَلِجُ إليه كلَّ مساء ؟

– ماذا يقول الصمت

على شرفات النجوم ؟

– هل للزنابق أيضاً

آدم وحواء ؟

– لماذا ما عاد أحدٌ

يشتري لي دُمية ؟

– لماذا لن أعثر على عكّازي

إلا بعد سنواتٍ وسنوات ؟

ومن قصيدة " بُنَي " التي أهدتها إلى الابن الذي لم يأتِ :

كذلك هذا الصباح

لم تَعُدْ إليَّ بُنَي

ثم مضيتَ

لا أدري إلى أين

ناديتُكَ

ما كوكباً من روضي جنيتَ

كذلك هذا الصباح

لم تَعُدْ إليَّ بُنَي

هل صرختُ في كُرتك ؟

هل أسأتُ إليك ؟

أي بُنَي

ما اسمك الآن ؟

ما عمرك ؟

ما قامتك ؟

ما لون عينيك ؟ ...

ومن مقاطع لها بعنوان " قصص شعرية " ، هذه التي وشّتها بإلقائها الرائع ، وشدّت بها جميع الحضور :

في أياميَ الأولى من المدرسة

قالت لنا المعلمة :

هناك في الضياء

تَفَتَّحتْ وردةٌ بيضاء

فلا تقطفوها

استجبتُ لمعلمتي

ولم أقرب الوردة

إذ ما أردتُ لها

أن تنأى مثلي

عن حضن أمها

ثم قدّمت الأديبة نصوصاً قصيرة مكثّفة تأمّليّة غنيّة بالفلسفة بأداء رائع :

– ربما تصوغ في لحظةٍ

كلمةً من ذهب

لكن ما نفعُها ؟

إذا لم تنصت إليها

أُذنٌ من ذهب ؟

– ماذا إذا غرس كلٌّ بجانبه

شتلة ياسمين ؟

ألن تنطفئ حينئذٍ

نيران الأرض ؟

- من يمنحني كوخاً
يتّكئ على نهر ؟
لأسكب بين كفَّيه
نجومَ ألفِ شهر

- لماذا نصحو باكراً
في الصباحات الدافئة ؟
أهي الأزهار ؟
تنقر نوافذنا وتفرّ
لنطلَّ على بهائها ؟

وأخيراً لا نستطيع إلا أن نشكر الأديبة د. ريم هلال ، لأنها أتحفت الوجود بمقاطع رائعة ، وإلقاء آسر ، ولأنها فعلاً مبدعة بشعرها ونثرها وبصيرتها . وشكراً لفوج كشّافة اللاذقيّة " ٤٦ " الذي يكرّم الأدب والأدباء .

فقرات من كتاب قصيدة النثر – دراسة
تأليف الدكتور أحمد زياد محبِّك
منشورات اتحاد الكتّاب العرب – دمشق ، ٢٠٠٧

- جاء في الصفحة ١٩ من الكتاب المذكور :

ومن قصائد الومضة ما يقوم على نهاية غير متوقَّعة ، ليست نتاج المقدمات، بل تختلف عنها وتتناقض معها . ومنها الومضة التالية للشاعرة الدكتورة ريم هلال ، وعنوانها " مُباغَتَة " :

في شتائي
بحثوا عن رمادي
رأوني هناك
وفي يدي قمران

والنص يؤكد انتصار الذات الشعرية المبدعة على حالة الموت والقهر واليباس المتمثلة في الشتاء ، وانبعاثها من الرماد مثل الفينيق ، تحمل قمرين تضيء بهما العالم كله . وقد يكون القمران الحب والشعر ، وقد يكونان أي شيء آخر ، وحسبهما أنهما قمران . وعنوان النص " مُباغَتَة " ، مع إسناد فعل البحث إلى ضمير يعود على مجهول يوحي بالأشرار الذين كانوا يتوقعون أن يجدوا حالة أخرى خلاف ما رأوا، ولكن انتصر الجمال والحب والشعر . والنص مكثَّف ، ولغته موحية ، وهو بعيد عن المباشرة ، ويحقق بنجاح مفهوم القصيدة الومضة المبنية على حالة مدهشة.

- وجاء في الصفحة ٤٣ :

ومن النصوص ما يقوم على حوار محض ، وغالباً ما يكون في قصيدة النثر القصيرة ، وعندما يكون الحوار بين طرفين متصارعين أو مختلفين على الأقل ، يكون الحوار أكثر تأثيراً . ومن أمثلته النص التالي من مجموعة شعرية عنوانها " اسمي والأرض " للشاعرة الدكتورة ريم هلال :

- تعالي إلى الحقل

- لِمَ أبي ؟!

ألا تخشى مثليَ الذئب ؟!

- أرشدتُ إليه سهمي

- لِمَ أبي ؟!

ألا تحبُّ مثليَ الذئب ؟!

والنص يعبّر عن نزعة إنسانية تعطف على الحيوان وتشفق عليه ، بل تحبه ، ولا تريد له الموت ، وإن كانت تخافه وتخشاه ، لِما يحمل من أذىً . وبكل بساطة يمكن فهم الحقل هنا على أنه الحياة ، والذئب على أنه الإنسان الماكر والخبيث . وتتأكد عندئذٍ النزعة الإنسانية المتسامحة التي تحبُّ الكون والكائنات كافةً ، وترى الجمال والخير في كل أشكال التجلّي ، وهي نزعةٌ صوفية تدل على النقاء والصفاء ، منطلقة من الإيمان بأن الكون جميل ، لأنه من خَلق الله ، وما يظهر فيه من قبح ، فهو

قبح نسبي وفق ما نراه نحن في الظاهر القريب ، وهو قبح عارض مؤقَّت ، يخفي تحته جوهراً جميلاً قد يخفى علينا .

- وجاء في الصفحة ٧٢ – ٧٤ :

ولقد عبّرت قصيدة النثر عن مواقف من الموت ، ليس فيها شيء من معاني الرثاء المألوفة ، بل قدمت أسلوباً لا يمكن وصفه بأنه رثاء ، بل هو تعبير جديد عن موقف جديد . ومن ذلك نص للشاعرة الدكتورة ريم هلال في موت الأستاذة الجامعية الدكتورة سلوى الخيّر عنوانه " وردةٌ في أسطورة " تقول فيه :

ذهبتْ وحيدةً في الشتاء

تبدَّدَتْ في بحر

لا أعرف اسمَه

لا أعرف دربَه

تصوّفتُ في الصقيع

أنتظر

أنتظر

أتكسَّر

تشقَّقتْ أجراس الفجر

فهرعَتْ إليَّ حلماً

هطلتْ من المنفى الحقول

فَرَسَتْ على ظلي صنوبرةً

سألتُها

والمنبر

والرجع :

لماذا احترقتِ أمس ؟

همستْ :

لأن صوتيَ اختلسَ قَبَساً

فاختلستُ لنا بَغتةً

أنهار شمس الشروق

وفررنا نختبئ من الشتاء

تعبّر الشاعرة عن إحساس بغموض الموت ، لذلك تنسبه إلى البرد والشتاء ، كأنها تشير إلى دورة الفصول وأسطورة " دوموزو " . ثم ترى الموت عقوبة على اقتباس نور المعرفة ، مشيرة إلى أسطورة " بروميثيوس " . وما تلبث أن تؤازر الراحلة ، فتنضم إلى دفء النار التي قبَستها ، لتجد فيها الخلاص من برد الشتاء والموت ، وبذلك تثير الشاعرة في معرض الموت مشكلة المعرفة وتراها سبيلاً إلى الخلاص .

- وجاء في الصفحة ٩٦ - ٩٨ :

وتعبّر الشاعرة الدكتورة ريم هلال عن قلق الانتظار ، وتسأل عن المجهول الآتي، والسؤال مؤسَّس على خبرة سابقة جاء فيها ضوء ثم غاب . ويبدو السؤال تعبيراً عن رغبة داخلية في أن يكون الضوء القادم مختلفاً ، والسؤال عن الاسم هو سؤال عن الذات والهوية ، وليس محض شكل ، لذلك يبدو مثيراً للريبة والتوجس والقلق . والنص مبني على تكرار وتداخل متعانق كتعانق مربعات الشطرنج ، وفيه الوعي بإمكان ولادة النقيض من نقيضه ، حيث ينبت الضوء من أرض الليل ، وحيث ينبت الليل من أرض الضوء ، ويشير النص في أغواره البعيدة إلى قوله تعالى: " يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي " ، وهذه العلاقة ليست جدلية ، إذ لا تقوم على تناقض بين مقولتين تتولّد عنهما مقولة ثالثة مختلفة عنهما ، وإنما هي علاقة إبداعية استثنائية تقوم على الأمل بإمكان ولادة طرف ثالث مختلف، وهذا تعبير خفيّ عن الرغبة في انتظار معجزة . وفيما يلي النص :

من أرض ليلي

نبتَ ضوئي

من أرض ضوئي

نبتَ ليلي

فما هو اسمكَ

أيها الضوء الآتي ؟

وفي النص تشوُّق إلى الانطلاق الهادئ من الذات حيث الضوء الذاتي والليل الذاتي إلى العالم حيث انتظار الضوء الآتي ، يؤكد ذلك إضافة الليل والضوء إلى ضمير المتكلم ، وظهور هذا الضمير أربع مرات في نهاية كل سطر من الأسطر الأربعة الأولى ، وهو ما منح الإيقاع الوحدة والانسجام والهدوء ، ثم تأتي صفة الضوء بأنه الآتي ، لتنسجم في انتهائها بالياء مع الأسطر الأربعة الأولى التي انتهت بالياء ، وما أشبه الياء التي تنتهي بها الصفة " الآتي " بضمير المتكلم ، وكأن في هذا دلالة خفيّة على رغبة كامنة في أن يكون الضوء الآتي ملكاً للذات ومنسجماً معها ، حتى لكأنه نابع منها مثله مثل : الليل والضوء والأرض في ليلي وضوئي وأرضي .

ومن رؤى المستقبل نص الشاعرة الدكتورة ريم هلال عنوانه " درب واحد " :

تَنَصَّتا من بعيد

إلى حقول الشتاء :

– ذاك نحيبهم

– بل نحيبنا في الغد

ويمتاز النص بتكثيفه الشديد ، وتنوُّع أساليبه على الرغم من قصره ، ففيه حوار بين شخصيتين ، وفيه رسم لصورة من خلال الصوت ، فالشتاء الذي هو الشيخوخة والعجز هو درب الجميع من سابقين ولاحقين ، وهو نحيب وبكاء ليس للماضين بل للّاحقين الذين سيواجهون الغد . والجميل في النص تلاحم العنوان مع النص ، إذ لا غنى هنا عن العنوان وكأنه سطر في النص لا ينفصل عنه . والجميل في النص أيضاً الاعتماد على السمع ، فثمة تنصُّت وثمة حوار وثمة نحيب ، وحقول الشتاء الممتدة تتحوّل إلى نحيب طويل ، وهذا النحيب يتحوّل إلى درب .

سارت على درب طه حسين بامتياز !

الدكتورة ريم هلال أول كفيفة تحصل على درجة الدكتوراه

وأول أستاذة جامعية كفيفة في الوطن العربي

الإعلاميّ توفيق الحلّاق

نُشِرَتْ في مجلة دُبَي الثقافية ، عدد ٢٥ ، تاريخ ٢٥/يونيو/٢٠٠٧

بطلة هذه الزاوية : ريم هلال ، وهي ذاتها بطلة إحدى حلقات برنامجي القديم " ساعة حرّة " الذي يعود تاريخ بثّه إلى عام ١٩٨٤ ، إذ كانت ريم قد تخرّجَتْ وقتها في كلية الآداب – قسم اللغة العربية في جامعة اللاذقية على الساحل السوري ، بدرجة امتياز ، وبمعدل ٨٢ % ، وكانت هذه الدرجة هي الأعلى في تاريخ القسم منذ إنشائه ، وأذكر أنني قدّمتُها للمشاهدين على النحو التالي : ضيفتكم القادمة شابّة، طلعتْ من العتمة إلى النور .. اسمها ريم هلال ، حُرِمتْ من نعمة البصر ، لكنها ترى الناس والأشياء ببصيرتها أجمل من الواقع . وحين سألتُها كيف استطعتِ وأنت الكفيفة التفوّق على زملائك وزميلاتك ؟ أجابت : كان عليّ أن أختار بين المقدّمة أو الوسط أو المؤخّرة ، فاخترتُ المقدمة كيلا أصطدم بهم في الوسط ، أو أتخلّف عن الركب دون أن أدري !! مع ما يعني ذلك من مشقّة بالغة .

وُلِدتْ ريم هلال بنسبة رؤية لا تتجاوز ٢/١٠ ، ما وضعها – كما تقول – أمام مشكلة ذات بعدين ، البعد الأول يتمثل في التكيّف مع مجتمع لا يعرف كيف يتعامل مع أصحاب الاحتياجات الخاصة ، وثانيهما في محاولة الاستفادة من النزر اليسير من بصرها لتتعلم الكتابة والقراءة ؛ إذ لم تكن طريقة " برايل " التي تعتمد على حاسة اللمس قد وصلت إلى مدينتها اللاذقية ، وذلك لعدم وجود مدرسة للمكفوفين آنذاك . لكنها وبما أوتيتْ من قدرات ذهنية وإرادة صلبة وجو أسري متفهّم ومتفانٍ ؛ تمكَّنتْ من شقّ طريقها إلى العلم واجتياز محطاته ، مرحلةً إثر مرحلة ، إلى أن حصلتْ عام ١٩٩٨ على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها ، وبدرجة امتياز أيضاً ، ولتصبح أول أنثى كفيفة تحصل على درجة الدكتوراه في الوطن العربي . كان عنوان رسالتها : " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " . أما رسالتها

للماجستير ، فكان عنوانها : " المنهج النقدي عند طه حسين " . وبعد ذلك حقّقتْ حلمها في أن تكون أول أنثى كفيفة تمارس التدريس في الجامعة على المستوى العربي . وللوصول إلى حلمها هذا كان عليها أن تخوض معركة كادت تودي بها إلى الانتحار في وقت من الأوقات !!

وأتوقف هنا لأنقل لكم بعض المشاعر العاصفة التي عاشتها ريم وهي تسعى مع أسرتها لأخذ حقّها القانوني في أن تكون معيدة في الجامعة بعد حصولها على شهادتها الجامعية الأولى . تقول ريم عن تلك المرحلة : عانيتُ الأمرَّين .. لقد وُضِعتْ على طريقي العراقيل من كل نوع ، وكأنني مسؤولة عن عاهتي !! بل كأنني جانية تستحق العقاب !! لقد مرت سنة وأكثر وأنا أصارع المبصرين لألفت نظرهم إلى القانون ، لكن محاولاتي كلها باءت بالفشل ، فتوطّنتْ في نفسي بذرة الكآبة ، وأخذتْ تنمو يوماً بعد يوم ، وشهراً إثر شهر ، حتى غمرتني بغيومها السود الثقيلة التي لا تندُّ عن قطرة ماء واحدة ، أو عن زهرة صغيرة وليدة ، وذلك وأنا أتابع دراسة الدبلوم ، حتى إذا انتهيتُ منه جلستُ في البيت ، ووصلتُ إلى حدود المرض ، بل إلى أبعد من ذلك ؛ فقد اتخذتُ قرار الانتحار ، وبدأتُ أفكر في الطريقة !! هل أُضرِب عن الطعام ؟ هل أحرق نفسي وسط الجامعة ؟ لكن ما أنقذني من تلك الأفكار السلبية هو طبيعتي المعاندة للاستسلام والخنوع والهزيمة ، فعدتُ إلى حلبة الصراع مرةً ومرات ، حتى انتصرتُ ، وأصبحتُ معيدة في الجامعة ، ثم حاملةً شهادة الدكتوراه والمدرّسة الجامعية الكفيفة الأولى في الوطن العربي .

في أثناء مقابلتي الثانية لها بعد تسعة عشر عاماً ، أي في عام ٢٠٠٣ ، كانت بطلة إحدى حلقات برنامج " ابن البلد " ، روتْ لملايين المشاهدين هذه القصة المؤثّرة : " ظننتُ أن الشارع خالٍ تماماً من السيارات .. لم يكن هناك أي صوت على الإطلاق .. تركتُ الرصيف وعبرتُ مسرعة ، وعندما تجاوزتُ نصف المسافة ، سمعتُ صوتاً قوياً قريباً ، وأدركتُ أن سيارةً شاحنةً ضخمةً تكاد تلامسني ، لكنني لم أستطع معرفة ما إذا كنتُ أمامها في وسط الشارع أم إلى الأمام أم إلى الخلف ؛ في تلك اللحظة ، وهي لحظة فقط خاطبتُ نفسي فقلتُ : يا ريم أنت ما تعوّدتِ التقهقر إلى الخلف فامضي إلى الأمام .. وهكذا مضيتُ .. وهكذا نجوتُ !! " .

أعود الآن إلى كتابها الذي اختزلتْ فيه سيرتها الذاتية بصدق وشفافيّة ، وبلغة رقيقة رسمتْ بها الجو الذي أحاط بها منذ ولادتها ، وحتى تسلّمها منصب الأستاذة الجامعية ... اسم الكتاب : " البصر والبصيرة " . وأنقل لكم منه سطوراً تَصِفُ فيها طفولتها : " كنتُ مثل عصفورة تغرّد وسط الربيع ، ولا تزال ذاكرتي تلامس بفرح الألعاب والسكاكر التي كانت تُغدَق علي ، وتلامس في ذات الوقت أصداء غنائي بين أفراد عائلتي وأبناء الحي الفقير الذي ترعرعتُ فيه .. كان غنائي يملأ البيت والحي لدى عودتي وأهلي من إحدى الزيارات . لكن سؤالاً مبتذلاً ظل يتردد على مسمعي فترة طويلة من الزمن بحيث اختزنته ذاكرتي إلى الأبد ، أما السؤال فكان : أأنت تبصرين ؟ وعلى الرغم من عدم معرفتي بالمقصود من السؤال ، فقد كنتُ أجيبهم : لا ، ثم أعود إلى زماني النقي غير آبهة بهم " . كان كتابها " البصر والبصيرة " الذي احتوى تجربتها المرّة الحلوة ، وانتصارها المدوي على كل المعوقات هو كتابُ النثر الوحيد من إصداراتها الأربعة ؛ إذ إنها نَشرت إضافة إليه ثلاث مجموعات شعرية هي : " العرّافة – كل آفاقي لأغنياتكِ – اسمي والأرض " ، وثمة مجموعة رابعة قيد الطبع تحت عنوان : " بين شرفتي والبحر " . وقد قدّم للمجموعة الأولى الأديب الكبير حنا مينه . وأما الشاعر الشهير شوقي بغدادي ، فقد تابع لقاءها على الشاشة الصغيرة ، وكتب معقّباً في إحدى الصحف : " كثيرون تابعوا ريم هلال على شاشة التلفزيون وهي تتحدث بطلاقة وبراءة ومنطق متماسك ، فتعاطفوا مع تلك الفتاة الوديعة كبنفسجة ، والرقيقة كزهرة ياسمين . أما أنا فقد اجتمعتُ بها أكثر من مرة ، وأصغيتُ لذكائها وموهبتها ورقتها .. تعزف على البيانو... وتصدح بصوت جميل مثل فيروز ، وتحاورني في اللغة العربية ، فأجد نفسي أمام موهبة جادّةٍ عميقةٍ ونادرة ، إن حضورها باعث للبهجة والحوار الشهيّ الممتع ".

وأخيراً .. وعندما طلبتُ منها بعض صورها ، سألتْني عن الغرض من ذلك ؟ فقلتُ : أريد أن أكتب عنكِ .. قالت : لقد فعلتَ الكثير من أجلي . أجبتُ : بل أنتِ التي فعلتِ الكثير في الناس .

د. ريم هلال

نُشِرَ في موسوعة برنامج ابن البلد – الجزء الثاني

إعداد وتقديم : توفيق الحلّاق

مشاركة ومراجعة : فاتن عجّان

صياغة وتنسيق : حيدر نعيسة

منشورات دار عكرمة – دمشق ، ٢٠٠٨

وُلدتْ الدكتورة الأديبة ريم عبد القادر هلال عام ١٩٦٠ مكفوفة البصر ، لأسرة مثقّفة متميّزة استوعبت حالتها الصحيّة الخاصة تلك .

ومع توالي الليالي والنهارات ، مرّت بالكثير من المرارات والمشاقّ ، واجتازت محطات عديدة من المعاناة التي شكّل العمى الجذر الأساسي لها ، وذلك في إطار سعيها للتكيّف والتآلف مع الظرف المخالف ، ظرف افتقاد حاسة البصر ومشكلة الاندماج مع مجتمع المبصرين الكبير المحيط بها .

شقّتْ طريقها خطوة خطوة ، مستعينة بحواسها الأخرى وبأسرتها ، لم تتابع تعليمها الأساسي في مدرسة خاصة بالمكفوفين ، لعدم توافر تلك المدارس في محيطها الذي تعيش فيه ، فألحقَها أهلها بإحدى المدارس الخاصة ، اعتماداً على بقايا بصرها الضئيل قرب النوافذ المشمسة نهاراً والمصابيح المشتعلة ليلاً ، بغية تبيّن الحروف والكلمات والجمل ، وذلك بتقريب الدفاتر والكتب حتى التصاقها بالعينين .

هكذا حتى عام ١٩٨٣ ، عندما حصلتْ على الإجازة في اللغة العربية بمعدل عالٍ قدره "٨١,٩١ % " ، وكان أعلى معدل يحصّله خريج قسم اللغة العربية في جامعة تشرين حتى حينها ، وقد تَتابع تفوقها واستمر .

ففي عام ١٩٨٤ ، حازت دبلوم الدراسات العليا – قسم الأدبيات ، ثم عُيِّنتْ في العام التالي ١٩٨٥ معيدة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم اللغة العربية .

وفي عام ١٩٩٢ ، حصلتْ على درجة الماجستير في النقد العربي الحديث ، كذلك حصلتْ على درجة الدكتوراه في الاختصاص والجامعة نفسيهما عام ١٩٩٨ ،

وعُيّنتْ مدرّسة في الكلية ، فكانت بذلك أول أستاذة جامعية مكفوفة تشغل هذا المنصب .

لقد غدت أحلامها وقائعَ ، وتركّزتْ تلك الأحلام منذ طفولتها المبكرة في اتجاه احتراف الغناء ، لامتلاكها صوتاً جميلاً ، وقد حصلتْ على ما أرادت ، فتدرّبتْ على الغناء ، وأتقنته ، واشتركت في العديد من الأماسي الغنائية والحفلات الفنية ، غنَّتْ فيها للسيدة فيروز وعفاف راضي ، وصُنِّفتْ مطربةً بناءً على نجاحها في مسابقة إذاعية لأصحاب المواهب ، كما سجلت أغنيات عديدة في إذاعة دمشق .

إلا أنها وبعد حين وجيز ، غادرت عالم الغناء لأسباب عديدة : أولها : تعقُّد هذه المهنة وتعارضها مع ظروفها . ثانيها : انشغالها بتحقيق غايتها الكبرى في التفوق الدراسي الجامعي ، وبذل كل ما لديها من جهود وأوقات ومقدرات من أجل نيل أعلى الشهادات ، وليتاح لها الحصول على شهادة الدكتوراه ، والتفرّغ فيما بعد للبحث العلمي بما يقرّبها خطوات أخرى من قدوتها ومثلها الأعلى الدكتور طه حسين .

تعمّقتْ تجربة الدكتورة ريم في آفاق الحياة وميادينها الثريّة ، لكنها على خلاف الأدباء الآخرين تأخرت في الكتابة الأدبية ، إذ بدأت بالكتابة نزولاً عند إلحاح القرّاء المقرّبين المتحلّقين حولها ، الناهلين من أدبها وعلمها ، فكانت عند حسن الظن وكبر الأمل والمسؤولية .

تقول عن تجربتها الأدبية : " لم تدخل الكتابة آفاقي في سنِّي المبكرة ، لكنني بعدما تجاوزتُ مرحلة الماجستير ، شعرتُ بالملل إزاء المجال الأكاديمي ، نظراً لما فرضه عليَّ من أجواء انعزالية جافة مختلفة عن الأجواء المنفتحة الحيوية التي شهدتُها في عالم الغناء ، لذلك توجهتُ إلى مجال الإبداع الأدبي الذي ألفيتُه يشكّل استمراراً لغنائي ، إذ مكّنني من التواصل مع شرائح الناس ، ومن التعبير عما أريد بدلاً من أن أردِّد ما يعبر عنه الآخرون عندما أغنّي " .

كانت بداياتها أولاً ضمن المجال الشعري ، استجابةً لتدفّقٍ شعوريٍّ خصيب كامن، تفجَّر بعد اغتناء تجربتها الذاتية ، وتبصّرها بها ، وتبحّرها في أعماق الحياة ، وتفاعلها مع تجارب الآخرين إلى حدّ التوحّد .

هكذا أخذت ترسم قصائدها بالكلمات ، ترسم الصور اليومية والإنسانية والحياتية المتنوعة ، قصائد شعرية رقيقة عذبة عميقة .

من أعمال الدكتورة ريم :

العرّافة : وهو اسم المجموعة الشعرية الأولى للشاعرة الدكتورة ريم هلال ، وقد قدّم لها الأديب الكبير حنا مينه ، ومما جاء في مقدمته المؤرّخة في يوم ٧ / ٧/١٩٩٥: " ريم ... في هدوئها وصمتها تتأمّل ، وتأمّلها هذا من النوع الوادع ، وهذا ما أعطى رؤاها وداعة متميزة تشفُّ كما نفسها عن أحاسيس تبعث الشعر النثري الهاجع في قاع الذاكرة ، بعثاً فيه إحياء للعواطف الحبيسة ... عندما وصلتني مجموعتها هذه مضروبة على الآلة الكاتبة ، وأُخبرتُ أنها هي التي فعلت هذا ، أخذني دهش غير قليل ، لكنه جبروت الإنسان .. هذا الذي قال عنه مكسيم غوركي : إنه يصدح بفخر، حملني على الاقتناع بأن النبوغ يشمل فعل المعجز في الأمور .. لقد فُتنتُ على نحو ما وقدر ما بالبوح الحزين الشفّاف المنسرح ببساطة وعفوية ، وأخذتني ، وهزتني صورة مبتكرة للأسى الدفين غير المستكين ، وافتتاني له ما يبرره .. الروح الحنون تنساب نسغاً في الكلمات ، والشعر المفعم بالحنان والجودة ، إنه عمل يحمل على الرضا " .

كل آفاقي لأغنياتكِ : وهي المجموعة الشعرية الثانية لها ، وقد كتب كلمة الغلاف الأستاذ أنطون المقدسي ، قال فيها : " لو طلبت مني ريم هلال اسماً لمجموعتها لما ترددتُ ، فالحياة دروب ، عليك كي تسلكها أن تشقَّها خطوة إثر خطوة ، والعالم فجر أدركه الليل فعليك أن توقظه .. وحدها هذه الصبيّة أدركت أنه معجزة عليك أن تجترحها كل لحظة كي تستمر فيه . تقول ريم هلال : الأشياء موجودات صمّاء ، وحده الشعر يعرف كيف يستنطقها ..! هذه الصبيّة تكتب وكأن الشعر تجلّى لها قبل أن تقرأ الشعراء " .

اسمي والأرض : عنوان المجموعة الشعرية الثالثة ، وقد صدرت عن دار المرساة باللاذقية عام ٢٠٠١ . قالت عنها الكاتبة ليلى المقدسي : " كأن ريم هلال يمامة الكلمات على شجر الشعر ، قلبها بياض الثلج ، تلاحق عصفورتها مرحةً فوق مروج

النقاء ، رأت في الأرض ما لا يراه الرائي ، وتعمّقت بوعيٍ بوضعية الإنسان الفاني الذي يعيش العالم كله كأنه حلم كبير " .

البصر والبصيرة : وهو عنوان الكتاب الذي خُطّتْ فيه السيرة الذاتية للكاتبة ريم هلال ، ومسيرتها على درب الحياة منذ لحظة الوعي حتى حصولها على أعلى شهادة ، بكل الدقائق والتفاصيل ، وبكل ما انطوت عليه من الآلام المتأتّية من وضعها الخاص ، والأفراح المتأتّية من تحدّيها لهذه الآلام بما امتلكته من إرادة وإيمان وقوة .. وعن هذا الكتاب قال الكاتب الصحفي عطيّة مسوح في جريدة النور بتاريخ ٢٠٠٥/٩/٧ : " إنه عمل إبداعي جميل بأسلوب روائي شائق ، تعود فيه ريم إلى طفولتها ، وترصد أهم ملامح حياتها منذ كانت طفلة شبه كفيفة ، لم تستسلم ولم تيأس لتلك العاهة التي وُلدتْ معها ، ولم تتكفئ على الذات ، بل اندفعت في طريق الفعل المستند إلى رفض داخلي نفسي لتلك العاهة الجسدية ، مواجِهةً المأساة وتحقيق الذات بقوة الإرادة التي تجعل من فقدان حاسة البصر حالة إيجابية أو شيئاً لا قيمة له ، وبعيداً عن الشعور بأنها دون الآخرين قدرةً . وريم هلال موهبة دؤوبة ، واجتماع الموهبة والدأب هو مصدر كل إبداع .. امتلكت في طفولتها وشبابها ثنائية الرقة والقوة ، رقة القلب ونقاء السريرة من جهة ، والقوة الداخلية ، قوة الإرادة والروح من جهة أخرى .. وهما تدفعان الطفلة ريم إلى موقف إيجابي تجاه كل من تلتقيه ، والاستعداد للتواصل معه بألفة ومحبة ، والتفاعل مع كل نفحة إنسانية ، وقوة الروح والإرادة تجعل تلك الطفلة قادرة على الصمود أمام إيذاء الآخرين . استطاعت الطفلة الرقيقة القوية أن تخطو خطواتها الأولى ، ثم تتابع مسيرة التفاعل والتجاوز لتصل إلى مرتبتها العلمية والاجتماعية العالية محققةً ذاتها على خير صورة يطمح لها الإنسان السوي .. وهي تتحدث بنبل ووفاء وعرفان بالجميل عن كل من أشعلَ شمعة في طريقها الصعب المظلم ، وأمدها بالنسغ الاجتماعي وأذكى قوتها الداخلية . فالدفء الإنساني هو ما أمسك بيدَي ريم في طريقها الطويل لتصبح تلك الطفلة الرقيقة الكفيفة باحثة ، كاتبة ، شاعرة ، أستاذة جامعية ، ومن قبل مطربة دون أن تفقد رقة الطفولة ونظافتها ، فالإبداع واحد في طبيعته وجوهره ، متعدد في تجلياته التي هي لغات مختلفة لمخاطبة روح الإنسان الواحدة . لقد جاء كتابها هذا رسالةً

إلى اليائسين المعوقين وغير المعوقين ، مفادها أن للحياة جانباً مضيئاً جميلاً لا يتم بلوغه إلا بحَثِّ الخطى وعدم المكوث المستسلم في الجانب المظلم .. وقد صدر الكتاب عن دار الآداب في بيروت بلبنان " .

كذلك انتقلت الدكتورة الأديبة ريم هلال إلى الخواطر النثرية جنساً أدبياً أكثر يسراً، وقد تطرّقتْ فيها إلى المجالات التي تناولتها في دواوينها ، وهي تلونها بما تجود به قريحتها من أنفاس شعرية لا يمكن التخلي عنها .. وذلك كي ينفتح القراء على هذا الجنس من الأدب ، إنها مزاوجة بين جنسين أدبيين ، وإنها لقدرة على الإبداع .

بحار من الضوء بدل العينين : تقول الشاعرة الأديبة الدكتورة الباحثة ريم هلال : " بدلاً من أن يشكّل العمى عاملاً لانكفائي على الظلمات التي فُرضتْ عليّ ، فقد شكّل عاملاً لانطلاقتي عبر الحياة ، باحثةً عن الضياء ضمن ما أمكن من الدروب، ولا سيما درب العلم والمعرفة ، ودرب تكوين الحياة الاجتماعية المتوازنة ، ليكون شأني في ذلك شأن سواي من المبصرين . لقد صادفتُ على طريقي الاجتماعي الكثيرين من المتجاوبين الذين كان لهم دورهم في تذليل إعاقتي ، والسلبيين الذين كان لهم دورهم في تدعيمها ، وكانوا أكثر قسوة منها وأعمق أثراً سلبياً ، متناسين أن النقص يشمل البشر جميعاً وفق صورتين متباينتين مابين الظهور للعيان ، والتخفي في الداخل ، وقد يمتلك المعوق طاقات قد تفوق ما لدى السليم . لقد عوضتُ عن مصباحَي عينيَّ المطفأين بحاراً من الضوء تسكن داخلي ، وتمنحني ما يكفي من الشعور بالسكينة والفرح بقضاء الله .. لم يبخل الله عليّ في منحي إمكانيات وحواس أخرى " .

سوق عكاظ جديد .. في دار الثقافة

أمسيّة متميّزة .. فاتحة الأربعائيّات الأدبيّة للعام الجديد

رفيدة يونس أحمد

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، عدد ٦٧١٦ ، تاريخ ٢٠٠٨/١/١٤

من الجميل استمراريّة الأربعائيّات الأدبيّة في دار الثقافة ، وهم بذلك – القائمون على هذه الفعاليّات – يستحقّون كل الشكر والتقدير ، لحرصهم على تفعيل دور الأدب والثقافة بالمحافظة . والأجمل من ذلك أن تكون فاتحة سلسلة الأربعائيّات لعام ٢٠٠٨ أمسيّة متألّقة متميّزة للسادة الأدباء : مالك الرفاعي – أيمن معروف – د. ريم هلال ، الذين استطاعوا أن يخلقوا جواً من المتعة والدفء والبهجة بما قدّموه من وحدة إبداعيّة بين الشكل والمضمون ، استطاعت بدورها أن تستأثر بخيال ومشاعر الحضور الكثيف الذي غصّتْ به الصالة ، بالرغم من الأحوال الجويّة الباردة في الخارج . ونحن نفخر بهذه النخبة الذوّاقة من الحضور ، ونتمنّى أن تكون نشاطات هذا العام غنيّة بالمشاركين والحضور على حدٍّ سواء .

حضر الأمسيّة التي قدّمها المرشد الثقافي للدار الأستاذ فيصل علي بصوته الرزين ، إذ قال : " إن هذه الأمسيّة ستكون سوق عكاظ جديد ، ولو أن في اللاذقيّة كعبةً ، لقيل : إن هؤلاء الشعراء هم أصحاب المعلّقات في اللاذقيّة " .

* الدكتورة ريم هلال : دكتوراه في الأدب العربي بالنقد العربي الحديث . أستاذة في كليّة الآداب . صدر لها ثلاث مجموعات شعريّة ، وفي البحث كتاب نقدي ، ومجموعة شعريّة قيد الإصدار بعنوان " تساؤلاتي " . بصوتها العذب ، وبإلقائها المتأنّي الهادئ ، استطاعت الشاعرة ريم أن تلج إلى قلوب الحضور ، بما قدّمته من قصائد قصيرة ، إذ قالت :

سُئِلتْ طفلةٌ عن كلمة أخيرة

إلى مستمعيها عبر الأثير؟

فأجابت :

كم أحبّكم جميعاً

ليت كوكبنا صغيرتي

يصحو على شدوِكِ النقيّ

ليتكِ تمكثين حيث أنتِ

لا تَكبُرين .

*

ماذا إذا غرس كلٌّ بجانبه

شتلة ياسمين ؟

ألن تنطفئ حينئذٍ

نيران الأرض ؟

ومن قصيدة " نبوءة " نقرأ :

دخلتْ سَكينةَ بيتِها

وأوصدتْ بابها الأبيض

دون غبار السيوف

دون حرائق الدروب

احتستْ وحيدةً فنجانها

ثم انحنَتْ عليه :

نبوءتَك

نبوءتَك

أتاها همسٌ من الأعماق

من ينابيع النقاء :

إلى ما حول الأرض

سيفرُّ صغارُ الأرض

وبطوفٍ واحد

بصوتٍ واحد :

الله أكبر

هللويا ...

صحفيون ، وكتّاب

استطلاع أجرته زينب الخيِّر بشأن جريدة الوحدة التي تصدر في اللاذقيّة

نُشِرَ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٦٨٥٦ ، تاريخ ٤ / ٨ / ٢٠٠٨

أما الكتّاب المشاركون في الجريدة ، فالحقُّ يُقال : إن لهم رصيداً كبيراً عند الناس، أستطيع من خلال الاستطلاع الصغير الذي أجريتُه أن أوجز ما يلي :

. . . . .

والذين لا يسعفهم وقتهم كثيراً للمطالعة ، تعجبهم ثقافة الدكتور فارس حاج جمعة والشاعر غسّان حنّا والدكتورة ريم هلال وأختها الدكتورة رفيف .....

قراءة في مجموعة " كلّ آفاقي لأغنياتكِ "

فايز محمد جاموس

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٦٩٣٦ ، تاريخ ٣٠ / ١١ / ٢٠٠٨

حيث تتهادى الكلمات على صفحة ماء النفس ، تحمل في خباياها جذوة الحياة وعذوبة الروح ، تمشّط احتراقات الوجود بعطر أزاهيرها ، تفتح كُوى الماضي السحيق لتبهرنا بكنوزها ودُررها ، وحين يصير الشعر غابة من الأضواء ، تخرج من أضلاع الشعراء لتجتاح التصحُّر في مساحات النفس البشريّة . هكذا وجدتُ نفسي بين سطور مجموعة الشاعرة د. ريم هلال ، بحيث وجدتُ تلك المرأة المناضلة ، المكافحة التي تواجه صلف الحياة وقسوتها ، وجبروتها بثقة وأنفة واعتزاز .

نحن هنا أمام حالة خاصّة لامرأة اختطف القدر منها بصرها ، وجرَّدَها من نعمةٍ هي أجمل ما تكون لدى الإنسان ، بحيث تشكّل له نافذة وحيدة على العالم ، يطلُّ من خلالها على الموجودات المحسوسة فيها وغير المحسوسة . إنها الرؤية ، وهذا ليس من السهل بمكان أن تُرى ولا تَرى بنفس الوقت ، وأن تتحوّل شرايينك وأعصابك وخلاياك إلى نوافذ تسبر غور الأشياء وتفتش عن نقطة مضيئة في نفق طويل ومظلم . تلك امرأة تكتب بحسّها وبصيرتها ، تبصر أكثر من البصير ، تحاكي

بوجدانها الوجود والأشياء على طريقتها الخاصّة ، تتجاوز عتبة الحواس لتوغل عميقاً... عميقاً في مكنونات النفس واختلاجاتها .

تتمتع الدكتورة ريم هلال الشاعرة ببصيرة أخّاذة ورائعة ، وهي أيضاً نعمة من الله وهبَها لتلك المرأة التي وصلت بروحها إلى حدود المعجزة في قصيدتها " خلاص " ، إذ كأني أرى بها ذاك الرسول المبشِّر ، جاء ليبلِّغنا رسالته ، ويدعونا لنعيش الحياة بكل تفاصيلها ، هي دعوة لاستنشاق الحياة عن طريق الكتابة ، لقد أرادت أن تقول لنا : حين تتوقف الدنيا عن الحركة ، ويبهت ضجيج الحياة ورونقها ، ويخبو الألق ؛ أتوقف عن الكتابة :

حين تتغلقُ الدروب

حين تشاغبُ الشمس

حين يكسلُ القمر

حين تبهتُ الساعات

حين تستريحُ الأرض

سألملمُ أوراقي بِسَكينةٍ

وأغلقُ دواتي

وأنام !

أمام هذه اللوحة ، نحن نقف في محراب الشعر ، الشعر الحداثويّ ، وهذا النوع من الشعر هو أشبه بالومضة " الفلاش " ، إذ يضع داخل النفس البشريّة قنبلة موقوتة قد تنفجر بسرعة البرق ، وقد لا تنفجر ، وهذا يعتمد على قدرة الشاعر في التكثيف والإيجاز ، وفي نسج خيوط الصورة الفنيّة وحبكها ببراعة وحنكة ، حتى تترك لدى القارئ انطباعاً هائلاً ، وحيرة لا ندرك فحواها .

شعر د. ريم هلال يذكّر بمن سبقوها في هذا النمط من الشعراء كالشاعر المرحوم رياض الصالح الحسين وبندر عبد الحميد وغيرهما ممن أسسوا ما يشبه مدرسة شعرية خاصة بهما ، وإن كانوا قد نهلوا من ينابيع ومدارس الغرب في الحداثة الشعرية .

شعر د. ريم هلال هو ذاك الطيف الجميل الذي يزورك في النوم ، ليضع على وسادتك أجنحة من نور ، فتحلّق بها بعيداً .. بعيداً في فضاءات شاسعة ، تتحوَّل القصيدة لديها إلى ترتيلة عشق إنشاديّة ، تزدحم بالرؤى والتهاويم .

هي امرأة عاشقة لكل تفاصيل الحياة حتى البنفسج ، متأجِّجة حتى حدود النار ، محتقنة كالغيم حتى حدود الغيث ، لذلك جاء شعرها صورة صادقة لِما تعانيه من متاعب شتّى على كلّ المستويات في معترك حياتها كما في قصيدة " بداية وأفق " :

من عودِ الثّقابِ الذي
رُمِيَ في دمي
أطلُّ على الحرائق ..
من أوَّلِ وردةٍ بيضاء
تفتَّحَتْ في دفاتري
أطلُّ على البيادر

الشعر رسالة ، رسالة إنسانيّة يكتبها الشاعر بحياته ودمه ، وهذه الرسالة أشبه ببستان ورد مليء بالأزهار والأشجار المثمرة ، يسقيها بروحه وخميرة أفكاره ، لتشرئبَّ باسقةً نحو الفضاء الرحب ، وهي درب طويل ، قد يتعثّر فيه الأديب أو الشاعرة لفترة ، وينهض من بعدها بقدمين ثابتتين إلى أفق أرحب ، إذ لا تخلو بعض قصائد الشاعرة د. ريم هلال من الغموض وعدم الإفصاح عن مكنونات دفينة في أعماقها ، كما في قصيدة " مصادفة " :

في محيطٍ تَدانَيا
أخرجَ كلٌّ نجمةً
انغرسا متجاورَين :
– ليس سوى الريحِ والصخر

– فلنخضرَّ صبّارتَين

وفي قصيدة " خطوتان " تقول :

انطلقَ في البحر

أخذَ يحرِّكُ ريشتَه

صدَقَتْه شمسُ الغروب

ذَريني أضِف لوناً

التفتَ حائراً

لمح آخَرَ في الشروق

قد انطلقَ في البحر

وأخذَ يحرِّكُ ريشتَه

أما في قصيدة " بيروت " ، فتكثر الشاعرة من حروف الاستفهام ، والتساؤلات التي جاءت بقالب واحد ، كأنها تريد أن ينبت الجواب بالسؤال ، والعكس صحيح، وهذه سمة من سمات الخطاب الشعري :

صباح الخير يا بيروت

كيف صحوتِ من الشوك ؟

كيف اغتسلتِ من الريح ؟

كيف نفضتِ الكوابيس الرجيمة ؟

كيف استعدتِ أعراس الشجر ؟

...

من حمل الغسقَ إلى مرافئك ؟

من أراحَ الأشباحَ في دروبك ؟

...

أَجائعة ؟

دعيني أوقظ تنّوركِ

أَعطشى ؟

دعيني أُضئ ينابيعكِ

أَضَجِرَة ؟

تعالي نصالح الثلج

أَيتيمة ؟

دونكِ ثوباً لعيدكِ

هذه قراءة متواضعة في فضاء رحب .. في فضاء قصائد الشاعرة الغالية والعزيزة د. ريم هلال التي تتوق دائماً إلى التقاط خيوط المجهول ، والغوص .. في أعماق النفس ، النفس البشريّة التي تعكس مرآة الصفاء والنقاء الداخليين ، إذ تبحث عن الضوء ، وذلك من خلال الاحتقان الداخلي لحدود الرؤيا ، ضوء تلتقطه الروح بشفافيتها ، وهيامها الدائم على أطراف المستحيل ، في قصائدها مخاض ، وتحدٌّ ما تمتلكه بحسّ المواجهة والوقوف أمام الصعاب والأهوال بقولها في قصيدة " سلاحان":

وقف أمامي صَلِفاً

وفي يده قوس

بحثُ لنفسي :

لا أملكُ قوساً

باحت نفسي :

في دمكِ ضوء

فأطلقتُ عليه سهماً

ففَرّ

وفي قصيدة " في الأزل " رؤيا استشفافيّة للصراع بين الخير والشرّ ، بين النفوس النقيّة الأزليّة الخالية من أدران الحقد والبغض ، وأيضاً بين الطفولة وبراءتها ، و الشر الذي مثَّلته بآلهة الجمر ، تلك النفوس المستضعفة والمنساقة وراء الملذات والمغريات ، وهنا ترى الشاعرة حتمية انتصار الخير على الشرّ في نهاية المطاف ، جاء ذلك عبر رؤيا فلسفيّة صوفيّة رائعة بقولها :

ألقى الصغارُ سيوفَهم وبكوا

كسروها

كيلا يروها في الليل

ثم بعثوها دُمىً

ليبعثروا بها

أخيراً .. إنها الشاعرة المتمكّنة من أدواتها ، البارعة برسم صورها الشعريّة التي تتجاوز حدود المعقول لتضعك بأجواء رومانسيّة أخّاذة ، وتخطف من عينيك السكون لترميك على تخوم الدهشة والذهول .. أتمنى لها التوفيق والسعادة وتحقيق كلّ ما تحبّ .. وشعرياً أتمنى عليها أن تتحفنا بجواهرها الشعريّة الجديدة التي تنمُّ على تجربة وخبرة كبيرتين .. وفَّقَكِ الله .

المُنجَز الإبداعيّ " من مفكرتي " للأستاذة الدكتورة ريم هلال

الشاعر مالك رفاعي

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧٠٦٤ ، التاريخ ١٥/ ٦ /٢٠٠٩

إن المُنجَز الإبداعيّ في سلسلة الأستاذة الدكتورة ريم هلال المذهَّبَة بأدبها الرفيع.. تتصل بحلقاتها فكرةً فكرة .. وكتاباً بعد كتاب .. وقصيدةً عمقَ قصيدة .. حتى تتخاطفكَ كتاباتها وأنت في أقصى استقصاءاتك الزمنيّة لرحيلكَ عنكَ في سفر تستحضرُ الغربة فيه .. فلا تجد يديك إلا تمسُّ نبض الكتاب الذي يحملُ اسم الدكتورة ريم هلال .. لا لشيءٍ إلا لأنها الدكتورة المجاهدة المصابرة الرائية .. التي ألوَتْ ظلام الزمن .. وظلم الحياة تحت عرش جمالها الإبداعيّ مع أختها الزميلة الدكتورة رفيف .. رفَّ خيالُ الدكتورة ريم بإهدائيّة الكتاب الصادر للتوّ .. وهو يحمل عنوان " من مفكِّرتي " .. خواطر نثرية .. الإهدائيّة : " إلى الأستاذ مالك الرفاعي .. مع تقديري العميق لِما ألقى من اهتمامه ورعايته .. " .

أقسم لكِ بكل المقدّسات يا أستاذتنا المبدعة .. ريم .. بقدر ما أفرحَتْني ولادة كتابك .. بقدر ما أبكاني تقديمكِ .. فأنا وحقِّ الأدب .. أجدُني تحت رعايتكِ ومحطّ اهتمامكِ .. وأنا شخصيّاً مدان لكلّ من يكتب كلمة وضيئة تقرِّب إنساناً من أخيه .. تحت قبّة هذه السماء .. وفوق سجّاد هذه الأرض .. يتيقّن إنسانها أن السماء تُظِلُّ من يحبُّها والأرض تتسع لمن يعشق ترابها ..

وجُلُّ كتابكِ الذي بين يديّ وفي قلبي ، يمثِّل رسالة ريميّة لِما أشرتُ إليه .. وأصبو له .. هذه الرسالة .. هي ذات دعوة إنسانيّة .. تتعبقرُ فيها القِيَم .. وتتقدَّسُ في تضاعيفها الأخلاق .. وإلا فما معنى وجودكَ أيها " الأنتَ " .. إن لم تحتفِ .. بذاتكَ وتطهّرها من أدرانها وتغسلها من غبارها .. ؟!

الدكتورة ريم هلال .. وحدَها التي ترى ما لا نراه .. وتشهد على مالا نشاهد .. ولكن ببصيرتها الملاحِظة لغايات الناس .. وحركاتهم .. وسلالم حيواتهم لكن بدقّة.. والمعايِنة .. لأفكارهم .. وكتاباتهم وخفايا سطورهم .. لكن بحذر .. وبين الدقّة .. والحذر .. لا تتغيّبُ كفّة ميزانها النقديّة الراجحة بالعفو والصفح عمَّن أساءَ لها ..

كذلك .. لا تنسى أن تشير بالبنان إلى من وقف إلى جانبها ولو بكلمة طيِّبة .. أو موقف نبيل ..

وأمّا عن متمنّياتها : فهي تحلم بأن يتحوّل عملها " البصر والبصيرة " إلى دراما تلفزيونيّة لا من منفعة شخصيّة ، وإنما من أجل أن تصل رسالتها التي أودعَتْها إلى ما أمكنَ من البيوت .. وبرؤية جدّ فلسفيّة .. تطرح الإعجاب .. المدهِش .. والتساؤل المغاير .. الذي لا يبتعد إلا ليقترب :

" حين تختلف عن الكثيرين .. الكثيرين .. هل هذا يعني أنكَ من زمانٍ آخر .. وأنتَ داخلَ هذا الزمان .. ؟! من كوكبٍ آخر .. وأنتَ داخلَ هذه الأرض ؟! "

وفي القَبَس الإنسانيّ الذي ذكرتُه في بداية هذه السطور .. تقول :

" ما أجملَ أن تسلِّلَ إلى الآخرين قَبَساً ، وتجعله يحيا في نفوسهم ، مثلما يحيا في نفسِكَ أنت .. "

والكلمة الطيِّبة .. التي في البدء كانت ، فلها وليدتها في هذا السِّفر الإنسانيّ :

" بكلمة طيّبة بسيطة .. تستطيع أن تهدمَ جبالاً من الخصومات ، وتردمَ ودياناً من الأوهام ... ليتكَ تسارع دائماً إليها .. ولا تنتظرها من الآخر .. لأنكَ أنتَ .. لأنكَ أنتَ الأغنى ! "

وإذا ما عادت إلى مفكّرة أحلامها فتبوح :

" كلما مرَّ يومٌ ، ولم أخطَّ شيئاً ، حملتُ قلمي الأسود ، وشطبتُ هذا اليوم .. من دفاتر الذاكرة . "

وما حيرة أستاذتنا إلا حيرة كلّ ذي عقل .. منير :

" عليَّ هذا المساء ، أن أؤدّي خلال ساعة واحدة واجبين اثنين : أحدهما تجاه ولادة، والآخر تجاه وفاة .. أنا الآن حائرة أيها الزمان ما بين ضفّتيك .. "

وإلى الفكرة الأولى إيّاها .. التي عنيَتْ .. تضع كاتبتنا علامتها الفارقة : بين الإنسان الإنسان وبين الإنسان :

" شاسعٌ ما بين إنسان يعيش ليحبّ ، وآخر يعيش ليبغض .. شاسعٌ شاسعٌ هو ، كالفارق ما بين الحياة والموت .. "

والشيء الذي كان ملاصقاً لحيرتي .. وأسئلتي .. وأجوبتي .. واندهاشاتي كلّها وعلى مدى العمر الأدبيّ .. قدَّمَته لنا رائيتنا بهذه الرويّة :

" قد يسلِّمُ عليكَ أميرٌ .. فيتدفَّقُ الجميع إليكَ ليسلّموا عليكَ هم بدورهم .. بالرغم من أنك كنتَ تستحقُّ ذلك منهم قبلاً .. ما دمتَ قد استحققتَه من أميرهم .. "

اهنئي يا دكتورة ريم .. بما تكتبين وبما تعطين .. ولِما تصابرين وتجاهدين .. سبيلُكِ إلى العلا .. سبيلُ أبي العلاء .. وطه حسين .. ولا أدري إذا كنتِ قرأتِ قصيدتي بأبي العلاء :

ما أنتَ أعمى ولكن العماء بنا

نحن الذين انتهكنا حرمة الأدب

لئن حُجِبتَ عن الأنوار في نظر

فإن قلبكَ عنها غير محتجبِ

وإذا ما تساءلنا على مدى خارطة الأدب العربيّ .. كم نجد من لؤلؤة .. مثلكِ تمايزت شعراً .. وفكراً .. وثقافةً .. وإبداعاً .. وشهادةً وعطاءً ومجاهدةً ؟!

ألذلك يهجسُ لكِ قلبي شاعراً :

" أحبُّكِ أكثر ..

لأنكِ واحدةٌ

وهنَّ كثيرات "

كذلك .. أروح إلى حالي .. لأقرأ بكِ هذه القصيدة عرفاناً بما لكِ عليَّ وعلى من يقرأ ويكتب من أيادٍ شاعرة :

آنِسَةُ الدراري

لموحى الشعر فاتحةُ الخيال

تجلَّت في يَدَي ريم الهلال

تبسملت الحروف على رؤاها

وضمَّخَها الجمالُ من الجمال

سريرتُها بسيرتها استطالت

ورقَّتْ حالها في كلّ حال

تصوَّفت النجومُ على يديها

وذابت في سنى السحر الحلال

أخبِّئُ كلَّ ما اكتنزَت بقلبي

من الإيماءِ في كنهِ الجلال

أيا أستاذةَ الأدب الموشّى

وآنسةَ الدراري واللآلي

دعيني أقتبس منكِ المعاني

ففي غير المعاني لا أبالي

وأنتِ مسار أعمقنا شعوراً

وأنتِ مدارُ آفاقِ الخيال

أعاين في شذى الأسرار قلبي

لأنكِ سرُّ أسرار المعالي ..

إذا " بَرّيّتي .. رفيفٌ " فريمٌ

لها في الشعر عاصمةُ الجبال

من إيحاءات كتاب " من مفكِّرتي " للدكتورة ريم هلال

بسّام نوفل هيفا

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧٠٦٥ ، تاريخ ١٦ / ٦ / ٢٠٠٩

الأديبة المبدعة الدكتورة ريم هلال ، استهلَّت كتابها الصادر مؤخَّراً تحت عنوان " من مفكِّرتي " .. خواطر نثريّة .. بقولها :

" من مفكِّرتي خلال سنوات مضت .. اختلستُ لكَ قارئي هذه النصوص ، التي تراوحَت ما بين خواطر انتابتني ، وحكايات أؤكّد لفضولكَ أنها حقيقيّة الأحداث .. فهاتِ يدكَ .. وانطلق معي .. "

بهذا الصدد أقول : نعمَ المنطلق وخير الزاد فيما لذَّ وطاب وحسنَ قطافه وراق سماعه .. مما نقرأ ونلمس في تضاعيف هذه الخواطر .. إن هذا الكتاب على الرغم من صغر حجمه ، وعدد صفحاته التي لا تتعدّى /٩١ / صفحة من القطع المتوسط... كبيرٌ بمضمونه ، رفيعٌ بمستواه ، غنيٌّ بمحتواه .. هو عصارة جهد وزبدة فكر، تضيفه المؤلّفة إلى سلسلة إصداراتها التي سبقَت طباعة هذا الكتاب ، من كتب ودراسات وأشعار متميّزة ومفيدة ، إضافةً إلى ما هو مرتقَب في الآفاق المستقبليّة القريبة .

بورِكَت يدكِ التي خطّت وأبدعَت وأفادَت القارئ من غُرر حِكَمِكِ ودُرَر كَلِمِكِ ، فما أريد أن أعرض له الآن هو بعض الجوانب المشرقة والمحطات الدافئة والعيون الثرّة العذبة بينابيع سطورها وسرّ صمتها .. لنقرأ معاً هذه الخاطرة :

" ما أحوجكَ وأنتَ تقرأ غالباً ، إلى ما امتدَّ من الساعات والأيام ، كي تعثر على بعض العبارات الثمينة ، إذ إن الكتب بصفحاتها الكثيرة ، ليست سوى تراب كثير ، يتعذّر أن تعثر فيه غالباً على الدُّرَر . "

كم جميلٌ هذا الكلام ! إذ لا يحتاج إلى طول عناء لفهمه واستيعابه ، إنه يقدّم الحكمة والبسمة بمجرّد قراءته :

" منذ زمن بعيد وأنا أداوي خدوش الناس ، وجراحي نازفة ، وسأبقى ناذرة نفسي لهذا إلى زمن بعيد بعيد ، إلى ما بعد أن ينام صوتي ، ويضيء صمتي . "

دكتورة ريم : كتاباتكِ ، خواطركِ ، قصائدكِ ، همساتكِ ... المسكوبة على بياض الورق .. يضيء صمتها وينير وهجها بفعل ما تحمل من معنىً :

" ما صلة القربى رفيقي ، ما بين الألم والقلم ؟ هل هي أن أولهما .. مداد ثانيهما ؟ "

أقول : إذا كانت الكتابة أرقاً وسهراً ويقظةً .. وتذكُّر ماضٍ وإدراك حاضر وانتباهاً، ولربما انتباه قسري لمستقبل آتٍ .. يكون ما قصدتِه فعلاً هو كذلك :

" يتساءلون دائماً : هلا تسامحتِ مع الذين أساؤوا إليكِ ، عبر ليل حياتكِ الطويل ؟ أجيب دائماً : معيبٌ لمثلي ألا يتسامح ، وألا يغسل قلبه مراراً من كلّ ذرّة ضغينة قد تسوّد بياضه ، إلا أنني أستدرك متسائلةً : هل هذا يعني أن عليَّ أن أساوي ما بين المسيئين والمحسنين ؟ من الإجحاف أن أساوي ، من اللاعدل أن أساوي ، لأن كلاً في النهاية ، ترك صورته التي أرادها هو ، لا التي أردتُها أنا . "

أستاذتَنا الموقَّرة : إن كان ليل حياتكِ طويلاً ، فنهارات أيامنا ليالٍ طوال ، لا تعرف التسامح ، وإذا أصبنا ، لا نحسُّ التمييز بين المحسن والمسيء ، أو أن نعدل بينهما . فأيّ صورة نحياها ؟!

" كثيراً ما يتواصل معي قرّائي ، مبتغين الدنوّ من ينابيع سطوري ، وكثيراً ما ينهون تحاورهم معي متأسّفين ، لظنّهم أنهم شغلوا حيّزاً من وقتيَ الذهبيّ .. فأجيبهم بكلماتي أو بصمتي : وكيف كان لوقتي أن يصير من ذهب ، وكذلك لسطوري التي يسبكها ، لو لم أفتح أبوابي ونوافذي على ألوانكم ؟! "

نرجو ألا تكون ألواننا متطابقة في توافدها ، وألا تأتي وكأنها مستنسخة ، إذ عند ذلك لا يمكن التمييز بين ما يصلح منها وما لا يصلح ، فنفقد وقتَها عنصر المقارنة:

" لا داعي أن تسألني الصفح ، فأنا تجاه الإساءات جميعاً ، مصابةٌ بفقدان الذاكرة ."

تجاه تذكُّر الإساءات ، الذاكرة معطوبة . الدكتورة ريم ، لا تريد أن تنظر إلى النصف الفارغ من الكأس ، بل الملآن ، تنظر ببصيرة حادّة ودقيقة إلى الصور الجميلة والمشاهد الطيّبة ، لا تريد تشويه الذائقة بعكس ذلك .. ليس غريباً على إنسانة مثلها استطاعت أن تنزح عتم السنين وتهزم الظلام ، والخبر على مبتدئه دليل:

" لماذا لا ننسى الخطأ فيما بيننا ، مثلما ننسى العرفان بالجميل ؟ "

لقد كنتِ بحقٍّ ، المجاهِدة في سبيل الانتصار على الذات ، في تقديركِ للآخرين، والعرفان بالجميل ، بسيلِ تسامحكِ وتميُّز إبداعكِ .

حوار مع الأديبة د. ريم هلال

أجراه بسّام نوفل هيفا

نُشِرَ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧٠٨١ ، تاريخ ٨/ ٧/ ٢٠٠٩

عندما انتهيتُ من قراءة كتاب السيرة الذاتيّة " البصر والبصيرة " للأديبة المبدعة الدكتورة ريم هلال ، إضافةً إلى بعض مؤلّفاتها الأخرى ؛ رأيتُ نفسي تدفعني بشوقٍ وحماس شديدين لالتقاء هذه الإنسانة المجاهدة بحقّ ، هذه التي تحدّت مرارة ما واجهته ، فاستطاعت أن تنتصر على الذات بعزم وإيمان نابعين من إرادة صادقة صامدة ، قادرة على تحدّي الصعاب وإزاحة عتمات الجهل والجهلاء .. وهتك ظلمهم وظلامهم .. بنور الحقّ على دروب العلم والضياء .. جديرٌ بنا ونحن نقف أمام أولئك الذين كانت " ريم هلال " واحدة منهم ، أن نرفع لهم قبعاتنا بكل تقدير واحترام وفخر واعتزاز .. الدكتورة ريم هلال ترى بقلبها وإحساسها أكثر مما ترى حولها العيون المبصرة ، لقد عبّت في علوم اللغة من كلّ بحر وقلب ، ما انطوت عليه الكتب في هذا المجال باطناً وظاهراً ، ولم تألُ جهداً في اقتناء ذلك ، وأدَّبَت نفسها بكل الآداب حتى ظفرت بالمقصود وعثرت على المنشود ... التقيتُها في مكتبها ، حيث استضافتني ، وكان لي معها الحوار التالي :

– إذا انطلقنا من البدايات .. طيف الذكريات لديكِ ، وبفرح ، كيف يطالعنا ؟

حين كنتُ أعيش أحداث حياتي ، كان إحساسي يتبدل حيالها ما بين ألم وفرح ، أو فرح وألم ، بحسب كونها مؤلمة أو مفرحة . أما الآن ، وأنا أتذكرها ، وأستعيد أطيافها ؛ فيا لفرحي بها جميعاً ، مهما تباينت ، ما دامت قد أصبحت تشكل في حوزتي ذخيرة ثرّة ، أمتح منها مادة إبداعي . الأمر الذي يحملني على التردد في عدّها ذكريات ، إنما حاضر لا يزال يتموّج في داخلي .

- وصفكِ الدقيق والصريح المباشر في مذكراتكِ ، يجعل قارئها متفاعلاً معها وملتصقاً بأحداثها ، لِما تتركه من انطباع قوي وتأثير كبير في نفسه . ما تفسير ذلك؟

لا شك أن لموهبتي الأدبية التي حباني بها الله ، وتمرّسي في الكتابة خلال سنوات مضت ، دوريهما في وصفي الدقيق هذا ، وفي حمله المتلقّين على الانفعال إزاءه عند قراءته . لكن لا ينبغي التغافل بصورة رئيسة عن تشكيله تعبيراً مني عن دقة أحاسيسي وعمق انفعالاتي إزاء كل تجربة عشتُها ، وكل واحدة من جزئيّاتها وإن بدت هذه الأخيرة - للوهلة الأولى - ضئيلة الحجم ، لأن من يرهف لديه الإحساس والانفعال ، لا بد أن يستوقفه كل شيء في هذا الكون ، بدءاً من أكثره صغراً وضآلة.

- بصدد تمكّنكِ من امتلاك أدواتكِ التعبيرية واللغوية في تدوينك مذكراتك بدقّة ، هل ترين أنك أنجزتِ المطلوب ؟

هذه الصفحات التي قدّمتُ من خلالها " البصر والبصيرة " ، لا شك أنها تبقى محدودة أو معدودة بالقياس إلى تجربتي الحياتيّة التي عشتُها خلال تلك السنين . إنني لم أكتب منها سوى المعالم الأساسية ، وبعض ما تنطوي عليه من تفصيلات ، ما دام الكثير منها قد غاص في بحار النسيان ، والكثير الآخر قد طفا على سطح ذاكرتي فيما بعد . " البصر والبصيرة " لم تنتهِ بعد ، وسأظل أكتب فيها مستعينة بمادة ماضيَّ الذي لا أزال أستحضره ، وبحاضري الذي أعيش ، وغدي الذي سيأتيني بما أنتظر وما لا أنتظر .

- ألم تكوني مبكرة في كتابتك سيرتك الذاتيّة ؟ مع العلم أنه مضى عليها بضع سنوات ، ولم تتجاوز سنّكِ حينذاك العقد الرابع ؟

في البداية .. كنتُ أجبتُ عن سؤال كهذا ، بأنني أردتُ أن أبكر في نشر سيرتي الذاتيّة مبتغيةً تقديم رسالة مضيئة إلى البشر ، تتمثّل في حضِّهم على التفاؤل بثراء الحياة في حال ضنّها عليهم في مرحلةٍ ما . أما اليوم ، وبعد مرور سنوات على هذا النشر ، فلا بأس بأن أشير إلى سلبيّةٍ توضَّحَت لي بشأنه ، قد تمثَّلت في انفتاح المتلقّين على مفردات حياتي بصورة مباشرة ، بدلاً من اتجاههم أولاً إلى نصوصي

الأدبيّة الأخرى ، واستكناههم العناصر الكامنة وراءها ، أسراراً خفيّة بصورة متأنّية غير مباشرة . كما ينبغي أن أضيف أنني لو أخّرتُ كتابة سيرتي إلى نهايات حياتي، لبدوتُ أكثر موضوعيّة ، وإن شئتَ أكثر صدقاً ، لأنني حينذاك سأكون أبعد عن الحرج إزاء الذين بعدوا .

– البيت الذي ترعرعتِ في كنفه ، وتربّيتِ في أحضانه ، ماذا عنه ؟

ليت بابه الموصَد منذ سنوات ينفتح أمامي للحظات ، فأتسلل إليه ، وأمكث تحت سقفه دون عودة إلى حيث أنا ، أقلّب صفحات أيامي ، ما بين مرح طفولتي ، ورياحٍ هبَّت على نوافذي ، وورود بمختلف الألوان والعطور تفتَّحَت في ربيعي ، في حوض شرفتي الذي طالما ركنتُ إلى جانبه ، أدرس ، أجتهد ، أرسم خطوط غدي . حقّاً كم أنا في شوق إلى بيتنا القديم ، إلى شموس صباحاته ، إلى أقمار مساءاته ، إلى قرميده الساجد أبداً ، إلى المئذنة التي لا تزال تحرسه ، فليتني أستطيع يوماً أن أسلّم عليهم جميعاً ، على كرمة أمي ، ياسمينة أبي ، سلالمه الصاعدة نحو النجوم ، حيث كانت ملاعبي وإخوتي .

– ما صادفتِه في حياتكِ الدراسيّة من صعوبات ، كيف تصورينه لنا ؟!

لقد أدركتُ مبكراً أن الصمت هو خير تعبير من الإنسان عما في داخله ، ما دام قد شكّل تلك اللغة الشاملة التي لا تتحدد بالكلمات والعبارات ، لكن بما أنني أتسم بالصدق ، والقدرة على مواجهة ذاتي ، فدعني أصرح لك بتحوّلي إلى حدٍّ ما عن اتجاهي الصامت ذاك ، وبعدم تأخُّري في التعبير الكلامي ، إما بفعل ما فرضت كتابتي الأدبيّة ، وإما بفعل فقداني كثيراً من طاقتي على الصبر واحتمال المزيد من أعباء الحياة .

– ماذا تريدين القول لمن أراد أن يدوّن سطور القهر في مسيرة حياتك ؟

أقول : الآن .. وبعد أن رأيتُ فيكم فصولاً دخلت سيرتي ، وأغنَتها ، وأكملتها ، فَها أنا قد تصالحتُ معكم جميعاً .

– شعوركِ تجاه الذين يُبدون لكِ من الرضى ما هو قريب من الفرح ، وبين الذين نثروا الزهور في طريقكِ ؟

أيها الأخيار الذين التقيتُكم ، الباقون منكم والراحلون ، أيها الذين نثرتم الورود والضياء في طريقي : ليتني أستطيع يوماً أن أخطَّ سطوري حولكم ، على صفحات الشمس والقمر ، كي يقرأكم كل البشر .. كل صباح ومساء .

– كانت لكِ – كما علمتُ – تجربة طيّبة وناجحة في مجال الغناء . ماذا عنها ؟

حين طُرِحَ عليّ هذا السؤال مراراً ؛ كان مختصر إجابتي أنني سُعِدتُ به بدايةً ، لكن حين نويتُ أن أتخذه حرفةً ، تعقَّدَت علي ظروفه بدءاً من محيطي الأقرب إلى الأبعد فالأبعد ، إلى درجةٍ اضطرّتني إلى مغادرته آسفةً ، والعودة إلى المثابرة ثانيةً في متابعة دراستي . والجديد الذي يمكن أن أضيفه هنا بصدده ، أنني حين كنتُ أعيش عالم الغناء ، وضمن المرحلة التالية المذكورة ، كنتُ أشعر وكأنني في شتاء جليديّ ، أعاني من برده القارس وحيدةً في الطرقات ، بينما الناس جميعاً يهنؤون بالدفء في بيوتهم . كما أضيف أنني في تلك الأثناء فقدتُ رغبتي في الطعام بصورة ملحوظة ، نظراً لما رأيتُ في تلك المهنة ، وما يكتنفها من توتُّر وقلق ، ما هو أكبر بكثير من حاجتي إلى الطعام والشراب .

– كيف تتصرّفين حيال ما يُغلَق أمامكِ من أبواب لولوجها ومتابعة المسير والوصول إلى الهدف وتحقيقه مكلّلاً بالنجاح ؟

في البداية .. عليَّ ألا أستكين ، وأن أحاول فتحها بما أمتلك من وسائل وطاقات، فإذا لم أنجح برغم كلّ هذا ، فلا أرى غضاضةً في أن أنصاع لإرادة الله الذي ربما لم يشأها هو ذاته لي ، أو على الأقلّ ، أن يجعل أمرها في الوقت الحاليّ ، فأنصرف عنها إلى أبواب أخرى ، إيماناً مني بغنى الحياة .

– هل من صفحات في دفتر أيامكِ مصبوغة بالبرد والعتم لم تلقيها بعد في مجامر الزمان ؟

نعم .. هناك صفحات بعد أكثر عتمةً وبرداً ، قد أنشر بعضها في الوقت المناسب ، وبعضها الآخر .. قد أطويه في داخلي إلى الأبد ، لعدم ملاءمته للقصّ.

– ماذا عن شعركِ ، إذ صدر لكِ في مجاله أكثر من مجموعة ؟

صحيح أنه صدرت لي عدة مجموعات شعريّة ، وأن لديَّ الآن عديداً من المخطوطات الشعريّة ، لكن هذا لا يعني اقتصاري على الكتابة ضمن هذا الجنس

الأدبيّ فحسب ، بل لقد اتجهتُ إلى جانبه نحو كتابة النصوص النثريّة ، التي ربما رأيتُها أكثر قرباً من قرّائي ، وقدرةً على وصولها إليهم بصورة أيسر ، مع عدم خلوّها قطعاً من نبضيَ الشعريّ الذي يضفي عليها مزيداً من الرونق .

– ماذا عن اهتماماتكِ الأخرى ؟

في بداياتي .. كنتُ أمارس عديداً من الهوايات التي أملأ بها فراغي ، من تعلّم العزف على البيانو ، والرسم ، وحياكة الصوف ، إضافةً إلى الغناء الذي سبق وقوفي عنده . أمّا اليوم ، فبناءً على ما أصبحتُ أعتقده من ضرورة تفرّغ الإنسان للطريق الذي اختاره ، أو بالأحرى ، من ضرورة تفرُّغي لطريقي الأدبي ، وعدم تبديد أوقاتي فيما هو خارج عنه ؛ فها أنا أوزّع ذاتي بجانب كتابتي الأدبية ، ما بين القراءة الطويلة ، وسماع البرامج الثقافيّة ، والعمل على الحاسوب الذي يفيدني في الانفتاح على المزيد من المعرفة ، والإنصات إلى الموسيقا الكلاسيكيّة التي تحملني على التأمّل ، وممارسة الرياضة اليوميّة ، والمشي داخل البيت ، بعيداً عن عثرات الطرقات والغبار ، هذا مقابل عدم حرمان نفسي من سُويعات ترفيهيّة مع الأهل والأصدقاء .

– ماذا عن الفرادة المميّزة في محبتكِ لشقيقتكِ الدكتورة " رفيف " ؟

هذا هو السؤال الأصعب الذي يوجَّه دائماً إليّ ، لأن علاقتي برفيف ، دكتورتي الصغيرة أكبر من اللغة ، أكبر من الأخوّة والصداقة اللتين تجمعنا ، لذا أختصر إجابتي فأقول : قبل قدومها إليّ ، عشتُ خلال الإحدى عشرة سنة التي تفصل بيني وبينها زمنيّاً ، وأنا أحلم بطيفها ، وأطالب أمي بأن تأتيني بها . واليوم .. وأنا أحيا معها هذه التوأمة الروحيّة ، ليس من سبيل إلى أن أترجمها إلا بهذه السطور الصغيرة التي كتبتُها منذ حين :

وتران أخضران
رفيفٌ وأنا
في كلِّ صبحٍ
أغنيةٌ شذيّة

– ما الذي تريدين قوله أو إضافته في ختام حوارنا هذا ؟

أي قرّائي الذين أحبّكم حتى الأعماق ، وأرى فيكم أقرباء آخرين : لعلي أكون قد قدَّمتُ لكم سطوراً تستحقّ القراءة .

قراءة في كتاب " من مفكّرتي " ... للأديبة د. ريم هلال

غزوة عادل جبّور

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧١٠٩ ، تاريخ ١٧ / ٨ / ٢٠٠٩

لستُ بناقدة أدب ، ولستُ بناقدة أدباء ، إنما عاشقة للأدب الذي يدخل القلب دون استئذان ، ليشعر معه المتلقّي وكأنه كُتِبَ لأجله ... ولشدّة إعجابي بهذا الكتاب وكاتبته ، سمحتُ لنفسي بأن أكتب بضعة سطور تصفه من وجهة نظري ، وإن كانت لن توفّيه حقّه الإبداعيّ . تقول :

" كلما مرَّ يوم ، ولم أخطَّ شيئاً ؛ حملتُ قلمي الأسود ، وشطبتُ هذا اليوم من دفاتر الذاكرة . "

هذه الكلمات الآتية من أرض تنضح بالخصب ، هي للأديبة د. ريم هلال ، من كتابها الذي قرأتُه مؤخَّراً " من مفكّرتي " . وفي مقدّمة المفكّرة ، نجد دعوة صادقة من الأديبة لقارئها لأن يتعرّف إليها ، ويلقاها في دائرة الإنسانيّة التي تجمعها معه :

" هاتِ يدكَ وانطلق معي "

فبين خاطرة وأقصوصة تزيّنها عبرةٌ ما ، عاشتها وكتبَتها ، وبموسيقا لغة أحبَّتها وامتهنتها ، تنقلني معها من واقع فقدَتْ خلاله بصرها مستسلمةً إلى واقع استسلم لبصيرتها . ولأن المبدع وحده ، يقدّر قيمة الأشياء ببصيرته الثاقبة ، نتعلّم مع الدكتورة ريم قيمة الأصوات ، ونتذكّر من خلالها فنّاً لطالما نسيناه ، فنّ الإصغاء للآخر ، وفنّ الإصغاء للطبيعة :

" إذا كانت هناك فراسة الوجوه ، التي يتبصّر من خلالها بعض المتميّزين ، بأخيار البشر وأشرارهم ؛ فإن لديَّ أنا الأخرى فراستي التي لا تخيّبني ، إنها فراسة الأصوات، إذ تأمَّلْ كم هو الفارق واضح بين أصوات الوحوش الكاسرة وأصوات الحملان والغزلان ... "

فمرّة بعد مرّة ، تغريكَ الأديبة بالدخول معها عمقَ هذه التجارب ، ولربما تكون هي نفسها تجربتك في جانب من جوانبها ، إلا أن ما يزيد هذا الإغراء ، هو تساؤلات وطموحات ، تضعها الأديبة بين يديك بأسلوبها الأدبيّ . فعلى الرغم مما يشكّله الموت للإنسان من آلام ، فراق ونهاية حياة ، إلا أنه ضمن الوجه الآخر ، هو بداية حياة جديدة قد ترضي شغفه الدائم لحريّته وسكينته التي طالما حلمَ بها :

" ينوح الآخرون حين يرحل الإنسان عن العالم ، ويفرح هو وسعَ روحه المحلّقة نحو نجمة . "

وقد تأخذ حياتنا نفسها شكلاً من أشكال الموت :

" مثلما تتعدّد أسباب الموت الواحد ؛ تتعدّد أسباب الفراق ما بين اثنين ، ليعيش كلٌّ منهما ميّتاً في وحدته الجليديّة . "

هذا إلى جانب أن قوة هذا الإنسان تكمن بأن يضفي على حياته روحاً إن فُقِدَتْ هذه الروح ، ولذلك نرى من الأديبة دعوة لاستخلاص هذه القوة من أحلك الأوقات التي تعيشها النفس البشريّة فتقول :

" كلما أشرقَت على نفسي شمس ؛ انتزعتُ من زماني أيامي الليليّة ، أيامي التي بكيتُ فيها وحيدةً ، كما أنتزع من الثمرة قشورها . "

ولعل ما شدَّني إلى مفكّرة د. ريم أكثر وأكثر ، هو السلاسة الأدبيّة ، والحرفيّة الماهرة في وصف هذا الإيقاع المتناقض والمتداخل للحياة ، وكيفيّة التعايش معه ، وفي حقيقة الأمر ، أن هذا التداخل كثيراً ما سحرَ بني البشر وأنا منهم ، فبين فرحها بتصحيح خطأ ورد على غلاف كتاب صدرَ لها ، وبين حزنها لسماع نبأ دخول أحد أقربائها المشفى ؛ تعيش الأديبة صراع هذه اللحظة ، وتتساءل مع قارئها في إحدى خواطرها :

" هل عشتَ هذين الشعورين المتباينين اللذين تشكّلا حيالهما ؟ إن ما عشتُه حينئذٍ ، ليس سوى الحياة ، الحياة التي تبقى متشكّلة في كنفي وفي كنف كلّ من على هذه الأرض ، من ذلك المزيج الهائل ، المزيج المحيّر والمذهل من الألوان . "

هذا المزيج الجذّاب مع الأديبة ، يوسّع لك فضاءات إنسانيّة ووجدانيّة عميقة ، لتجد نفسك من خلاله محاطاً بأنوثة الكلمة وعبق زنابقها من جهة ، وبعنفوان الأنثى

وكبريائها من جهة أخرى . وعلى هذا فللأنثى رسالة لا تخبو شعلتها ، فهي تفيض على ما حولها نوراً وجمالاً وإنسانيّةً ، مهما تعدَّدت حالاتها ، إن كانت أمّاً أو زوجة أو حبيبة أو صديقة ، أو أديبة :

" وأنا أتصوّر الأرض بحاراً من الزنبق ، ليس سوى الزنبق ؛ فهل هذا يعني أنني أريدها ناصعة ؟ أم يعني أنني أنا أمتلك روحاً ناصعة تملي عليّ أن أرسم ما أتصور؟ "

وفي أخرى تقول :

" أنا لست مفترسة مؤكّداً ، لكنني لا أسمح لأحد بأن يفترسني . "

ولهذا فإن هذه الأنثى ، ما زالت تواجه صراع الحياة الأزليّ بين الحقّ والباطل بسلاحين .. فهي لن تتخلى عن روحها النقيّة المعطاءة أبداً ، وبذات الوقت ستثور دائماً بوجه أيّ خطأ يطال قِيَمَها وأخلاقها الإنسانيّة :

" لأنني والباطل دائماً على خصام ، بل إنني أسعى إلى أن أكون دائماً كذلك ، لا تحاول مطلقاً أن تهذّبني حياله . "

إن هذه الصراعات والاختلافات التي يعيشها الإنسان مع البقيّة ، وما تحمله من ألم وغربة عمّا حوله ؛ تتحوّل لدى المبدع إلى فنّ جديد ، تتجلي معه حقائق وأمور قد نكون عرفناها جميعاً ، إلا أننا لا نملك الجرأة ولا الصراحة الفكريّة لقولها ، ولا البراعة الأدبيّة والفنيّة لعرضها :

" ما صلة القربى رفيقي ، ما بين الألم والقلم ؟ هل هي أن أوّلهما مداد ثانيهما ؟ "

لا شك في أن كتاب " من مفكّرتي " تجربة إنسانيّة غنيّة تثري قارئها ، وما يميّز الإبداع الأدبيّ فيها ، هو تقديمه بأسلوب واضح صريح لا يخلو من البلاغة والموسيقا اللغويّة التي تقرّب القارئ منها ، وتدخل قلبه وفكره ببساطة . وبرأيي الشخصيّ ، هكذا يجب أن تكون رسالة الأديب .. شكراً د. ريم .. أمتعتِ قارئكِ .. وزدتِه الكثير حين اقتربتِ منه وخاطبتِه بلغة الروح .. وارتفعتِ نحو السماء السابعة .

مداخلة الدكتورة ريم هلال .. بشأن سؤال طرحته الإعلاميّة هدى سلّوم
على مجموعة من الأدباء حول علاقة المعاناة بالإبداع
نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧١٥٣ ، تاريخ ٢٢/١٠/ ٢٠٠٩

مثلما أن النار تحرق ، وبالمقابل تبعث الدفء والضياء ، كذلك المعاناة البشريّة التي تؤلم ، والتي إن لم تجنح بصاحبها نحو الاستسلام أو الانحراف ؛ فإنها لا تلبث أن تحفّز ما لديه من طاقات إيجابيّة ، من شأنها ربما أن تعتقه بعيداً عن الظروف القائمة التي ألهبَتْ حياته ، وتجعله يتبادل مع آلامه الدور ، لتصبح هي المنهزمة أمام انتصاراته . ولا ينبغي أن يُفهَم دائماً من المعاناة المذكورة ، اقتصارها على الإعاقة الجسديّة بكل إشكالاتها ، بل هناك من الآلام ما تكثر حكاياتها وألوانها كثرة البشر الذين يعيشون على هذه الأرض . إننا إذا ما استثنينا – على سبيل المثال – المعرّي الذي أبدعَه كفُّ البصر ، وبتهوفن الذي أبدعَه الصمم ، وهيلين كيلر التي أبدعَها كفُّ البصر والصمم والبكم ؛ فهناك الخنساء التي أبدعَها فقدُ الأخ ونزار قبّاني الذي أبدعَه فقدُ الأخت ، وبودلير الذي أبدعَه فقدُ الأب ، وطاغور الذي أبدعَه فقدُ الأم ، وكازانتزاكي الذي أبدعَه النفور من قسوة الأب ، وحنّا مينه الذي أبدعَه الفقر ، هذا إلى جانب سواهم من المبدعين الكثيرين الذين تكمن وراء كلّ منهم حكاية تخصُّه وتميّزه . وبذلك إذن .. ما علينا إلا أن نردِّد قوله تعالى " عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم " .. ما علينا إلا أن نؤكّد مبدأ النسبيّة التي لا ترى صورة مطلقة خالصة في أيّ أمر .. ما علينا إلا أن نؤكّد نظريّة أدلر التي ذهبت إلى ما يحاوله البعض من التعويض عن مركَّب النقص لديهم .. إنه ليس أمامنا إلا أن نستدعي آلامنا ، ونقيم لها مراسم الاستقبال الجميل كما لو أنها زائرة جميلة ، لِما تحمل إلينا غالباً من عطايا ثمينة تُغنينا وتُغني البشريّة جمعاء .

ريم هلال .. أدب الروح والورق

أحمد علي هلال

نُشِرَتْ في مجلّة جهينة – دمشق ، العدد ٥٤ ، التاريخ تشرين الثاني ٢٠٠٩

تتقارب التجارب الإنسانيّة في مشتركات دالّة ، وفي ظلالها الوارفة تتواتر مآثر تتجدّد بتجدّد شرطها التاريخي والمعرفيّ ، لنطلّ على دورتين متشابهتين في سياق الزمن ، ومكتنزتين بالمعنى العميق ؛ فإذا كانت تجربة الأديبة د. ريم هلال ، تستحضر في سياقها ودلالتها تجربة الأديب المصريّ د. طه حسين ، عميد الأدب العربي ، فإن كلتا التجربتين – مع اختلاف الظروف – لا تحيلان فقط إلى مجرد فقدهما البصر ، بل إلى البصيرة التي فتحت أمامهما الآفاق الرحيبة ، الأدبيّة والإبداعيّة ، مبصران في أزمانهما المختلفة ، وعلامتان مكتفيتان بحضورهما الأدبيّ– المعرفيّ ، ولا سيما بتلك الدلالة الإضافيّة ، أي أن تختار الأديبة ريم هلال طه حسين موضوعاً لأطروحة الماجستير ، بعنوان " المنهج النقديّ عند طه حسين " حسماً لعنوانات أخرى منها ما يتعلق بالأسطورة في شعر الشعراء التموزيين ، ومنها ما يتعلق بالحركة النقديّة حول روائيّ ما !.

البصر والبصيرة :

والحال أن ثمة تجارب عديدة مثّلَها مبدعون وأكاديميّون في تحدّي الإعاقة ، في الشرق والغرب . لكن ما يميّز تجربة د. ريم هلال الأدبيّة والإبداعيّة والحياتيّة ، خصوبتها الإنسانيّة ، وتواتر معاناتها وانفتاح حسّها النقديّ والإبداعيّ في أتون كفاحها لنيل أعلى الدرجات العلميّة ، فهي البصيرة حقاً بمستقبل أخذَ شكل الحلم يوماً ، لكن الواقع الذي صنعته بإرادتها ورؤيتها ، قد جسَّدَ حدوسها ، برغم تواشج الألم والفرح والمفارقات الإنسانيّة الدالّة في تجربتها وسيرورة إبداعها الشعريّ والنقديّ. هكذا تأخذنا سيرتها الذاتيّة المنضوية في كتابها " البصر والبصيرة " إلى مكوّناتها المعرفيّة ، اكتشافها ذاتها الشاعرة ، ومحطّات طفولتها في اللاذقيّة ، كما دراستها وعلاقتها بمدرّسيها ، بيتها ، حارتها ، صديقاتها ، في مناخ حميم من سرد كثيف ، مناخ روائيّ تتزاحم فيه التفاصيل والجزئيّات ، لتفصح عن أنماط من العلاقات

الاجتماعيّة والمواقف الأخلاقيّة ، بل المواقف الطريفة التي تنامى في ظلّها حسّها الاجتماعيّ الناقد ، دون أن تغفل عن الحكاية الأساسيّة : رحلة الألم والمعاناة التي ابتدأت باكتشاف ضعف البصر ، ومحاولات العلاج المستمرّة . لكن ذلك لن يشكّل لديها عائقاً يحدّ من طموحها ، ومن توثُّب روحها لتتفوّق وتتطلّع إلى متابعة دراستها العليا ، فقد كانت تنصت وهي طالبة في عامها الجامعيّ الأول لأحد أساتذتها وهو يشجّعها على متابعة دراساتها العليا .

في البصر والبصيرة ثمة حكايات تروي قصّة كفاحها ، رحلات العلاج المضنية : " من خلال تنقّلاتي بين الأطبّاء ، لم أعُد أتذكّر ما يمكن الوقوف عنده سوى أمر واحد : فحين شرع الدكتور " ر " بدمشق في معاينتي المبدئيّة ، أشعل لي عود ثقاب، فتراجعتُ باكية مذعورة ، لظنّي أنه سيحرقني ، لكنه سرعان ما نفى ظنّي بقوله إنه لا يتقصّد سوى معرفة ما إذا كنتُ أرى اللهب أم لا " . ذلك هو الشطر الثاني من طفولتها الذي تحوّلَت فيه شعلة الطبيب التي أخافتها إلى نيران عاتية نهشت خضرة أيّامها ، وذهبت بنقائها ، كما تقول ريم هلال وهي تستعيد تلك الأحداث بأبعادها الدراميّة ، وانعكاس ذلك كله على قدرتها على الكتابة ، وتبيّن لها أنها في كلّ تجربة ، لا ترى سوى أطياف ، لكن أقصى ما كانت تهدف إليه كما تقول هو تحوُّل الكتابة والقراءة إلى سبب رغبتها في الحياة ، إلى عالمها وضيائها .

ثمة حافز أيقظ لديها موهبتها في الغناء ، وتدريبها عليه ، إنها أمها التي وجدت تشابهاً ملحوظاً بين صوت ابنتها وصوت فيروز وعفاف راضي ، فضلاً عن جهود أخوالها في تدريبها ، لتغنّي لأول مرة بمناسبة تدشين سدّ الفرات ، تموز ١٩٧٣ ، فيصرّح أحد القائمين على الاحتفال بعبارة مثيرة للانتباه " صوتها رهيب " ، ويعقبه قول لأحد أعضاء لجنة الحكم في برنامج " مسرح المواهب " : " إن صوت ريم أجمل من صوت مطربة مشهورة سمّاها ... لكن هذا لا يعني الآن شيئاً على الإطلاق ، لِما ينبغي أن تقوم به ريم من تدريبات مستمرّة وحفظ أغنيات جديدة لمطربات ومطربين آخرين ، وإحاطة بعلم الغناء بغية صقل الموهبة الخام التي تمتلكها " . وهكذا أصبحت لها إطلالة تلفزيونية عام ١٩٧٦ ، وأخذت الإذاعة تبثّ أغنياتها ، لكنها ما لبثت أن تجاوزت عالم الغناء والتدريبات والأغنيات التي تدفّقت

عليها من الملحّنين ، واحتفالات المركز الثقافيّ ، والجمهور ، لتسعى إلى شهادتها الجامعيّة ..

وثمة موهبة أخرى كانت تنمو ببطء ، إنها موهبة الشعر ، التي بلورتها مكابداتها وصراعاتها مع ظروف استثنائيّة ، لتصدر لها عام ١٩٩٥ مجموعة شعريّة أولى بعنوان " العرّافة " بمقدّمة لافتة من الأديب حنّا مينه ، وتحظى بلقب شاعرة من وزيرة الثقافة الدكتورة نجاح العطّار آنذاك ، إذ كتبت لها : " موهبة رائعة تستحقّ التشجيع والنشر .. إذا أرادت الشاعرة ذلك " . أما ريم هلال ، فقد وجَّهت الإهداء في مجموعتها إلى أختها رفيف ، إذ تقول : " إلى رفيف قارئتي الأولى .. إلى رفيف شقيقةً وصديقة " . هذا إذا عرفنا أنها – ريم هلال – تشكّل لشقيقتها قدوة ، ما دامت تماثلها في وضعها الصحيّ ، وتجد في تجربتها الحياتيّة الناجحة ما يلوّح لها بضرورة التقدّم ، وعدم الحذر من العراقيل التي تمكّنَت ريم من اجتيازها ، فرفيف مثيلتها في التفوّق وتحدّي الإعاقة والطموح . وهكذا توالَت مجموعاتها الشعريّة التي تكثّف إحساسها بالوجود والحياة والنزعة الإنسانيّة العالية ، وكأنها بذلك تترجم ما سمعته يوماً من كلمات بليغة من مسؤول متميّز في جمعيّة المعوقين باللاذقيّة مايك عبد الله : " من أنتَ ؟ هذا لا يعنيني .. أنتَ تتألم هذا يكفي – الناس مرآتك ، على وجوههم يُرسَم ما يُرسَم على وجهك وقلبك – ارمِ بهفوات الإنسان بعيداً .. فما يهمّ هو جوهره " . وذلك ما عزَّزَ رؤيتها لضرورة امتلاك الأديب – كما تقول – التجربة العميقة ، أو ما ينبغي أن يقول قبل امتلاكه القلم والقدرة على رصف الكلمات . ومن تلك الأرض ، أرض جمعيّة المعوقين ، امتلكَت القدرة على التأمّل والغوص والنظر العميق إلى الأشياء والأسماء ، فتعلّمَت ألا تخاف الموت ، بل أن تطمئنّ إليه ، ما دام بإمكان الإنسان – كما تذهب – أن يكتب لنفسه الخلود بما يترك خلفه من ظلال مضيئة .

التحدّي والمأثرة :

إن تصميمها للحصول على درجة الدكتوراه ، برغم المصاعب والعقبات ، كان نموذجاً فريداً يعكس شخصيّة متفرّدة ، إذ كان بحثها ، بل عنوان أطروحتها حَدَثاً في جامعتها ! .

وهي إذ تروي معاناتها ومفارقات تعيينها معيدة ، لم ترضخ لليأس ، على الرغم من صوت والدها نصف المتهدِّج ، وهو يعبِّر لجيران كانوا في البيت ، عن حزنه لاحتمال تعذُّر تعيينها بسبب وضعها الصحيّ . لقد صرّحت بطريقتها : " ماذا يريدون ؟ عينين سليمتين ؟ يدين سليمتين ؟ رجلين سليمتين ؟ إذن ماذا بالنسبة إلينا نحن ؟ ماذا بالنسبة إلى قدراتنا الأخرى ؟ وإنجازاتنا التي حققنا ؟ ما ذنبي في صنع ما لم يُرضِهِم مني ؟ ... أليس هذا هو شعور الطفلة الجاهليّة ما بين وأدها وقضائها؟ ! " .

أرجوحة الحياة :

وهكذا تسنّى للأديبة ريم هلال في مرحلة الماجستير ، اختيار عنوان أطروحتها ، لتحقق ما حلمت به في سنتها الجامعيّة الأولى ، أي الرد على كتاب " في الشعر الجاهلي " لطه حسين ، قدوتها الذي استضاءت به ، ربما لتفارقه بالمعنى النقديّ ، ولتكوّن رؤية جديدة لِما وضعه عميد الأدب العربي . وبعد درجة الماجستير ، مُنحَت الأديبة ريم هلال درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز ، لتبدأ رحلتها في التدريس وإعداد أجيال جديدة ، تغذّي فيهم نزعة الطموح والتطلّع إلى الحياة بثقة ، فأمامهم قوة مثال أديبة الروح ، ذات البصيرة المسلّحة بالجرأة والحلم ، واليقين ، شاعرة تتبصّر ، تقدّم مآثرها ، سطوراً جميلة باذخة المعنى ، ثريّة الدلالة ، وتقدّم ذكرياتها الإبداعيّة صورة للمستقبل ، فهي تعترف بأنها لا تشعر بأيّ غضاضة من أن تفتح بابها على معرفة تتأتّى إليها من طلابها ، لتشكيل هذه المعرفة كذلك جداول زرقاء تنسكب في بحيرتها. وعندها أن الذي لا يرى بعينه هو الذي يرى . وتتساءل : " هل عليّ أن أساوي ما بين المسيئين والمحسنين ؟ من الإجحاف أن أساوي ، من اللاعدل أن أساوي ، لأن كلاً في النهاية ، ترك صورته التي أرادها هو ، لا التي أردتُها أنا " . كذلك تقول : " ليس ضروريّاً أن أحظى بالنصر .. في معاركي جميعاً أرجوحةَ الحياة . " . هنا في مؤلَّفها التالي " من مفكّرتي " تبوح الأديبة بمفكّرتها ، بهواجسها، بشأن الموت والحياة ، بشأن البصر والتبصّر ، بشأن أشيائها وخصوصيّاتها ، تستذكر مآثرها ، دروسها ، ثمة فلسفة تشفّ عن رواية الحياة ، أليست الحياة بذاتها رواية نعيشها ؟ ولكن عبقريّة الأمل هي صورة حياتنا المشتهاة . هنا تقف الأديبة د.

ريم هلال ، على مسافة رؤيا ، على مسافة حكاية جديرة بأن تُروى ، ولا سيما بنهاياتها السعيدة ، إنها سعادة الوعي التي تفجّرت من ينابيع صافية ، لتكسو كوننا ، شعريّة أرواحنا ، وبكثافة نبيلة ، شعريّة روح أدبية متعدّدة ، كان اليأس خسارتها الوحيدة ، وكان البوح جسارتها الأثيرة ..

جماليّات اللغة وكثافة المعنى في المباشرة السرديّة

الدكتور وفيق سليطين

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧١٦٠ ، التاريخ ٢٠٠٩/١١/٢

في كتابها الصادر حديثاً عن دار المرساة ، تقدِّم ريم هلال بعض ما انطوت عليه مفكّرتها ، وتمدُّ لقارئها من بين السطور ، يداً مبسوطة نحو مزيد من التواصل الحميم. ولا تخرج يد الكاتبة في واحدة من دلالاتها الممكنة ، عن كونها يد اللغة التي تأخذ بنا إلى أنفسنا ، بعد هجران طويل يجعلنا خارجها في تصحُّر المعنى ، وجفاف القيمة .

ما تقدِّمه ريم هلال ، لا يتصل بعمل المفكِّرة المحايد تجاه الأحداث والتفصيلات والوقائع المختلفة المودَعة في سلّة الحفظ والتدوين ، بل هو شيء آخر مختلف ، موصول بحرارة الداخل ونبض الأعماق ، ينطلق من هناك ، ويسري إلينا في تيّار هادئ لا يلبث أن يسري فينا لنكون خارجه وداخله معاً ، أي قناة للاستقبال والبثّ ، وجزءاً من عمل التيّار الذي يجدِّد عمله فينا ، من حيث نغدو أماكن جديدة للتوهّج والاحتراق .

هكذا تتجدَّد الأماكن وتتعدَّد ، ذلك أن الكاتبة تسكن في اللغة التي تسكننا بدورها، فنغدو أجزاءً متضمَّنة في مفكِّرتها ، أو لحظات منها . عمل المفكِّرة هنا لا يتقلّص أثره في حدود الذات ، بل ينفتح على الذوات ، ويفتح في كلٍّ منها مفكرتها الخاصّة ، ليكون القارئ بعضاً من المقروء . يقرأ ذاته في مفكّرة غيره ، ويتيح لغيره أن ينسرب في مفكّرة ذاته ، كأن ذلك ضربٌ من العدوى الدائرة في انتقالها المتناوب ، الذي يزدوج معه المتلقّي ، بين كونه محلاً لفعلها ، وفاعلاً لها في آن معاً .

بلغة نقيّة مقتصدة بعيدة عن بلاغيّات التجميل والبهرجة : تفتح ريم مفكّرتها علينا، ويعني ذلك أنها تعيد تحيين ما كان بفعل ما تنهض به لغة السرد في الآن . وهذه المسافة التي تقع بين الحدّين هي مسافة للتأمُّل ، تعصم من الانفعال المباشر للحدثيّ والآنيّ ، وعندما تراه من تلك المسافة ، تعيد شحنه بفتنة التخيُّل وألق المعايشة الجديدة ، وهي في الوقت نفسه مسافة لكثافة المعنى الذي يحتلّ الصورة بتموّجاته المتغايرة ، بين زمن المرور ومسافة تشتغل فينا ، بين انفتاح مفكِّرة الكاتبة علينا ، وانفتاحنا نحن بوساطتها على مفكّراتنا وأغوارنا . نحن على هذا النحو ، لا نقرأ فقط ، بل إننا نكتب هذا المقروء ، ونضيف إليه ، ونفتح بين أثنائه كوّة صغيرة ، نطلُّ منها على أنفسنا . هكذا تغدو التجربة فعلاً مضاعفاً كتابةً وقراءةً ، وتقطُّعاً من الالتحام والافتراق بين القارئ والمقروء .

ومما لا شك فيه ، أن هذه المباشرة الآسرة تعلّق حدود الفصل بين المواقع والجهات ، ومتقابلات الأداء اللغويّ . وهو ما يحرِّر طاقة التوهّج ، ويزيد في حرارة الفعل ، ومرونة القناة . ومن جليل أثر هذه الكتابة أنها تنهض في مقاومة زمن التسابق المحموم على الحيازة ، والانغمار في لجّة الشيء ، فتحاول لجمه بقوة النص على المعنى ، والإلحاح على العمق التأمُّليّ ، لردِّ ما في الخارج على الذات ، ورؤيته بعين الداخل ، ليكون ونكون معه ، على مستوى إنسانيّتنا المضيَّعة .

لا أخفي أنني نظرتُ خلسةً في مفكِّرتي ، بينما كنتُ أقرأ في مفكِّرة ريم هلال ، وأحببتُ أن أقدِّم لها الآن ، من هنالك ، من عمق ما انطوت عليه تلك المفكِّرة تجاهها ، شيئاً ما يليق بها ، بعد نحو ثلاثين عاماً من صداقةٍ ، ما تزال جذوتها تعملُ تحت الرماد .



شهادة تقدير

السيدة **الدكتورة ريم هلال**

نشكركم ونثني على جهودكم المتميزة التي بذلتموها

في مجال التمكين للغة العربية، والمحافظة عليها، والاهتمام بإتقانها

والارتقاء بها، تعزيزاً للانتماء القومي وحفاظاً على الهوية الثقافية لأمتنا العربية

متمنين لكم دوام التوفيق و اطراد النجاح

محافظ اللاذقية
الدكتور خليل مشهدية

جاء في حوار مع الموسيقار زياد عجّان

أجرَتْه معه د. رفيف هلال

نُشِرَ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧٣٢٣ ، تاريخ ١ / ٧ / ٢٠١٠

– وماذا عن أعمالكَ الموسيقيّة الأخرى التي أنجزتَها خلال حياتك ؟

حين بدا لي أنه ندر جداً التأليف الآليّ الموسيقيّ عند العرب ، أي الذي يشكّل أعمالاً موسيقيّة لا غِناء فيها ؛ ارتأيتُ أن أتخذ شخصيّاً هذا الاتجاه في تأليفي ، أملاً في أن أثري به المكتبة الموسيقيّة العربيّة ، فألَّفتُ ضمنه ثلاثة وثمانين وثلاثمئة مما يُسمّى بالسماعي ، وثمانية وثلاثين مما يُسمّى باللونغا ، وستة عشر مما يُسمّى بالبشرف ، إضافةً إلى ثلاثمئة فونتازيا . هذا إلى جانب ما قمتُ بتلحينه من قصائد وموشحات ، وما يُسمّى خطأً عند المصريين بالطقطوقة ، لأن التسمية الصحيحة هي الأهزوجة . وهناك عمل لي يمكن أن أعدَّه قد شكَّلَ اتجاهاً خاصاً وجديداً في التلحين ، وهو تأليفٌ موسيقيٌّ لا غِناء فيه ، استوحيتُه من مجموعة شعريّة بعنوان العرّافة للدكتورة ريم هلال ، ذلك لأنني حين استلمتُ هذه المجموعة ، وتعمّقتُ في قراءتها ، وجدتُ أنها أحاطَتني بجوٍّ جديد غير مألوف ، وحين اندفعتُ إلى التلحين ضمنها ، كان ذلك بعد أن تساءلتُ ما إذا كان بإمكان الناس أن يستوعبوا آفاقها ؟ نظراً لحاجتها إلى سويَّة رفيعة من القرّاء ، فانتهيتُ إلى تأليف موسيقا من وحيها ...

تحقيق صحفيّ حول أدب السِّيرة الذاتيّة

أجرَتْه هدى سلّوم وريم ديب

نُشِرَ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧٤٠٢ ، تاريخ٢٦/١٠/ ٢٠١٠

مداخلة د. ريم هلال :

شكّلَت السيرة الذاتيّة الجنس الأدبيّ الذي ربما يفوق سواه في اجتذاب القرّاء واستهوائهم ، لِما تنطوي عليه الأعمال التي يتم إبداعها بهذا الصدد ، من تفاصيل وجزئيّات تتعلق بحياة مشاهير الأعلام ، وتحفّز الفضول لاستيضاحها . وقد عُرِفَ

أدب السيرة الذاتيّة عند القدماء والمحدثين من العرب وغيرهم ، لكن ما أودُّ الإشارة إليه من خلال تماسي معه ومع أعماله العديدة التي قرأتُ ؛ هو أنه ليس بالضرورة لكل سيرةٍ ذاتيّة أن تُسطَّر ، وليس بالضرورة لكل سيرة ذاتيّة أن تنطوي على تجربة حارّة وعميقة في الحياة ، فكم هناك من كبار قد كتبوا سِيَرَهم التي لا تستحقُّ سطحيّتها تضييع الوقت في قراءتها ، ولا سيما حين لا يُفترَض بهم بالرغم من عملقتهم ، أن يضيفوا إليها من إبداعهم وخيالهم . وبالمقابل كم هناك من مغمورين قد امتلكوا سِيَرَهم التي يجدر بها أن تُكتَب وتُنشَر وتُقرَأ ، إن لم يكن من خلالهم ، إذا لم يحسنوا حمل القلم ، فمن خلال آخرين سواهم ينوبون عنهم في تأدية هذه المهمّة الجليلة .

فصل بعنوان " ريم هلال الأديبة التي نافست المبصرين "
من كتاب " أديبات عربيّات " ، الجزء الخامس ، عيسى فتّوح ،
دار الميراد ، دمشق ، ٢٠١١

الأستاذة الدكتورة ريم عبد القادر هلال ، أديبة وشاعرة وروائيّة وأكاديميّة ضريرة ، وُلِدَت في اللاذقيّة عام ١٩٦٠ ، واستطاعت برغم الظلمات التي فرضها القدر عليها، أن تشقَّ طريقها في الحياة ، وتحصل على شهادات الليسانس ١٩٨٣ ، والماجستير ١٩٩٢ ، والدكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها ١٩٩٨ من جامعة تشرين في اللاذقيّة ، وتغدو أستاذة النقد العربي الحديث في الجامعة التي تخرَّجَت منها ، وكان موضوع أطروحتها في الماجستير " المنهج النقدي عند طه حسين " ، وفي الدكتوراه " حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي " ، شأنها شأن سواها من المبصرين .

لقد اعترض طريقها الكثير من العقبات والمشاقّ والصعوبات ، نظراً لفقدها إحدى أهم الحواس عند الإنسان ، ألا وهي البصر . لكنها عوَّضت عن هذه الحاسة بنمو حواس أخرى عندها ، وبذلك استطاعت أن تشقَّ طريقها الشائكة خطوة خطوة ، ومرحلةً مرحلة ، بتفوُّق لافت للنظر .

تعترف الدكتورة ريم بأنها لم تتابع دراستها في مدرسة خاصة بالمكفوفين ، لعدم توافرها في اللاذقيّة ، بل في مدرسة للمبصرين ، وكانت تضطرُّ إلى تقريب الدفاتر والكتب حتى تكاد تلتصق بعينيها ، وهي جالسة قرب نافذة مضاءة بنور الشمس نهاراً ، ومصباح كهربائيّ قويّ ليلاً ...

وتقول إنها تأخَّرتْ في الكتابة وإصدار الكتب لسببين أولهما : هو أنها منذ طفولتها كانت تحلم بأن تحترف الغناء ، لامتلاكها صوتاً جميلاً ، وفعلاً اشتركت في عدد من الحفلات الفنيّة ، وصُنِّفَت مطربةً ، بعد نجاحها في مسابقة إذاعيّة لأصحاب المواهب ، وسُجِّلَتْ لها عدة أغنيات في الإذاعة السوريّة ، لكنها عدلَت عن احتراف هذه المهنة لتعارضها مع ظروفها وطموحاتها الأدبيّة .

أما السبب الثاني : فيعود إلى انشغالها بتحقيق تفوقها في الدراسة الجامعيّة ، والحصول على أعلى الشهادات ، كي تثبت من خلالها أن المعوق يمكن أن ينافس الأسوياء ويسبقهم إذا هو امتلك العزم والإرادة والتصميم ... وكان طه حسين قدوتها ومثلها الأعلى ، ولذلك ما إن فرغت من الدراسة حتى راحت تنشر كتبها تباعاً ، فأصدرت ثلاث مجموعات شعريّة هي " العرّافة " ١٩٩٥ ، " كل آفاقي لأغنياتكِ " ١٩٩٧ ، " اسمي والأرض " ٢٠٠١ ، ورواية واحدة " البصر والبصيرة " ٢٠٠٢ ، عن دار الآداب في بيروت ، قد رَوَتْ فيها سيرتها الذاتيّة ، وحكايتها الشخصيّة على درب الحياة ، منذ ولادتها ، حتى حصولها على الدكتوراه بكل دقائقها وتفاصيلها، وبكل ما انطوت عليه من الآلام التي لا بد أن تنجم عن وضعها الخاص ، والأفراح التي كان لا بد أن تنجم عن تحدّيها لهذه الآلام ، بما امتلكت من إرادة وإيمان .

لقد كانت غايتها من إصدار سيرة حياتها في مرحلة مبكرة من العمر ، هي أن تبيّن لليائسين المعوقين وغير المعوقين ، أن للحياة جانباً مضيئاً وجميلاً يمكن إدراكه والوصول إليه بِحَثِّ الخطى وعدم الاستسلام إلى اليأس والقنوط .

كانت بداياتها الكتابيّة في المجال الشعريّ أولاً ، بسبب تدفُّق المشاعر الفيّاضة المتقدة المخبّأة جيداً تحت رمادها ، والكامنة في جذوة صباً محروم من التمتع بصباه، نتيجة للقدر القاسي الذي جثم عليها ، فانكفأت على نفسها ، تغرف منها ، وتبوح بمكنوناتها بوحاً شفافاً مغلّفاً بالبساطة والعفوية والإيحاء ...

لقد عرفت كيف تصعِّد مأساتها وتأملاتها الداخليّة ، وتعكسها في شعر مرسل يقطر عذوبة ، ويرشح نشوة ، ويفيض حبّاً إنسانياً رفيعاً ، ويذوب حلاوة ... وهل هناك أرقّ وأجمل وأوقع في النفس من قولها لأمها :

كلما تساءلت نجمة

عن الواحة التي كسَّرت ضياعي

عن اليد التي أدخلَتني الدفء

عن الصوت الذي أنبتَ لغاتي

لم أجد عينيَّ إلا قد هرعتا

لتؤدّيا طقوس الأرض في ظلّكِ

ومن ندائها البحر الذي كانت تهرب إليه لتُوْدِعه جراحاتها ، وتبثه أوجاعها قائلةً :

أيها البحر :

إلى هذا الحدِّ أنتَ دافئٌ

كي أفرَّ إليك ؟

إلى هذا الحدِّ أنتَ فسيح

كي أُوْدِعَكَ جراحاتي ؟

إلى هذا الحدِّ أنتَ نقيٌّ

كي تغسلني من حصار العفونات ؟

إلى هذا الحدِّ أنتَ طاهرٌ

كي تظلَّ حانقاً على الأكذوبة ؟

ليتني أحملكَ معي

إلى حيث أتمزَّق ...

وتتجلّى نزعتها الإنسانيّة في قصيدتها " أمنيات " التي عبَّرَت فيها عن توقها إلى أن تغرس الدفء في كل المنازل ، وتسامر كلَّ طفل محروم من الحب والعطف والحنان ، وتعطّر كلَّ الليالي لتزهر النجوم ، وتبلسم كلَّ الجراح :

ليتني أطرق كلَّ المنازل

لأغرس دفئاً

ليتني أسامر كلَّ طفلٍ

لأنشر حبّاً

ليتني أعطّر كلَّ ليلٍ

لأزهر نجمة

ليتني أقرَبُ كلَّ جرحٍ

لأرقى مسيحاً ...

إذا كانت الشاعرة ريم هلال تميل إلى الإبهام ، أو تجنح إلى الغموض ، أو يستهويها اللَّبس في الكلمة ودلالتها في بعض القصائد ، فلأنها تدعونا إلى التفكير والتأنّي في قراءة هذه القصائد ، فالقارئ الذي يتأمّل ثم يفكّر كما يقول الروائي حنّا مينه في مقدمة " العرّافة " ، سيجد أن وراء هذا الظاهر من اللفظ الشعري ، معطىً شعريّاً آخر بعيد الأمد والمرامي ، عميق المعنى ، لا يتكشّف بسهولة ، برغم أنه يغري بها ...

لكننا نرى أن هذا الغموض والإبهام يشفّان ويبهتان في ديوانها " اسمي والأرض "، وتبدو الألفاظ أكثر بساطة ، وأقرب إلى الفهم كما قولها :

أمي ..

إلى الآن نائمة ؟!

انهضي ...

المروج تعدُّ قهوتها

الشمس ترمي لحافها

انهضي ...

أريد حليباً ساخناً

أرجوكِ حليباً ساخناً

منذ اليوم سأحبُّه

لأجلكِ سأحبه ...

أمي ..

أأنتِ لي مخاصمة ؟!

وأخذَ في غنجٍ

يدَها الباردة ...

كان آخر ما صدر للأديبة ريم هلال كتاب " من مفكّرتي " ، وهو عبارة عن خواطر نثريّة وتأملات سطَّرتها على الورق في ساعات خلوتها ووحدتها وصفاء نفسها وخلوّها من المشاغل ... وهي أشبه بالمذكّرات أو اليوميّات ، مثل تعبيرها عن فرحتها الكبيرة بصدور روايتها " البصر والبصيرة " ، إذ تقول : " هل هناك من لحظات أسعد من تلك التي استقبلتُ بها عملي البصر والبصيرة ؟ فهو دون سواه الوحيد الذي ضممتُه إلى صدري ، وهو دون سواه ، الوحيد الذي تعطَّرتُ له وتجمَّلتُ. كيف لا يكون ذلك ؟ وقد شكَّلَ سيرتي الذاتيّة التي كتبَتْني بكلّ أبعادي ودقائقي ، مذ طرقتُ أبواب هذا الكون . كيف لا يكون ذلك ؟ وهو يشكّل القصة التي لم أبدعها أنا بنفسي ، إنما التي أبدعَها الله " .

وتتحدث عن الثروات التي يمنحنا إياها الله ، والتي لا تقدَّر بثمن ، فتقول : " ما أثمن الثروات التي يهبنا إياها الله ! تصَوَّر أن أحداً ما فقدَ واحدة من أصابعه مثلاً ، هل يستطيع أن يردّها ، إذا ما بذل في سبيلها أموال الأرض ؟؟ !! " .

وتقول في تعليقها على كتابة هذه الخواطر النثريّة : " لقد سررت بالانتقال إلى كتابة الخواطر النثريّة كثيراً ، لعثوري فيها على ما يمكن أن يحقق من تواصلي مع الناس جميعاً ، دون تمييز ما بين قادر على استيعاب الشعر وغير قادر . علماً أنني من خلال خواطري هذه ، حاولتُ أن أطرق المجالات ذاتها التي طرقتُها في الشعر ، ذلك لكي أجعل القرّاء ينفتحون على ما لم يتمكنوا من الانفتاح عليه من خلال الشعر" .

د. ريم هلال .. " بين شرفتي .. والبحر "

الشاعر مالك رفاعي

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧٥٤٥، تاريخ ٣ /٥ / ٢٠١١

الأستاذة الدكتورة الأديبة ريم هلال .. تداعب الحروف .. مثل الطيوف .. ولئن تبدو هادئة كالفجر في تفكيرها .. فهي مائجة كالبحر في كتابتها .. تتهادى الكلمات بين يديها قصائد موشّاة .. بعبق النور ، وعطر الروح .. لتُوصِلها إلينا مشذّاة منتقاة.. ونكون آنئذٍ في مجموعتها الصادرة للتو عن دار الينابيع " بين شرفتي والبحر " ، وهي تضمُّ في تضاعيفها ما يربو على المئة والثلاثين اعتلاجاً رؤيويّاً .. هلاليّاً .. يتوارف فيها صمت الأبد .. في دوحة الأزل . وهي ينطبق عليها البيت الشعري الأول من ملحمة جلجامش :

وحده الذي رأى وعرف كلَّ شيء فغنّى باسمه يا صبايا بلادي ..

وهكذا فإن شاعرتنا ريم هي الرائية بعين الرؤيا الحالمة .. تقول في " ما وراء " :

أنا كلَّ ليلةٍ أَبَدي

أتسلَّقُ أسوارَ جسدي

أفتحُ نافذةَ الهناك

أتنصَّتُ إلى صمتي

وتقول في " لقاء " :

أأنتَ مثلي تدري

حين هلالٌ وفلَّةٌ ينوِّران

كيف يتسامران ؟!

غزلَتْ كلماتها هديلاً .. ونذرَتْ جناحيها للضوء

الأديبة د. ريم هلال .. " بين شرفتي والبحر "

منى كامل الأطرش

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧٥٥٣ ،تاريخ ١٢ / ٦ / ٢٠١١

في حروف مضيئة .. أوقدَتْها كاتبتها شموعَ حنين ، وتناثرَتْ من أصابعها ، لتنيرَ عتمة الورق .. وتنسج الألوان في فضاءات حالمة بصباحات تعانق زرقة الأرصفة ، والشرفات ، وتغزل من العناوين والكلمات هديلاً ، ليمامة نذرَتْ جناحيها للضوء .. ثم الضوء !

تطلُّ علينا الكاتبة والشاعرة الدكتورة ريم هلال .. بهيّةً كعادتها ، في مجموعتها الشعريّة " بين شرفتي والبحر " . ونتساءل : بأيِّ ألوان سحريَّة خطَّت الكاتبة مفرداتها.. خلجاتِها .. واحتمالات هطول المطر في سماء الورق والألق ؟! أليست هي القائلة :

واحدٌ لونُ الشروق

واحدٌ لونُ الغروب

ومحيطٌ واحدٌ لا يكفي

لألوان الحكايا تحت الشمس

هي ذاتها من باغتَها نداءُ يمامة ، ذاتَ صبحٍ كان يضجُّ بأعباء الكون ، وهموم الحياة ، لكنها آثرَتْ أن تنصت إليه وتخاطبُه :

باغتَني نداءُ يمامة

إلهي

ما أُحَيلى هداياك !

وفي محراب الحروف ، وطُهر الكلمات والمعاني ؛ تحوَّلَت الشاعرة إلى ناسكة، تُسلِّلُ الخير ، ومطر الروح :

سأفرُّ يوماً من حرائق الدروب

من غبار المسافات

وأقفُ ببابِ غابةٍ مطيرةٍ

أصلّي

في المجموعة الشعريّة " بين شرفتي والبحر " ، تبحث الشاعرة عن جوهر الذات ، وتتمسَّك بذكرياتها ، طالبةً منها ألّا تنساب من بين يديها ، ككمشة رملٍ أو ضياء :

أين أنا الطفلة ؟!

ذهبتْ بمريولها الأزرق

ولم تَعُدْ من المدرسة

وتضيء الذاكرة قناديل الحنين البعيدة ، الحنين الذي يزورنا في لحظات جليديّة باردة ، ينثرُ الدفء ، ويناجي جراح الحزن ، ألّا تنطفئ . ففي " اشتياق " نقرأ :

أمَا قالوا إن السماءَ بعيدة ؟!

أبعدُ من الصيف ؟!

كيف إذن كلَّ يومٍ أسمع

أساورَ أمي ؟!

تتميَّز المجموعة الشعريّة ، بالوفاء الجميل للذاكرة ، تلك الذاكرة التي تعانق المكان ، بكلِّ تفاصيلِه الصغيرة ، وتطوي مسافات الأزمنة في لحظة حنين :

سَلِّمْ على بيتي

سَلِّمْ أيها المساء

اعبُرْ نوافذَه

عانِقِ الأصداء

حَدِّثْ قناديلَه

عَطِّرْ ياسمينَه

أَقِمْ على عتباتِه

صلاةَ العشاء

وفي اللغة الشعريَّة ، وبرغم إيجاز مفرداتها ، تعشوشبُ الحروف ، وتصبح الكلمات عرائش ، تطلُّ على شرفات الخيال ، لتنثرَ باقة فلّ هنا ، وتحطُّ على جناحَي يمامة هناك . وفي أحيان كثيرة ، تقول القصيدة حكاية ، تأسرنا كما في

" فصول " ، " خوف " ، " ظلمة " ، وكثير من القصائد التي تبوح بمكنونات تستحقُّ الوقوف عندها ، والانحناء .

وفي مناجاة الشاعرة ، لصور الأحبّة الذين رحلوا جسديّاً عن عالمها ، لكن أرواحهم لا تزال تحيطها بالدفء والمحبة ؛ نقرأ مناشدة حزينة لموقد الجدّة ، ومقهى الجدّ ، ومنزل الطفولة ، وصوت أساور الأم ، وعيون الأب :

كفاكَ متَّكأً جدَّتي

موقدَها

كفاكما انتظاراً

هي لن تعود

بطريقة أو بأخرى ، تذكِّرُنا المقطوعات الشعريَّة الفريدة ، للشاعرة ريم هلال ، ولغتها الشعريّة العذبة ، التي تختزن كنوز المعاني ما وراء السطور ، وبين الكلمات، بالشاعرة اليابانيّة الشهيرة " تويوتاما توسونو " التي نذكر من روائع شعرها ، مقطوعات ممتعة ، برغم إيجاز عدد الكلمات :

زَوبِعي يا أوراق شجرة الكرز

في ريح الربيع

إلى أن تصلي عتبة داره

" بين شرفتي والبحر " ، مجموعة شعريّة تقع في ١٤٨ صفحة من القطع المتوسط ، تضمُّ بين طيّاتها أعمق وأنبل المشاعر الإنسانيّة ، وتختزن غابة فلّ ، وسرب يمام ، وعطر الأجداد ، وعبق الوجود الإنساني ، بالإضافة إلى الأسئلة الجوهرية ، التي نقف عندها مطوّلاً في رحلة البحث عن حقيقة الذات . وقد تميّزَت الشاعرة ، بأسلوب فريد في التقابل ، والتضاد ، والتصوير ، والاختزال ، والاكتناز . ولعلي أختتم بقولها ، وأترك لكَ عزيزي القارئ ، حرية التأمُّل والحكم :

أَكُلُّ هذه الأقاحي

لعناقِ جراحي ؟!

من قصيدة " جلال المعنى " ..

الشاعر مالك الرفاعي

إلى الرائدة الدكتورة ريم هلال ، ٢٠١١/٩/١٩

أنا مَن بالجمالِ مع الجلالِ أهيمُ   وجــلالُ المعنى جمالُكِ ريــمُ

رقَّةٌ من منابعِ السِّحــرِ رَفَّـــتْ   مثلـما رَفَّ في الخميلِ النسيمُ

وقفَ النقدُ في يديـكِ امتثـــالاً   وغدا الشعـرُ في رؤاكِ يحــومُ

تبصرين الأشياءَ كنـهاً وغمـــقاً   ولكِ الأفقُ والمـدى المستقيــمُ

نجمةٌ أنــتِ في فضاءٍ بعيـــدٍ   غادرَتْه مــع المساءِ النجــومُ

حـين ألقـــاكِ ألتقي المتنبّــي   وابنُ جنّي في دفتريـــكِ يقيــمُ

وكرومُ الإبداعِ فيكِ استطـــالَت   كيف تنـأى عن السماءِ الكرومُ

يا بنةَ العلمِ والنـــدى والمعالــي   أنتِ فيـــنا التـدريسُ والتعليــمُ

وأنـــا اليتيمُ يتَّمَتْنـــي بـــلادٌ   فمتـى يلتقـــي أبـاه اليتيـمُ؟!

فانقذيني مـــن الظــلامِ فإنــي   فـــي زمانــي معذَّبٌ مظلـــومُ

عندما تنطق القيثارة ..

الشاعر محمد عبّاس علي

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة- اللاذقيّة ، العدد ٧٦٤٤ ،تاريخ ٢٣ / ١٠ / ٢٠١١

تساؤلات أنيقة وعميقة أزجَتْها الأديبة د. ريم هلال ، في زاوية " مرحباً يا صباح"، الثلاثاء الفائت ، فجاءت معجونة بعبق المعرفة ، وكانت أقرب إلى بوح النفس ، ونوح الوتر ..

تساؤلات من ألف الزاوية إلى يائها ، لم تشرك فيها الكاتبة شيئاً آخر ، على مدى سبع عشرة فقرة موحية ، أحببتُ من قَبيل المثاقفة أن أعرض صداها في سمعي ، دون أن أدَّعي أنها إجابة محدَّدة ، فالإبداع لا يُحصَر ، والشعاع لا يُحَدّ ، وربما لو تسنّى لي أن أقرأها ثانيةً ، لأوحَت لي بشيءٍ آخر ، وهنا أعرض معظمها بطرافة :

" متى هطلَ أوّلُ فجرٍ على كوكبِنا ؟ "

كان ذلك حين تشكَّلَ هذا الكوكب ، وبات مؤهَّلاً لاستقبال إشعاعات الفجر الأولى، وما إن فرش الفجر ضياءه ، حتى تبدَّى له جمال مسرحه البديع ، وهو وجه الأرض ، فامتلأت جوانحه وجيوبه بالندى والعطر ، ثم عانق الأديمَ السمحَ ، وطبع على جبينه قبلة من دفء وضياء .

" ماذا يقولُ الوليدُ في يومِه الأوّل ؟ "

ما إن ينهي الوليد رحلته بسلام ، حتى يبدأ رحلة جديدة ، يُحدِثُ في مطلعها جلبة من صراخ ، كان قد اعتادها وهو في ظلمات الأحشاء ، ولم يختلف عليه شيء ، إلا أنه بات يسمع صراخاً أقوى من صراخه ، ممن هم حوله ، فيصمت ولا يقول شيئاً .

" أين بيتُ آدمَ وحوّاء ؟ "

لقد زرعا بيتهما في جسد كلٍّ منّا ، ووزّعا أشياءه شهواتٍ ونزعاتٍ في نفوسنا ، بدءاً من الطمع والجشع وحب الذات واللذات ، وهذا يذكِّر بما قاله المتنبّي على لسان حصانه ، حين دخلا شِعْبَ بوّان . يقول :

يقول بشعبِ بوان حصاني أَعَن هذا يسار إلى الطعان ؟
أبـوكم آدم سنَّ المعاصـي وعلَّمَكـــم مفارقـــة الجنـــان

نعود إلى تساؤلات ريم هلال وإجاباتي عنها :

" إلامَ ستظلُّ الصخورُ ناسكةً ؟ "

في منطق الأشياء ، ستظلُّ ناسكةً حتى تنتهي واجب نسكها ، وإن جاء بصيغة خاصّة بها ، حيث تؤدّي عبادتها بصمت ، وهذا يعني أن لا رياء فيها ، كالذي هو عند الكثيرين منّا ، سواء في صلاته أو صيامه ، ولله في خلقه شؤون .

" أمَا طالَ غيابُ أجدادي ؟ "

لعله من حُسن حظِّهم ، أنهم في غياب ، فلم يلحظوا خيباتنا ، ولم يشعروا بسرِّ تناحرنا فيما بيننا ، وغلبة أعدائنا علينا ، فدَعيهم لا عين تقشع ولا قلب يوجَع ، كما يقال .

" أمَا تَصالَحَ الموتى في مراقدهم ؟ "

أقدِّر أن الموتى في شغل شاغل عما كانوا عليه في حيواتهم ، وبخاصة من كان منهم يحبُّ العاجلة على حساب الآخرة ، كما خبَّرت الآية الكريمة ، " إن هؤلاء يحبّون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً " ، هؤلاء ذهبت عنهم الدنيا وبهرجها ، ولم يبقَ لديهم ما يختصمون لأجله ، أو يتصالحون .

" هل بدأت الأرضُ طفلةً تحبو ؟ "

وأقدِّرُ أيضاً أن الأرض ، وُلِدَت كاملة الولادة ، فتلاقت طفولتها وفتوَّتها على أحد مدارج الكون ، مثقَلَةً بأعباء أبنائها ، أكانوا أحياءً أم أمواتاً ، وربما ثقل الأموات أكبر، إذ تنتظر لحظات الزلزلة ، التي تمكِّنها من إخراج ما لديها من أثقال " وأخرجَت الأرض أثقالها " ، وعلى رأي الفقهاء : أي ما تطوي في داخلها من قبور وأجداث .

" بِمَ يهمسُ المساءُ إلى كلِّ نافذة ؟ "

لله كم يهمس المساء !! فتنفرج الأسارير وتهبُّ الأنسام الحاملة أشواق العشاق ، لتمتلئ الساحات عبقاً وفرحاً ، في ذات الوقت الذي يبدأ فيه الحب ، حب مهرجاناتها المسائيّة .

" هل هناك من أحصى زنابقَ الأرض ؟ "

تُعَدُّ الزنابق حوريّات الورود والأزاهير ، والعبرة في جمالها وشكلها ، فما أحلاها ، تميسُ وتنشرُ العطر ، فتبهج الناظرين .

أخيراً فقرتان من الأربع الأخيرة ، يجمعها شعور ذاتي وحيد :

" ما عدد شرفات السماء ؟ "

" ما لون العبق ؟ "

ذكَّرَني هذان التساؤلان ، بما كان من ذلك الفتى الشاعر الذي فقدَ بصره وهو صغير ، ليشبَّ وتتفتَّح بصيرته ، فيرسلها زفرةً حرّى ، يخاطب بها أمه :

أماه .. ما شكلُ السماء ؟ وما الضياء ؟ وما القمر ؟

بجمالها تتمتّعون ، ولا أرى فيها أثر

عكازتي .. هي ناظري .. هل في جمادٍ من نظر ؟

فالتحية .. لمن يكون للآخر نظراً أو سنداً ، حتى ولو كان من جماد .

مرحباً يا صباح

الشاعر مالك الرفاعي

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقية ، العدد ٧٦٤٥ ، تاريخ ٢٤ / ١٠ / ٢٠١١

وقبل أن تخفق أجنحة الكلمات ، لتصطفَّ حروف هذه المرحبة الصباحيّة ، لا بد أن أتوجَّه بالتحيّة ، إلى كلٍّ من الأديبين العميقين المذكورين بالخير : الأستاذ الأعزّ المفكِّر محمد عبّاس علي ، والدكتورة العزيزة ريم هلال ، بما أثاراه في زاويتيهما ، من حراكٍ وانشغال بالشذى المعرفيّ ، والعبق الرؤياوي ، بين أسئلة النفس وإجابات العقل .. فمرحباً يا صباح ..

ريم الألق

تعقيب على كتاب الدكتورة ريم هلال " البصر والبصيرة "

الشاعرة زينب طه – ٩ / ١١ / ٢٠١١

لم أرَ تجربة شبيهة بتجربتكِ مع الحياة ، بكل ما فيها من ضغوط ، وصعوبات وتحدّيات ، إلا تجربة تَشكُّلِ الألماس النقيّ ، الذي لا يظهر للوجود إلا بتعرُّضه لأقسى أنواع الضغط ، وأعلى درجات الحرارة في ظروف نشأته وتكوينه ، لكنه يبرهن في النهاية على أنه الجوهر الأقوى في الكون .

لقد عرفتُكِ في طفولتي بطلةَ حكايةٍ ، سردَتْها أمي بكلِّ محبة وفخر ، تجلَّتْ فيها عِبرةُ الصمود ، ورغبة البقاء ، وتحدّي الوصول إلى مالا يتمنّاه الآخرون لنا من خير. وعرفتُكِ في شبابي زيتونةً مثمرةً نضرة ، بالرغم من جفاف المحيط ، وبالرغم من انتشار الغبار . ولم يدهشني يوماً أن تُفرِط الزيتونة المباركة في منح الزيتون المبارك ، لكن ما أدهشَني حقاً ، هو أن تثمر أيضاً قمحاً وأقاحيَ وياسمينَ عرّش على ذاكرتي بعد أن قرأتُ كتابكِ " البصر والبصيرة " بما فيه من نضج وصبر وتسامح وفضائل .

مباركٌ لكِ شموخكِ يا ريم ..

مباركٌ لكِ أصلكِ الطاهر من جبل ثابت وغيمة معطاءة ..
حتى ألمُكِ مباركٌ فيه أيضاً ، لأنه كان مفيداً .. فحثَّكِ على الإنجاز .. لأنه كان جميلاً .. فمحبتكِ ألمٌ بشكل ما .. لأنه كان نبيلاً .. كآلام شرفاء هذا الوطن .
كلّكِ جميلة يا ريم .. ومن أجمل ما فيكِ آلامكِ ..
آلامكِ التي تخبرني عن إنسانيّتكِ ووجودكِ وإحساسكِ المرهف الدافئ في عالم يضجّ بالآلات والموتى والصقيع .
عندما زرتُكِ ذات عُمْر .. أخبرَني صوتكِ الموسيقيُّ بامتياز عن فضاءاتك الواسعة ، لكن صداه همس لي أيضاً بمدى أعماقكِ السحيقة . ووحده جبينكِ العالي الذي أطلَّ عليَّ من مكان جلوسي ، بدا لي يومها حدائق معلّقة .. تغمرها القداسة ويزيّنها الوقار .
يفرحني حقاً أن نلتقي مجدَّداً .. وأتمنى أن أحظى بالتواصل معكِ قريباً ..
مع تمنياتي بدوام الفرح والألق ..

بين الشرفة والبحر

الشاعر محمد عبّاس علي

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧٦٧٩ ، تاريخ ١٨ / ١٢ / ٢٠١١

حين تشفُّ الحروف ، في أيّ من إبداعات الشعر ، تبتعد المسافات بين الفواصل، ويتسرّب الضوء في مسارب الكلمات ، بينما يضوع العطر في الرحاب ، لنشهد جمالاً من بهاء الصورة ، وجلالاً من صفاء المعنى .
نعماها .. جيرة الشرفة للبحر !! وجلالة السفارة بينهما !!
ولأن لكلٍّ منهما ، طقوسه الخاصة به ، سواء الآنيّة وغير الآنيّة ، يظل للشرفة امتياز ليس لغيرها ، كونها تعشق الأبعاد عموماً ، فتجذب إليها البصائر قبل الأبصار ، وتتلقف الرسائل العابرة غير المرئيّة لأولي الحنين . وقد تنفعل بها ، وتعيش بعض شجونها . وإذا ما كان البحر ، تفتنه خضرة الشاطئ ، وهدأته ، فيضطرب مائجاً وهائجاً ، ليصل سريعاً إلى استراحة هادئة ودافئة عند قدمَي

الشاطئ وعلى مقربة من أحضانه ؛ فإنه لا يملُّ هذه الفتنة ، ولا السفر إليها . وكذلك الشرفات التي اعتادت وحدتها ، لا تشكو الهجران ، ولا يمضُّها الضجر ، لأنها دائماً على وعد مع المساء حيناً ، والصباح حيناً آخر ، لتمارس طقس البوح الشجيّ . ففي المساء تغازل النجوم وتشارك العشّاق نجاواهم ، وفي الصباح تنفرد بجارها البحر ، فتبوح إليه بأسرارها عبر نسيم الصّبا . ولو قُدِّرَ لنا أن نحصي ذلك البوح ، ونترجم حسيسه وهسيسه ، لكان بين أيدينا ديوان شعر من نوع فريد ، تحسدنا عليه الأجيال ، وهذا يقودنا إلى القول : هل ثمة من رصدَ هذه العلاقة بين الشرفات والبحر ؟ وأصغى إلى انفعالاتهما ؟ وخبَّرَنا عن أحلامهما ؟ أجل .. لقد فعلتها الشاعرة ريم هلال ، بعد أن صغَت إلى حوارهما ، ونجاواهما ، وسجَّلَت بعضاً من ذلك ، في خواطر شفيفة ، جعلتها متبرّجة على صفحات مجموعتها " بين شرفتي والبحر " .

حقّاً إن تلك الفضاءات لا تبلغها إلا الأرواح الشاعرة ، ذات الأحاسيس المختمرة بالعذاب والحب .

وحدها هذه الأرواح ، من تستطيع التحليق هنالك ، تشهد وتلملم رؤىً ، وتقبس جذوات ، من على أجفان البحر وأغاني الشرفات .

فيا سعدها .. شرفات الشعراء ، تطلُّ دائماً على بحور !! .. وتستمتع في رجع غناء ساحر هامس يغمرها عبير البنفسج وحداء الشعر . لنصغِ إليها وقد غرَّدَ مساؤها ، ما الذي حصل تقول :

وغَرَّدَ المساء

فاستلَّ المدى فرشاتَه

وسرَّحَ نافذتي بالبنفسج

إنه مدىً فنان . ما إن استمع إلى أغرودة المساء ؛ حتى استلَّ فرشاته وراح يعبِّر عن انفعالاته ، ويرسم لوحاته ، يطرِّز بها الفضاء الرحيب أمام الروح الشاعرة ، حيث لا يقوى شيء آخر على تسريح النافذة أمامه غير ذاك الفن البديع ، لتقوم بعدئذٍ قيامة البنفسج . ولنصغِ إليها ثانيةً :

لا تردَّ عن جبينيَ الموج

فغداً يصير حكايةً ..

لضفافي

بوحٌ رقيقٌ يكشف عن عمق علاقة بين جبينها والبحر ، وما بينهما من عشق ، كما يكشف عن مصدرية الحكايا ، وكيف تنشأ ، وكذلك غنى الضفاف ، وما تكتنزه في طيّات صخورها ، ونباتات غرَّتها . لكنها أبقَت لنا حريّة الصور في فهم حصول ذلك ، واكتفت بعرض النتيجة " غداً يصير حكاية " ولله ما أغنى الضفاف بحكايا الأمواج ، عبر تواصل لا ينقطع ولا يهدأ . ولنصغِ ثالثةً :

أَكُلُّ هذه الأقاحي

لعناق جراحي ؟

أراها قالت ذلك ، واستغفرت جراحها ، حيث عبَّرَت بطريقتها ، فعكست المنظر . فهي تدرك ، ونحن ندرك معها ، أن كلَّ أقاحي الأرض ، لا تكفي لتدليل جراحها ، والقيام بدور عناقها ، مهما امتلأ بها مسرح الزمن ، لأنه ظلم الأقدار ، لا شيء يقوى على مسحه من النفوس .

وأستذكر شاعر حلب الثاني عمر أبو قوس ، والشيء بالشيء يُذكَر ، وقد عاش ظلم القدر ، فلم يُرزَق ولداً ، فقال عبر معلّقة رائعة :

ولو أن لي طفلاً على الشيب واحداً لكان لعيني في دجى الليل كوكبا

ولكنـــها الأقدار تحـــرم شاعــراً وترزق يـــــربوعاً وذئبــاً وثعلبــا

أخيراً :

لماذا كلما فرغَتْ كؤوسي

فقدتُ ذاكرة البحر ؟

فيا لتلك الكؤوس المترعة أبداً !! ويا لتلك الذاكرة التي لا تنفد أبداً !!

فهيهات تفرغ كؤوس الشعر .. أو تنفد ذاكرة البحر .. مهما مُدَّ بهما العمر .

حوار مع الدكتورة السوريّة المعجزة الشاعرة ريم هلال

أجراه الكاتب والباحث أحمد محمود القاسم

نُشِرَ في العديد من الدوريّات ومواقع الشابكة –٢٠١٣

الدكتورة ريم هلال ، سيّدة سوريّة الجنسيّة ، فقدَتْ بصرها منذ ولادتها ، لكنها نشأت وكبرتْ ، وهي تحلم باستكمال دراستها بمراحلها كافّةً ، حتى حصلت على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها ، بفضل إرادتها القوية وتصميمها ، وبفضل من وقف إلى جانبها من الأهل والأصدقاء ، ومثابرتها الدائمة على الدراسة وتحقيق النجاح والتقدّم ، وهي تعمل حالياً أستاذة في الجامعة .

الدكتورة ريم هلال كاتبة وشاعرة أيضاً ، تكتب الخواطر والأشعار ، ولديها كتاب باسم : " البصر والبصيرة " ، تشرح فيه سيرتها الذاتية ، وطبيعة حياتها والصعوبات التي واجهتها وكيفية تغلّبها عليها ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ، من تقدّم ونجاح ، وحقيقةً ، إن ما نجحت به الدكتورة ريم هلال ، الشاعرة والكاتبة ، يُعَدُّ بمنزلة معجزة حقيقيّة . كعادتي مع كل من ألتقي بهنّ ممن أتحاور معهنّ من السيدات ؛ كان سؤالي الأول لها هو :

– من هي السَّيِّدة ريم هلال : الحالة الاجتماعية والعمر والعمل والشهادات والدراسة ومكان الإقامة والهوايات إن وُجِدَت ؟

أنا الدكتورة ريم هلال ، من مواليد اللاذقيّة عام ١٩٦٠ ، وُلدتُ كفيفة البصر ، لكن بعون الله والمحبّين من حولي ، تمكّنتُ من متابعة دراستي ، وحصولي على درجة الدكتوراه ، في اللغة العربيّة وآدابها عام ١٩٩٨ . وأنا الآن أستاذة جامعية في كليّة الآداب – قسم اللغة العربيّة بجامعة اللاذقيّة . كما أنني أديبة وشاعرة ، لي العديد من المؤلّفات .

– ما هي الأفكار والقِيَم والمبادئ التي تحملينها وتؤمنين بها وتدافعين عنها ؟ وهل شخصيّتكِ قويّة وجريئة وصريحة ومنفتحة اجتماعياً ومتفائلة ؟

أؤمن بأن الإنسان ، إنسان قبل كلّ شيء ، وبعد كلّ شيء ، بعيداً عن أيّ انتماء له ، أغوص في جوهره حتى الوصول إلى أحاسيسه وألمِه ، أنفر من الطائفيّة ،

الطبقيّة ، الإقليميّة ، العرقيّة ، وكل شيء يفصلني عن أخي البشري ، الذي أنتمي وإيّاه إلى أبوين واحدين ، إلى عائلة بشريّة واحدة . أما بالنسبة إلى طبيعتي وشخصيّتي ؛ فيقال إنني جدّ رقيقة ، جدّ ملائكيّة ، ربما هذا صحيح ، لكن أمام الحقّ ، أمام الخير ، أما أمام سوى ذلك ؛ فأمري يختلف تماماً ، لست ملاكاً أمام الباطل والشر .

– هل أنتِ مع حريّة المرأة اجتماعيّاً ، واستقلالها اقتصاديّاً ، وسياسيّاً ؟ أم تؤمنين بأن المرأة يجب أن تكون تحت سلطة الرجل بكل شيء ؟

مؤكَّداً ، أؤمن بحريتها ضمن الصُّعد التي ذكرتَها حضرتك ، مؤكَّداً ، لا أؤمن بعبوديّتها وخضوعها لسلطة الرجل ، ما دمتُ أؤمن بحرية أيّ كائن بشري ، وبعدم عبوديّته ، أو ما دمتُ أتحمَّس بصورة جدّ مفرطة ، حتى حيال حرية العصفور ، الذي يلجأ البعض إلى حبسه في الأقفاص . لكن استدراكاً للأمر ، ليست كل حريّة إيجابيّة ، إذ ليس من المعقول أن نقول للمرأة : خذي حريَّتكِ الخلقيّة .. وافعلي ما شئتِ ، لا أؤمن بالحرية التي نادى بها نزار قبّاني لأجل المرأة ، هذا الذي إن حاول تحريرها من السلطات التي فرضتها عليها العصور ؛ فقد أخذها هو ليستعبد جسدها، وكل ما يمتُّ إليه بِصِلَة من حليها وزينتها .. هذا ليس تحرُّراً .

– ما هي علاقتكِ بالقراءة والكتابة ؟

القراءة بالنسبة لي ، هي البحر الذي أودُّ أن أرتوي من ثرائه قدرَ ما يسمح به الزمن ، وكم كنتُ أحسُّ بالقهر والألم ، لعدم تمكّني من أن أمارس هذه الهواية ، التي أهفو إليها متى شئت ، ذلك بفعل وجود العائق البَصَريّ لديّ ، واحتياجي إلى من يتفرغ لي دائماً بهذا الصدد . أما الآن ، وبعد وجود البرنامج الناطق الخاص بالمكفوفين ؛ فأستطيع أن أعدَّ نصف حلمي قد تحقَّق ، أما النصف الثاني ، فلا يزال معلَّقاً في انتظار ما يُيَسِّر لي قراءة الكتب الورقية ، ذلك لكون البرنامج لا يقرأ إلا إلكترونيّاً ، وبنظام الوورد تحديداً . أما الكتابة ، فهي وفق منظوري العملية التي لا أزال أجهل آليَّتها الداخليّة التي تجري في أعماقي ، وأعماق أيّ كاتب ، بعيداً عن إدراكنا ومعرفتنا . إن كلّ ما أعرف منها ، هو أنها تمثُّلٌ لكلّ ما حصّلتُ قرائيّاً

وثقافيّاً ، وقبل كلّ شيء حياتيّاً ، مضافةً إليها الموهبة التي خصَّ الله بها بعض البشر دون سواهم ، ولعلي أنا منهم .

– لمن تكتبين ؟ وما هي طبيعة كتاباتك ؟ هل هي شعر أو نثر أو خلاف ذلك ؟ وما هي الرسالة التي تودِّين إيصالها للقارئ ؟ ومن هم الكتّاب الذين تعدّينهم قدوة لكِ وتقرئين لهم ؟

فيما يتعلّق بسؤالكَ بشأن من أتجه إليهم بكتاباتي ، وبشأن الرسالة التي أحملها من خلال هذه الكتابات ؛ فقد سبق أن تطرّقتُ إلى اتجاهي الإنساني في فكري وإحساسي ، وبناءً على هذا ، فقد وجدتُ في الكتابة ورقتي البيضاء النقيّة ، التي أخطّ عبر سطورها كل ما يشغلني ، بصدد اتجاهي ورسالتي هذين . وبصورة أكثر شمولاً ، أستطيع القول إنني من خلال منظاري الإنساني ، أكتب الحياة ، بكل من فيها وما فيها ، وأصوِّرُ كل ما أجده يستحقّ الوقوف عنده ، ذلك بعد أن يكون قد هزَّ أعماقي ، وفعل فيها ما فعل . وفيما يتصل بالأجناس الأدبية التي أكتب ضمنها؛ فأولاً كان الشعر ، الذي شكَّلَ بالنسبة إليّ استمراراً لموهبة غنائي ، الذي كان من المفترض أن أحترفه ، ولم يُتَح لي تحقيق ما أردتُ بصدده ، بفعل عوامل تشابكت ، وتعقدت عليّ . ثم من بعد الشعر ، كان النثر الذي جاء مني استجابةً لرغبة قرّائي ، الذين آثروا السهولة في وصول ما أريد قوله إليهم . والأهم من الشعر والنثر ربما ، سيرتي الذاتيّة " البصر والبصيرة " ، إذ رويتُ فيها تجربتي الحياتية التي عشتها مع فقد البصر ، بكل أبعادها ، ولا سيما فيما يتعلق بدراستي عبر مختلف مراحلها . وفيما يتعلق بالكتّاب الذين أوثِر القراءة لهم ؛ فهم الذين اتضحتْ لديهم بصورة لا تقبل الشك ، عبقرياتهم الأدبية ، إضافة إلى من اتسموا بسعة الرؤيا نحو حدود الحياة والكون ، مثل جبران خليل جبران ، أو من مثّلوا محيطهم أو قضيتهم ، ونقلوهما إلينا بصدق ، مثل نجيب محفوظ وحنا مينه وغادة السمان ومحمود درويش والدكتورة سعاد الصباح .

– هل تعتقدين أن الشبكة العنكبوتية وصفحات التواصل الاجتماعي ، خدمتْ الكتَّاب والأدباء والشعراء ؟

إلى حدٍّ لا يوصف ، ولا يُقدَّر بثمن .. إذ فقط إذا قستُ الأمر على تجربتي الإبداعية ، فوضعُها كان قبل تعاملي مع النت شيئاً ، والآن أصبح شيئاً آخر تماماً. فمن قبل ، كانت كتاباتي محكومة برحمة أصحاب دور النشر ، الرحمة المفقودة ، ذلك من حيث الوعود غير الصادقة ، وسوء التوزيع ، وإنْ عبر القطر فقط ، لا عربياً أو عالمياً ، هذا عدا عن الرقابة الممجوجة من قِبَل الأوساط والأفراد ، ووضع الحدود أمام عبور الكتاب . أما الآن ، ففي ثوانٍ قليلة ، يصل ما يراد كتابته ونشره إلى من هم في أقصى الأرض . وبهذا الصدد ، أسألك أستاذ أحمد : لولا هذا التطور الهائل الذي حدث ، من أين كان لنا أن نلتقي ضمن هذا الحوار؟ وعبرَ بلدينا سورية وفلسطين ؟

- ماهي الصعوبات التي واجهتِها في أثناء حياتك الدراسية ؟ وكيف تغلَّبتِ عليها ونجحتِ ؟ وهل هناك من وقف إلى جانبكِ للمساعدة ؟ وهل للإرادة وقوتها دور في نجاحك ؟

واجهَتْني في البداية صعوبتان : تتمثَّل إحداهما في عدم وجود مدرسة للمكفوفين في مدينة اللاذقية التي أقيم فيها ، وما عنى هذا من اضطراري إلى التعلُّم وفق طريقة المبصرين ، لكن وقوف أمي بجانبي ، كان كفيلاً بتذليل العقبات التي اعترضتني بهذا الصدد ، إضافةً إلى وقوف أفراد أسرتي وفقاً لِما يسمح به وقتهم ، وكذلك بعض المدرِّسات ، دون بعضهنَّ ، اللائي كنَّ جدّ سلبيّات . أما الصعوبة الثانية ؛ فتتمثَّل في أقراني الأطفال ، وغير الأطفال ، الذين لم يُنَشَّؤوا على استيعاب الأوضاع الخاصَّة . لكن برغم كلِّ شيء ، حين يمتلك الإنسان إرادته البشرية ، والإيمان بالإرادة الإلهية ، وما يستتبعهما من الثقة بما يمتلك من طاقات أخرى ؛ لا بد من أن يمتلك الدعامة الراسخة التي هي كفيلة بأن تُسيِّره ما يشاء ، من خطوات مديدة عبر طريقه ، مهما اعترضته من وهاد ومرتفعات ومنعرجات .

- قناعتي تقول : وراء كل عذاب وتخلُّف امرأة ، رجل .. ما هو تعليقكِ سيِّدتي على هذه المقولة ؟

لا شك أن للرجل الشرقي دوره غالباً في تخلُّف المرأة ، لِما يضع أمامها من عراقيل تَحُولُ دون تطوُّرها ، ولِما يتسبَّب في إحباطها وعدم تشجيعها على تجاوز

حالتها غير المريحة ، ذلك بدءاً من أبيها ، مروراً بأخيها ، فزوجها ، فالعديدين ممن تصادفهم في حياتها . لكن هذا لا ينفي ما لها هي ذاتها من دور في تخلُّفها وتقاعسها ، ذلك لأنها إذا ما صادفت مثل هذه الصعوبات ، لا يُفترَض بها أن تخضع لها ، وترضى بالوضع الذي قولَبَها ضمنه مجتمعها الذكوري ، بل أن تسعى وتحاول تبديل ما هي عليه ، حتى تفرض نفسها بنفسها ، وتعمل بما تحقَّق من منجزات على حمل هذا الرجل ، على تغيير موقفه حيالها ، وتغيير موقف المجتمع بأكمله . مثلاً في كثير من الأحيان ، نسمع بأن الناس لا يذهبون إلى طبيبة أو محامية ، لثقتهم الأكبر بالطبيب أو المحامي ، هنا الخطأ ليس من المجتمع فقط ، بل منها هي ، التي لم تثبت تفوقها ، أو على الأقلّ توازيها مع الرجل . إن عليها في هذه الحال ، أن تصبح عالمة في الطب ، أو عالمة في القانون ، وحينذاك .. لا أحد سيقول لها : أنتِ امرأة ، وسترى الرجل تلقائيّاً يرفع لها القُبَّعة .

– ما هي طموحات وأحلام الدكتورة ريم هلال ، الشخصية والعامة ، التي تتمنى تحقيقها ؟

لا خاصّ ولا عامّ ، لديّ في طموحاتي وأحلامي ، بل إنهما مندمجان في أفق واحد . أنا جزء من الكلّ الإنسانيّ ، والكلّ الإنسانيّ عائلتي ومجموعتي . وعلى هذا أحلم في مجال عالمي الأدبي ، بأن تنبثّ كلماتي ضياءً عبر الأرض ، فُلاً أبيضَ بين البشر . وعلى صعيد آخر ، أحلم بأن أمتلك ثروة وافرة ، نعم ، أحلم بأن أصبح ثريّة ، لا من أجلي أنا ، فراتبي جيد ، وقد شبعتُ من أشياء كثيرة في هذه الحياة ، بل من أجل أن أوزّعها بين أكبر عدد من البسطاء ، وأخفِّفَ أكبر قدر من الآلام .

عينان جميلتان في وجه بطلة

قراءة في كتاب " البصر والبصيرة " السيرة الذاتيّة للدكتورة ريم هلال

صفوان محمود حنّوف

نُشِرَتْ في العديد من الدوريّات ومواقع الشابكة – ٢٠١٣

علاقتي بالفيس بوك حديثة العهد ، لا يزيد عمرها على أيام معدودة ، ألجأ إليه بعد إحساسي بالتعب من قراءةٍ أو كتابة أو ملل ، أفتح الصفحة الرئيسيّة ، وأتصفّح ما ينشره المشتركون فيها ، ثم أنتقل إلى صفحة البحث عن أصدقاء ، أفتِّشُ عمّن يمكن أن أتخذه صديقاً ، أتبادل معه كلاماً مفيداً . خلال أيام كانت تستوقف بصري في هذه الصفحة صورة جميلة ، وجهٌ صبوحٌ مدوّر ، ينضح إشراقاً وحيويّة ، فيه خدّان متورِّدان وعينان جميلتان متوقّدتان ، د. ريم هلال .. جامعة تشرين .. وعُمرها يدلّ على أنها مُدرّسة فيها .

تردَّدتُ كثيراً خلال هذه الأيام في أن أقدّم لها طلب صداقة ، حتى فعلتُ أخيراً ، وجاءني الجواب بالموافقة ، فكتبتُ لها محيِّياً ومقدّماً إليها نفسي ، فرحَّبتْ ، كتبنا معاً في سؤال وجواب ، عن شهادة الدكتوراه التي تحملها ، وعن المادّة التي تدرّسها. في جمل قليلة ، كنتُ أكتب بالعاميّة وتجيب بالفصحى ، أعربتُ لها عن ملاحظتي على ما تكتب ، فأجابت بأنها تستهجن الكتابة بالعاميّة ، فكتبتُ لها بأنني سأحاول أن أقلِّدها ، وأن هذا درسٌ لي منها . كانت تستغرق وقتاً أطول بقليل – وأحياناً بكثير– من الوقت الكافي للردّ ، فخفتُ أن أكون ثقيلاً عليها ، وأعربتُ عن ذلك ، فأجابت بأن ذلك يعود إلى أنها تكون في صفحتها ثم تعود إلى الكتابة .

مصادفةً .. ظهر أمامي بيتان من الشعر نُسِبا إليها ، فأخبرتُها عنهما ، وسألتُها ما إذا كانت تكتب غير الشعر ؟ فطلبت منّي جواباً عن سؤالي ، أن أدخل موقعها الخاص على الشابكة " الإنترنت " ، دخلتُ موقعها في وقت لاحق ، فوجدتُ بين ما وجدتُ عنواناً غير مألوف ، أنا ... في سطور .. ففوجئتُ ، سيّدةٌ كفيفة فاقدة للبصر ، لا تزيد الرؤية في عينيها على ثلاث درجات ، وأعجبتُ أيضاً ، وأبديتُ

أسفي وإعجابي في مكاتبة لاحقة ، فطلبَتْ أن أقرأ كتابها بعنوان " البصر والبصيرة " إذا أحببتُ ، فوعدتُ وأنا في غاية الشوق .

يتألف هذا الكتاب من ثلاثة وعشرين فصلاً ، صدر عن دار الآداب في بيروت عام ٢٠٠٢ ، وهي قدَّمَتْ له بالقول :

" يحكي هذا الكتاب عن تجربة المؤلّفة الكفيفة البصر منذ ميلادها حتى حصولها على درجة الدكتوراه ، وما تخلَّلَ هاتين المرحلتين من آلام وأفراح ، قد تمثَّلُ في عمقها وحرارتها ونزعتها الإنسانيّة ظلاً لجوهر الحياة ، كلّ ذلك في إطار سرد روائيّ شفّاف تعمل الآن مُدرّسة للنقد العربي الحديث في كليّة الآداب ، قسم اللغة العربيّة بجامعة تشرين " .

إنني أمام بطولة جديدة إذن ، تستحقّ قراءتها بكل الجديّة والاهتمام ، فهيَّأتُ نفسي لذلك ، وقرأتُه في أربعة أيام أو خمسة ، وأنا منسجم مع سطوره حتى انتهيت ، بكيتُ غير مرة .. وإن لم تزد فترة بكائي في كل منها على ثانيتين أو ثلاث ، وإن اقتصر هذا على أن تترقرق الدمعة في عيني فتصنع غشاوة تمنعني من المتابعة ، حتى أمسحها بمنديل ورقيّ ، إلا أنني كنتُ في المرة الأخيرة أنشج وأنتحب . لم يكن بكائي حزناً عليها ، بل فرحاً بها ، بدأبها وإصرارها ، لأنها بطلة فعلاً ، كان بكائي حزناً على ضعفي أمامها ، مع أنني حقَّقتُ لنفسي ما حقَّقتُ في حياتي ، وحزناً أكبر على كلّ من لم يستطع أن يحقِّق شيئاً لنفسه في حياته ، حتى ولو لم يتعلم . ففي رأيها إن الإنسان يمكن أن يصنع لنفسه مكاناً ومرتبةً في مجتمعه من خلال العمل الذي يزاوله ، حدّاداً كان أو نجّاراً أو بنّاءً ، ولا يكلّفه ذلك إلا أن يتقن عمله ويخلص فيه . وقررتُ أن أكتب عن كتابها ، ومهما كتبتُ عنها فلن يزيد ذلك شيئاً لشخصها الفذّ .

تنحدر الدكتورة ريم من منبت طيّب وكريم ، فوالدها موظّف مرموق في اللاذقية ، يعرفه ويحتاجه كل من له حاجة في مديرية مالها ، قبل أن ينتقل إلى الرقابة والتفتيش رئيساً لهما ، هذا الأب الحنون الذي كان ينتظر أن يكون بكره ولداً يسميه عمر ، ولكنه لم يألُ جهداً في الركض بها من طبيب إلى آخر في اللاذقية ودمشق وبيروت ، حين أخبرت السيدة دلال صفية عمة الأم بعد شهور من ولادتها بأن

عينيها ليستا على ما يُرام ، بعد أن لاحظتْ أنهما لا تستجيبان لإشاراتها . وأخذ دوره في التراكم والاتساع شيئاً فشيئاً عبر سني حياتها ، بخاصة عندما شعر بتفوقها في أكثر من مجال ، ورأى فيها مشروع صرح كبير ينبغي عليه إنجازه ، وتلك الأم الحنون أيضاً ، التي وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وهي لا تعلم بأنه سيكون لهذه الوليدة شأن عظيم في المستقبل .

لقد أجمع الأطبّاء على وجود خلل في البقعة الصفراء الكائنة في أقصى الشبكيّة والمسؤولة عن تلقّي العين الضوء الخارجي . هنا ترقرقَتْ من عيني أول دمعة ، ومما خطر في بالي حينها قول الله تعالى : " وأن الله ليس بظلّامٍ للعبيد " ، سورة آل عمران الآية ١٨٢ خفتُ أن أقول : وما ذنبها ؟ فأكفر ، ولكنني تذكرتُ آية أخرى أقولها في مكانها .

في الشطر الأول من طفولتها كانت تغني كعصفورة ، تغرّد وسط الربيع ، فهل هي غريزة التحدي وُلِدَتْ فيها في هذه السنّ ؟ دخلت المدرسة الابتدائيّة ، كانت تذهب إليها برفقة أختها رندة التي تصغرها بثلاث سنوات ، والتي اضطر أهلها لتسجيلها معها في المدرسة . منذ اليوم الأول في المدرسة بدأت تتعرّض للسخرية واستهزاء تلاميذ بدأوا يسلّون نفوسهم بها ، وبعضهم كانوا يضربونها ، والجميع يفرحون بعجزها عن ملاحقتهم والدفاع عن نفسها ، فكانت لا تجد إلا البكاء المرير . كانت تتكفئ على ذاتها وتخلد إلى وحدتها وصمتها الطويلين ، وتجد في اللعب بالرمل وسيلة آمنة تتسلى بها ، ويخيَّل إليّ أنها تعلمت الصبر بهؤلاء التلاميذ وممن شابهوهم في الأخلاق والتربية .

في العام الدراسيّ الثاني – ولم يكن وضعها أفضل فيه من سابقه – أضافت إلى لهوها أوراقاً ملوَّنة وكرتوناً ومقصّات وقتها في أشغال تقوم بها ، ثم راحت تقوم بأشغال الكنفا ، ولكنها لم تتقنها تماماً بسبب إمكاناتها البصرية المحدودة ، ومع ذلك أتبعتْها بشغل الصوف .

كان أبوها يسألها ما إذا صار لها صديقات من التلميذات ؟ فتجيب بالنفي ، حتى صار لها في وقت لاحق صديقات أحبّت منهن زينة التي كانت تناديها : ستي ريمو، وسحر ، وهما اللتان كانتا أختين ودودتين لها ، تقدمان لها كل ما تحتاج إليه بكل

رحابة صدر ، ولم تنفصلا عنها يوماً ، تضاف إليهما ندى في الصفّ الرابع ، مما أدخلَ السرور إلى قلب والدها بعد ذلك .

أما المعلمات ، فكنَّ في فريقين ، فمنهن من أهملها كالسيدة م ، ول معلمة اللغة العربية في الصف الرابع ، هذه التي كانت سلبيّة معها وعاجزة عن العطاء ، كانت تضربها ، وكانت قسوتها معها موجّهة إلى العاهة دون العافية والسلامة ... ومنهن من خصّتها بالكثير من المحبّة والاهتمام ، وعلى رأسهنّ السيدة سامية حدّاد التي اختلفت عن كل المعلّمات اختلافاً كليّاً ، فكانت غاية في اللطف والرقة والدماثة ، وحين تركت هذه السيدة المدرسة ، أوصت المعلمة البديلة عنها وهي الآنسة نهى إلياس ثم أوديت سكاف التي سعدت ريم بهما ، وكل هذا جعلها تتصل بالسيّدة حدّاد بعد ثلاثين عاماً لم ترَها فيها ، ذلك لتخبرها أنها حصلَت على درجة الدكتوراه ، فتفرح حدّاد بهذا الخبر وكأن ابنتها هي التي حصلت عليها .

ومن المدرّسات من هذا الفريق في المرحلة الإعداديّة ، تذكر السيّدة بسيمة الخيّر مُدرّسة اللغة العربيّة ، وماري مطر مُدرّسة اللغة الفرنسيّة ، وثريّا إبراهيم مُدرّسة الفنون ووداد أسمر مُدرّسة الرياضيّات ، ولمياء يونس مُدرّسة الموسيقا . كما تذكر ضمن هذه المرحلة السيّدة صبيحة شيخ إبراهيم مديرة المدرسة ونائبتها السيّدة أمل شمّا اللتين كانتا تبديان لها كثيراً من الاهتمام ، إذ كانتا تتابعانها متابعة دقيقة . وكلّهن حمَلْنَها على الإيمان بثراء الحياة ، وعدم اقتصار الأخيار فيها على زمن معيّن أو مكان معيّن .

الملاحظ هنا أنها ذكرت من كان سلبيّاً معها في حياتها بالحرف الأول فقط من اسمه ، ولم تذكر اسمَي الدكتور السوري وغير السوري اللذين ظلماها في مناقشة رسالة الماجستير فيما بعد ، ولكنها ذكرت الاسم الكامل لكل من كان إيجابيّاً معها ، وهذا إن دلَّ على شيء ، فإنما يدلُّ على تربيةٍ وأخلاق عاليتَين تتمتع بهما .

إن الحياة قد تتعثر ولكنها لا تتوقف ، والأمل قد يقلُّ ولكنه لا يموت أبداً ، والفرص قد تضيع ولكنها لا تنتهي .

ها هو ذا البرعم يكبر ويتقدم إلى الأمام .

لم تكن تحبّ المواد العلميّة أو تميل إليها ، ومع هذا حصلت على الدرجة الثانية في الفصل الأول من الثاني الإعدادي مقابل الدرجة الأولى التي حصلت عليها " أ"، الأمر الذي أشعرَ هذه الأخيرة بتهدُّد مصيرها ، فكانت تزيد من قسوتها على ريم ، وتُضخِّم العداء فيما بينهما ، وتعمل على توسيع الهوّة في علاقتهما ببعضهما . وفي نهاية العام المذكور تفوقت عليها ريم وحصلت على المرتبة الأولى ، فهرعت " س " التي كانت تقلّ عن " أ " شرّاً وقسوة لتسلّم على ريم ، وكذلك فعلت " أ " بعد مقاطعة لها ليست بقصيرة .

ولم يكن هذا التفوق جديداً على ريم ، فمن صغرها كانت تحتل مركزاً مرموقاً على أقرانها في الصف ، إذ احتلت المرتبة الثانية في الصف الثاني الابتدائي بعد زينة عبده التي كانت الأولى . وفي المرحلة الثانوية كانت تمشي في دروب تفوّق لم تشهده من قبل ، إذ صارت تحصل بعد كل امتحان نصفي أو نهائي على الدرجة الأولى على شُعَب الفرع الأدبي كلّها ، وهذا جعلها تؤمن بتحدُّد قدرات كل إنسان مهما بدا ضعيفاً في نقطة معيّنة . حتى في السنوات الأربع في الجامعة كانت الأولى على دفعتها وتخرجت منها بتقدير ممتاز ، وهو تقدير نادر ، وكانت علامتها ٨٢ بالمئة .

لم تتفوق في علمها فقط ، بل في الغناء أيضاً ، حين أحسَّت أن في داخلها طاقات كامنة راحت تتفجر واحدة تلو الأخرى . ففي الحادية عشرة من عمرها راحت أمها تدرِّبها على أغنيات لفيروز وعفاف راضي ، وكان أخوالها موسيقيين ، وتعلمت العزف على البيانو ، وشهد لها أستاذها على هذه الآلة بأنها أفضل من تتلقى عنه . وقبل أن تنتهي من إتمام المرحلة الابتدائيّة ، صارت تغنّي في احتفال أقامه اتحاد شبيبة الثورة لثلاثة أيام قام التلفاز بتصويره .. غنّت ، وكان صوتها يصدح في الحفلة وسط جمهور محتشد ، ووصف أحد القائمين على الاحتفال بأن صوتها رهيب.

في المرحلة الإعداديّة وصلت إلى مرحلة جعلتها تشعر بأن الأوان قد آن لتتقدم إلى مسابقة إذاعيّة أو تلفزيونية لأصحاب المواهب ، وفي مسرح المواهب قدّمت أغنية " ردّوا السلام " لعفاف راضي ، أعجب بها الحاضرون واللجنة الفاحصة ، أما

رجال الشرطة الذين كان عليهم أن يبقوا في الخارج حفاظاً على الأمن ، فقد دخلوا ليستمعوا إليها وإلى حصولها على الدرجة الأولى على محافظتَي اللاذقيّة وطرطوس. ثم استُدعيَت إلى دمشق من أجل التصفية النهائيّة ، وفازت مع أحد عشر متسابقاً منهم فاتن حناوي وسمير سمرا وفهد يكن .

ولقد قدَّمَها قريبها السيّد علي الظاظا وزير الداخليّة حينذاك إلى الفنّان فيليمون وهبي الذي أعجِبَ بصوتها وصار يزورها في بيت الوزير منضمّاً إلى سهرات يوميّة تُقام فيه ، ثم صارت الإذاعة تبثُّ أغنياتها التي سجَّلَتْها فيها حتى قطعَت على نفسها بأن تخرج من عالم الغناء .

وإن تركَتْ الغناء بصوتها ، فقد تركَتْ لقلبها وعواطفِها أن يغنّيا إذ كتبت الشعر ، وكانت الدكتورة نجاح العطّار وزيرة الثقافة حينذاك أول من أطلق عليها صفة شاعرة، ولها عدة مجموعات شعريّة .

وحان وقت الحصاد والجنى ، إذ بعد تخرّجها من الجامعة ، تقدَّمَتْ للعمل معيدةً في الجامعة ، ونجحت في المسابقة ، وقُبِلَتْ أولاً ثم رُفِضَت بسبب الشهادة الصحيّة التي منعتها من مزاولة هذا العمل ، مما دفع أباها للتنقّل من مكتب إلى مكتب داخل وزارة التعليم العالي وخارجها .

أرسلَ أساتذة قسم اللغة العربية بجامعتها رسالة إلى وزير التعليم العالي يشرحون له فيها وضعها وإمكانيتها لشغل هذه الوظيفة مذكّرينه بعميد الأدب العربي طه حسين ، وعرض السيّد مايك عبد الله عضو جمعيّة المعوقين أمرها على المذيع التلفزيوني السيّد توفيق الحلاق الذي كان يقدّم برنامج " ساعة حرّة " ، وهو برنامج مُعَدّ لأصحاب الشكاوى ، فقدّمَها بأنها الخارجة من العتمة إلى النور . ومن أسفٍ أنني لم أعثر على هذه المقابلة في اليوتيوب ، ولكنني عثرتُ على مقالة له بعنوان " سارت على درب طه حسين بامتياز " ، يقول في نهايتها : إنه طلب منها بعض صورها فسألته عن الغرض من ذلك ؟ فقال : إنه يريد أن يكتب عنها ، فقالت له إنه فعل الكثير من أجلها ، فأجاب بأنها فعلت الكثير للناس .

لقد انشغلت الدولة على أعلى مستوياتها في عدم كونها معيدة في الجامعة ، وأصبحت الشغل الشاغل لأهل بلدها الذين أتعبوها بكثرة اهتماماتهم ودوام تساؤلاتهم، حتى حصلت على راتبها الأول من هذه الوظيفة .

بعد حصولها على درجة الماجستير – وكان فيه ظلم كبير لها – والتحضير لنيل درجة الدكتوراه ... تم تحديد يوم الخامس من أيار عام ١٩٩٨ موعداً لمناقشة رسالتها ، تألفت لجنة الحكم من صديقي الذي أتشرّف بصداقته الدكتور أحمد زياد محبّك مشرفاً ، ومن دكاترة أعطوها الطمأنينة والثقة ، وهم ممن يمتلكون إنسانيّة شفّافة وإمكانات علميّة أتاحت لهم التقدير الموضوعي لبحثها ، وكان الدكتور محبّك أول من يستحق الذكر بصدد عرفانها بالجميل ، فهو الذي لم يكفّ قبل المناقشة عن الاتصال بها هاتفيّاً من حلب ليملأها بالراحة والشجاعة ، ويَعِدها بإيصالها إلى النتيجة التي تستحقها ، ويقدم لها ملاحظات إيجابية رفعت من مستوى رسالتها ، وقد وصف رسالتها بأنها متماسكة شكلاً ومضموناً ، أسلوباً ورؤيةً ، منهجاً ومصطلحاً ، وقال إنها تؤكّد استيعابها لموضوعها ، وأنها متمكنة منه ومسيطرة عليه ، وأنه يقدّر عملها هذا حق تقدير ويبارك في جهودها . وبعد حبس أنفاس تَلا الدكتور محبّك قراراً بمنحها درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز وعلامة ٨٥ ، فألقَتْ كلمة أبكت الجميع . وبحصولها على درجة الدكتوراه لم تنسَ غيرها من المعوقين ، إذ راحت تسعى لإنصافهم .

كنتُ أنتظر في سطورها وهي تجتاز المرحلة الثانوية وتلِجُ المرحلة الجامعية أن تحكي عن الجانب العاطفي في حياتها ، والحب أمر ربّاني لا يولَد مع الإنسان ، ولكنه يتملّك قلبه في وقت من عمره .. لقد أفردت لهذا الجانب الفصل الأخير من كتابها ، تقول فيه إنها عاشت الحب حتى الأعماق ، والحياة التي حكمت عليها بالتجابه معها عبر السنوات ، لم تنسِها أنها واحدة من البشر ، تمتلك من الأحاسيس والمشاعر ما يكفي لأن تكون مُحِبَّة وحبيبة . لقد عاشت الحب في أكثر من حكاية ، وآخر حكاية عاشتها فيه بدأت عام ٢٠٠٣ حين اصطفى لها الله إنساناً حدَّثَها حدسُها بأنه سيكون بجانبها ما حَيَتْ ، إنسان عرفها مصادفة وهو يشاهدها عبر برنامج تلفزيوني كُرِّمَتْ من خلاله ، وازداد معرفةً بها هاتفيّاً ، وكان ذلك فاتحة

لصداقة حميمة تمَّت بينهما ، حتى أضحت واحة خضراء تلوذ بها من رمضاء حياتها .

صارحها بأن يتم شملهما معاً بالزواج فحاصرتها الفرحة ، فطارت بالبهجة وطارت البهجة بها ، لكن القدر لم يشأ أن يجمعهما في بيت وردي جميل ، إلا أن الأمر اقتصر على أن يُبقيَهما زوجين روحيين حبيبين ، ويؤجِّلا تحقيق أحلامهما إلى جنان الخلود ، تضمهما عصفورين مغرّدين ، أو غصنين متعانقين أبداً في خميلة من نور.

هنا بكيتُ آخر مرة ، ولكن مع نشيج ونحيب جعلا زوجتي وأولادي يهرعون إليّ يستطلعون السبب ، سألتني عيونهم عما بي ؟ فقلت لهم وأنا أتلعثم : أنصحكم بأن تقرؤوا هذا الكتاب ، وأنصح أيضاً أن تقرؤوا ما كتبتُ حوله . وتذكرتُ قوله تعالى : " كذلك يضرب الله الأمثال " سورة الرعد الآية ١٧ ، وقوله عز وجلّ : " ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون " سورة إبراهيم الآية ٢٥ . وهذه البطلة مَثَلٌ لكل الناس، لقد تألَّمتْ فتعلَّمَتْ ، فصارت .

إنني أقف وقفة إكبار وإجلال أمام هذه البطلة العظيمة .

رسالة من طالبة الدكتورة ريم هلال ..
كتبَتْها إليها مودِّعةً قبل تخرّجها – عام ٢٠١٣

إهداء إلى أستاذتي :

أما بعد .. إلى أستاذتي ذات القلب الأبيض المليء بالودّ ، وذلك واضح في التصرّفات والنصائح والتوجيهات الصائبة ، إلى أستاذتي التي ترفع وسام الأخلاق الحسنة والصفات المميّزة الحميدة على صدرها ، إلى من تسدي بالنصائح التي تفيدنا في حياتنا ، إلى من جعلتني أحبُّ هذه اللغة بجميع مصاعبها ، وجعلتني أحب أن أتعلمها بكل تفاصيلها . لقد فرضتِ نفسكِ وشخصيّتكِ واحترامكِ على كلِّ مَن حولكِ، فأحبّوكِ واحترموكِ .. يعجز القلب عن التعبير ، والقلم عن التسطير ، وأعلم أنني لن أفيكِ حقَّكِ إلا قليلاً . القمر يفخر بأنه ينير السماء ، وأنا أفخر بأنكِ رمز العطاء . وسأظلُّ مرفوعة الرأس ، لأنكِ أنتِ أستاذتي . جزاكِ الله خير الجزاء ، وبارك لكِ

وهداكِ سبيل السلام ، وأسأل الله لكِ الثبات على دروب الخير والفلاح ، ولكِ منّي جزيل الشكر والامتنان . لن أجد كلمةً في معجم الكلمات واللغات ، ولا في سطور الكتب ، تستحقُّ شرف الارتقاء لشكركِ . كلّ الكلام الذي كتبتُه لا يفيكِ حقَّكِ ، لأنكِ أكبر وأكبر وأكبر . أعظم الكلمات تصبح أقزاماً أمام هيبتكِ وشموخكِ . أنتِ فعلاً كفء لأن تكوني قدوة لنا ، قدوة صالحة نفتخر بها . كلامي عنكِ ما انتهى ولن ينتهي أبداً ...

طالبتكِ نجاة خدّام

قراءة في المجموعة الشعريّة " تساؤلاتي " للدكتورة الأديبة ريم هلال

وئام عبد الرحمن أمّون

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٧٩٥٠ ، تاريخ ٣١ / ١ / ٢٠١٣

مثلما يولد النور من جفن الصباح ، وكما يرتِّلُ الحبّ تسابيح الروح على شرفة العمر ؛ كشفَت الشاعرة الدكتورة ريم هلال في ومضاتها الشعريّة " تساؤلاتي " ، عن حالة متدفّقة من الروعة والنقاء ، عندما رتَّبَت ذاكرة الأيام عبر تساؤلاتها الدافئة ، لتعيد تشكيل الحياة ، بكلمات حالمة تعاونَت على إرسالها ، همسات أذابَت صقيع الروح على عتبات الزمان .

" تساؤلاتي " .. ومضات شعريّة غنيّة بأسرار روحيّة ووجدانيّة ، أهدتها الشاعرة إلى كل من صارت له شمعتها رفيقة أسفاره ، وبيَّنَت أن تساؤلاتها جاءت متابعة لتساؤلات الشاعر العظيم " بابلو نيرودا " ، منوّهةً بأنها ستظل تطرح تساؤلاتها شاملةً بها حياتها الشعريّة بأسرها ، ما دامت الأسرار لا تنفكّ عن مباغتتها وملاحقتها ، داعيةً قارئها للسير معها ، عبر دروب تساؤلاتها التي اقتحمت أسرار الحياة ، والنفس البشريّة بكل تناقضاتها ، فبدت متمرّدة ورافضة برغم هدوئها وسكينتها :

" أيُّ عبوديّة ألّا ينتقي أحدٌ بنفسه اسمَه ؟ "

ولكنني أؤكِّد أن هذا الأمر يمكننا التحرُّر منه بتغيير أسمائنا ، مع أن الأسماء لا يمكن أن تشكّل الانهيار أو العظمة لأصحابها ، بل هم الذين يرتقون بهذه الأسماء

ويجعلونها تستريح على ذرى الخلود ، فاسم شاعرتنا هو ريم هلال .. وأقول إن " ريم" اسم جميل ويعني الظبي بكل جماله ورقَّته ، وأن الهلال هو مرحلة من مراحل القمر، وهل هناك أجمل من أضواء القمر في الليالي السامرة ؟ ولكنني أسأل كم من ريم بشريّة لم ترتقِ باسمها كما ارتقت شاعرتنا ؟ وكم من شخص يحمل اسم هلال لم يكن مؤهَّلاً لمعناه ، كما لم يستطع أن يجعل منه بدراً مشرقاً في سماء الحياة ..

أما لماذا لا يتشابه يومان في حياة الشاعرة ؟ فلأن الزمن الذي يمضي لا يمكن أن يعود ، ولأن الإنسان الذي يكون ابن اللحظة القادمة ، لا يمكن أن يكون هو نفسه ابن اللحظة الماضية . كما أن القبور لا يمكن أن تمنع بيننا وبين الغائبين ، ما دمنا قادرين على التذكُّر والحلم . وأن من يرشدنا إلى كوكب الياسمين هو روحنا المرهفة والمثقلة بعطر الياسمين .

وحول تساؤل الشاعرة :

" هل السيِّد في الأغلال هو عبدٌ آخر ؟ "

أؤكِّد أن السيِّد سيِّدٌ أينما كان ، ولن يكون إلا كذلك ، سواء أكان في الأغلال أم على صولجان العرش . في حين أن العبد عبد ، حتى ولو كان ملكاً أو أميراً أو رئيساً . مع التأكيد أن نفوس أولئك العظماء ليست إلا براكين بشريّة . وأن الصقيع لا يأتي من الشتاء وحده ، بل من أمور وأشياء أخرى أهمها انعدام الدفء والمحبّة والخير ، وانعدام الأنا العليا لمصلحة الأنا الدنيا . ولهذا لا ضير أن نسمّي من يسرقون الفرحة باللصوص والقتَلَة . وأن الثلج يملك إضافة إلى ثوبه الأبيض كلّ الطهارة والنقاء .

أما يوم الثلاثاء ، فسيبقى أبداً يوم ميلاد الشاعرة ، ويوم انبلاج النور فوق هذا الكوكب ، لذلك أقول لشاعرتنا : إنها لا يمكن أن ترتدي ثوب الحداد ما دامت تتوهَّج محبَّةً وإشراقاً وعطاء ، وما دامت تمتلك ثروة هائلة هي ذاتها وهي رفيقتها الهائمة إلى العالم الآخر ، فالنفوس لن يُنتزَع غلافها الذهبيّ إلا عندما تحين الساعة ، ولهذا فإننا نسير على دروبنا باتجاه مرقدنا الأخير ، مؤكّدين للسرمديّة والفناء أننا مرآة ذاتنا العُلوية فوق الأرض ، وأننا نجسّد رسالة الإنسان في هذا العالم .

أما حول تساؤل شقيقة الشاعرة في نهاية المجموعة :

" شقيقتي الدكتورة ريم ..

هل هناك من أضاء مثل سطورك ؟

فأنتِ أغنيةٌ كلماتها نور ،

ولحنها بريق ذهب "

فحقاً إنه بريق يشعُّ بومضات شعريّة دفاقة تثري النفوس ، وتعبّر عن روح شاعرة يكتنفها الإيمان والثقة بالنفس والقدرة على العطاء .. ومضـات تقودنا إجاباتـها إلى البحث عن مفردات الأمل ، لنكتب قصيدة الحياة بحروف من ضياء .

أضواء على ظهريّة شعريّة في دار الثقافة باللاذقية

سلمى حلّوم

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٨١١٩ ، تاريخ ٩ / ١٠ / ٢٠١٣

أقامت دار الثقافة في اللاذقيّة يوم الثلاثاء الماضي ، ظهرية شعريّة للسادة الشعراء : الأستاذ مالك الرفاعي ، والدكتورة ريم هلال ، والأستاذ ممدوح لايقة .

. . . .

تلا الشاعر مالك الرفاعي حضور شفّاف مميَّز للشاعرة الدكتورة ريم هلال ، إذ ألقَت مقطوعات شعريّة وجدانيّة تضجُّ بالرقّة والإحساس بالواقع المؤلم ، نقتطع بعضاً مما ألقته :

لو أن الشرَّ في العالم

يحتسي جرعةً من النوم

أو لو أنه بالأحرى

ينام ولا يستفيق أبداً

*

في زوايا الصمت أبكيكَ وطن

أبكي صغاركَ وكباركَ

حجارتكَ وأنهاركَ

ليلكَ ونهاركَ

وشجركَ الذي مات

*

لا تأتِني اليوم أيها المساء

تأخَّرْ

تأجَّلْ

إلى غدٍ أو ما بعد غد

تكفيني ظلمات روحي

*

لا حاجة للشمس وهي تبثُّ أنوارَها

إلى أوراق عبور

*

من ليلٍ إلى نهار

من نهارٍ إلى ليل

من صيفٍ إلى شتاء

من شتاءٍ إلى صيف

كذلك أنتَ تمتلك مزاجاً أيها الزمان

. . . .

في نهاية الظهريّة ، وفي جوٍّ مفعم بالحماسة الشعريّة ، عقَّبَ السيّد أحمد منّون ، مبتدئاً بالشكر للدكتورة ريم هلال ، إذ قال : " في الحقيقة إنني شعرتُ في مسألة ما أن هناك ظلماً للدكتورة ريم هلال ، وأنا لا أعرفها إلا من خلال جريدة الوحدة ، هناك ظلم من حيث مقارنتها بطه حسين ، فهي إنسانة مرهفة حزينة متسامحة تغوص بين النجوم ، وأسئلة فلسفيّة كثيرة ... باختصار إنها وردة لا تذبل أبداً ، بأحاسيسها وأطايبها . أما طه حسين ، فقد كنتُ من أشدِّ المعجبين به وبفكره ، لكن في فترةٍ من عطائه ، أنكر الشعر الجاهلي ، وهذا ما أقام عليه الدنيا . وأيضاً عندما تمَّ تكريمه من قِبَل جمال عبد الناصر ، وعند تقديمه من قِبَل المذيع بعميد الأدب

المصريّ والأمة المصريّة ، قال له عبد الناصر : الأمة العربيّة .. وهنا انتفض طه حسين وقال : الأمّة المصريّة .. ومن ثم رفض التكريم من عبد الناصر . وأنا لذلك أفضِّل دكتورتنا ريم هلال على طه حسين ، إذ تتفوّق عليه حبّاً وإنسانيّةً . "

ثم أردف السيّد علي عثمان بتعقيب ثانٍ معلِّقاً على ما باحت به الدكتورة هلال إذ قال : " أحيّي الشاعرة المبدعة الدكتورة ريم هلال ، أيتها الأخت ، أيتها الابنة ، لا تجزعي ولا تأسفي ، فأنتِ كما أنتِ وهبكِ الله بصيرة تهون إلى جانبها أبصار ، وكأن القائل قد عناكِ حين قال :

من كان يحمل بين جنبيه الضحى هانَت عليه أشعّة المصباح

وأنتِ يا سيّدتي ، وأنتِ كما أنتِ تقودين جماهير المبصرين ، فشكراً لكِ . "

في الختام .. استأذنَتْ الدكتورة الحضور للتعقيب ، إذ قالت : " أشكر السيّد أحمد منّون ، والسيّد علي عثمان ، والسيّد فيصل العلي .. وأنا لا أستحقُّ أن أكون مثل طه حسين ، بل إنني أسعى لكي أكون كذلك ، لكن هناك استدراكاً أريد التصريح به: في عام ١٩٩٢ ، قدَّمتُ رسالتي لنيل درجة الماجستير ، وكانت بعنوان " المنهج النقدي عند طه حسين " ، وبما أنني تعلّمتُ من طه حسين ، كيف أكون موضوعيَّةً في نقدي ، مهما كانت تربطني بمن أدرس من العواطف ، كما شأني تجاه هذا الإنسان الذي شكَّل منذ طفولتي قدوة لي ؛ فقد انتهيتُ إلى اكتشافٍ بشأنه ، وهو أنه كان فرعونيّاً إقليميّاً مصريّاً ، وقدّمتُ الدلائل على هذا الأمر ، وتقدّمت برسالتي وأنا أربط بين نقده الأدبي ونزعته الإقليميّة مع ما يكفي من الإثباتات الواضحة القاطعة.. وهنا قامت الدنيا وما قعدت عليّ ، ولم أُنصَف من لجنة الحكم ، وظُلمتُ من قِبَلِها ، إذ أعطتني علامة السبعين التي لم تُعطَ عادةً إلا للذين ينجحون في الدرجات الدنيا . كل ذلك لأن موضوعيّتي حملَتني على قول الحقيقة . "

وفي ختام هذا الدفق الغنيّ من المشاعر التي أجَّجها الشعراء والحضور ، كانت حقاً سحابة عطر فاحت في سماء سورية .

قراءة في المجموعة الشعريّة " بين شرفتي والبحر " للدكتورة ريم هلال

وئام عبد الرحمن أمّون

نُشِرَتْ في جريدة الوحدة – اللاذقيّة ، العدد ٨٢٠١ ، التاريخ ٢٣ / ٢ / ٢٠١٤

هو الحنين استفاق على همس العطر ، عند أول تغريدة لبرعم الحياة ، لحظةَ اشتعل فيها الشوق في كلماتها ، ليسكب رحيقه بين حنايا العمر ، ويرسم بالنور طهر الصباحات . صباحاتٌ رتَّبَتْها الشاعرة في ومضاتها الشعريّة ، لتكشف عن حالة مفعمة بالألق والنقاء .. حالةٌ أوقدَتْها شمعةً شمعةً من أنوار تأمُّلاتها ، إلى أن ملأت فضاءها ما بين شرفتها والبحر :

منذ عشرين عاماً

ومذ أطلَّت شرفتي على البحر

وأنا بها ناسكةٌ

أوقِدُ شمعةً شمعة من أنوار تأمُّلاتي

إلى أن ملأت فضائي

ما بين شرفتي والبحر

" بين شرفتي والبحر " ، ومضات شعريّة غنيّة بأسرار روحيّة وجدانيّة وفلسفيّة ، أضفَت عليها الشاعرة جماليّة وفكراً غنيّاً من مدرسة حياتها ، فأعطياها عمقاً ودفئاً في آن معاً :

بيتي

مفاتيحي

مكتبتي

أساوري

لماذا كلُّ هذه الياءات

وبعد هنيهةٍ ستنام الذاكرة ؟!

وبيت الشاعرة إن ما يختلج بين شرفتها والبحر ، شمل مداها الشعريّ والنفسيّ بأسرهما ، ما دامت الأيام لا تنفكُّ عن ملاحقتها ، داعيةً قارئها للسير معها ، عبر

دروب الأمل التي اقتحمت أسرار حياتها بكلّ تفاصيلها ، فبدت ثائرة برغم هدوئها وسكينتها :

- ذاك يومِ ميلادكِ
- بل يوم إيقاد فتيلي

أنا الشمعة الراكضة في الذوب

وهي البنفسجة الغافية في روض الحروف ، التي تشبَّثَت بكينونتها :

- ما اسمي ؟
- بنفسجة

تشبَّثَتْ بأناملي :

من لوَّنَني ؟!

وكم فاضت روح الشاعرة ، واستوى الأمل على عرش كلماتها ، لتُذيب لوعة القلب على عتبات الزمان ، وتكسر قيد الغياب :

منذ عشرين عاماً

جمعتُ كلَّ حقائبي

وغادرتُ بيتنا القديم

إلا طفولتي

نسيتُها نائمةً على سلالمِه

وتنتقل شاعرتنا إلى أفق أبعد من الدهشة ، يصعد بنا إلى شرفة الروح ، لتتوهّج حزناً وألماً وسؤالاً :

أمَا أنتَ زرعتَ بيديكَ

تلك الزنبقة البيضاء ؟!

فلماذا عدتَ إليها ؟!

ودستَ شذاها بقدمين موحلتين ؟!

وتكسر الشاعرة طوق اغترابها فوق شرفات الكون ، لتشهد لهفة السماء على وليدها البحر ، مسطِّرةً أبديّة الحياة منذ الأزل ، بطريقة فلسفيّة غنيّة بأسرار الروح :

منذ الأزل

والسماء حانيةٌ على وليدها البحر

تهدهده ليلَ نهار

ليلَ نهار

لكنه إلى الأبد

إلى الأبد

مشاغبٌ لا ينام

إن من يقرأ هذه المجموعة ، سيشعر بعمق الكلمات ، واللحظات التي عاشتها الشاعرة في حضرة الحزن ، والتي زادتها توهُّجاً وإيماناً بغدٍ مشرق حالم ، لتمضي باحثةً عن زرقةٍ لبحرها ، وذاكرةٍ لصباحات شرفتها ، عبر حدود الغيم والزمان .

" أحكي لكم " كتاب إلكتروني للدكتورة الأديبة ريم هلال

رنا رفعت

نُشِرَتْ في اللاذقيّة سانا ، ٢٧ / ١٠ / ٢٠١٤

أطلقت الأديبة الدكتورة ريم هلال قبل أيام ، كتابها الإلكتروني " أحكي لكم " ، الذي يشكّل قفزةً جديدةً في مسيرتها الإبداعيّة والحياتيّة على حدٍّ سواء ، فهي بهذه الخطوة تستكمل مسيرة التحدّي والإبداع التي بدأتها منذ مراحلها الأولى ، يومَ حتَّمَ عليها القدر أن تولد كفيفة البصر ، إذ لم تستكن للإعاقة ، بل حوَّلتها إلى مسار تحدٍّ وإرادة ، فواصلت مسيرتها الدراسيّة محقِّقةً أعلى الدرجات العلميّة ، التي أصبحت من خلالها أستاذةً في قسم اللغة العربيّة في جامعة اللاذقيّة . كما أذهلَت الآلاف من متابعي نتاجها الذي ضمَّ عدداً من الكتب الفكريّة والأدبيّة والنقديّة .

وحول إصدارها الإلكتروني الجديد ، أوضحَتْ الدكتورة هلال ، أن الكتاب يضمُّ مجموعة من القصص القصيرة جداً ، التي نقلَتْ أحداثها من أرض الواقع ، فجميع القصص الواردة في الكتاب حقيقيّة ، حدثَت مع الأديبة ومع أناس موجودين في محيطها ، أو وصلت إلى سمعها عبر الأصدقاء ، وهي أحداث قد تمرُّ على الإنسان العادي ، فلا يمتلك أدوات التعبير عنها ، أو إنها ربما تمرُّ عليه مروراً عابراً ، لكن

الأمر يختلف بالنسبة إلى الأديب والمفكِّر القادر على قراءة ما هو قابع في العمق . وأضافت بهذا الصدد : " عادةً يقوم القاصّون بتأليف حكاياتهم من نسج الخيال ، معتمدين ربما على فكرة خطرت ببالهم ، أو حدثٍ من أرض الواقع ، أوحى إليهم بالكتابة ، لكنني تعمّدتُ أن أخرج عن المألوف ، فلا أستلهم خياليّاً الأحداث في هذا الكتاب ، بل أنقل القصص التي حدثت فعليّاً ، وكان فيها من العِبَر ما يستحقُّ الكتابة . فإذا ما نظرنا حولنا ، ورصدنا مشاهداتنا الحياتيّة ، سوف ندرك أن الواقع أغنى من الخيال بدرجة كبيرة " .

وأشارت الدكتورة هلال ، إلى أن السمة الإبداعيّة في الكتاب الذي نشرَتْه على موقعها الإلكتروني ، تكمن في خصوصيّة الأسلوب والطرح والقدرة على التقاط الأفكار ، التي تحمل في طيّاتها دروساً حياتيّة مهمة . فقد تفحَّصَتْ الواقع جيّداً ، وتمكّنَتْ من جمع عدد كبير من القصص الإنسانيّة ذات المغزى العميق والبعد الوجداني المؤثّر ، لتقوم بعد ذلك ، ومن خلال حرفتها الأدبيّة ، بصياغة هذه الحكايات الحقيقية بحبكة أدبيّة تعكس أسلوبها الأدبي .

أما بالنسبة إلى أسباب اختيارها النشر الإلكتروني ، فذكرَت أنها تميل إلى هذا الشكل من النشر ، لكونه يجنِّبها صعوبات التعامل مع دور النشر الورقيّة . فهي تعدُّ معظم أصحاب دور النشر ، أسوأ قرّاء للأدب ، بفعل تعاملهم معه كسلعة ، يبتغون من خلالها الربح فقط ، ويقومون بابتزاز الأديب ماديّاً . هذا إضافة إلى وجود العديد الآخر من مساوئ النشر الورقي على المستويين الفني والتقني .

وتابعت الدكتورة هلال : " إن أكثر ما يهمّني في النشر الإلكتروني ، ما يوفّره لي من إيصال إنتاجي الأدبي والفكري إلى أقاصي الأرض ، وإلى عدد غير محدود من البشر ، في حين تبقى النُّسَخ الورقيّة محدودة ، ويصعب تسويقها . لذلك فإنني أعدُّ موقعي الإلكتروني على الشابكة ، دار نشر خاصة بنتاجي ، وملاذاً آمناً يوفِّر لي الكثير من الراحة النفسية والمعنوية ، ويجنِّبني ظلم دور النشر الورقيّة " .

ريم هلال في " العرّافة " و " كلّ آفاقي لأغنياتكِ "

فصل من كتاب " قراءات أدبيّة فكريّة معاصرة "

بدءاً من القرن الحادي والعشرين – مئة كتاب في كتاب

تأليف الشاعر محمد الزينو السلّوم ، دار الرضوان – حلب ، ٢٠١٥

الشاعرة ريم هلال ، صدرت لها مجموعتان شعريّتان ، الأولى بعنوان " العرّافة " ، والثانية بعنوان " كلّ آفاقي لأغنياتكِ " .

في مجموعتها " العرّافة " التي قدّم لها الأديب حنّا مينه بقوله : " ولن أتحدث عنها لأنني تقصّدتُ عدم قراءتها قبل قراءتي الانطباعيّة والذوقيّة للمجموعة ، خشيةَ الوقوع في مطبّ التأثُّر النقديّ . كما أنني لا أحبُّ المقدّمات التي تُكتَب للمجموعات الشعريّة بغضّ النظر عمّا تتضمّنه ، لأنها تؤدّي في أغلب الأحيان للانسياق وراءها، وهو شيء غير مستحبّ عندي ".

فلكلّ ناقد أو دارس أو قارئ انطباعاته الخاصّة ، وأسلوبه النقدي الذي يميّزه عن غيره . ومن خلال قراءتي الأولى للمجموعة ، وجدتُ تنوعاً في الأشكال والمضامين التي ترتكز عليها الشاعرة ، بالإضافة إلى دلالات الطفولة التي لا تخلو قصيدة منها، وكذلك فإن النجوم والقمر والشمس والبحر والورد ، كثيراً ما يسكنون فضاءات الشاعرة من خلال قصائدها المتنوّعة والملوّنة . وعلى الرغم مما هي عليه ، فإنك تجد التفاؤل والأمل ينسجان لحمة قصائدها المليئة بالصور الجميلة ، تأتي في لغة بسيطة وسهلة في أغلب الأحيان ، تترك بصماتها من خلال الأسئلة الحيرى التي كثيراً ما تزرعها هنا وهناك .. ولا بد لنا من النزول إلى شطّ المجموعة للاطلاع عن كثب على بحرها في أمواجه ، ومدّه وجزره ، على رمال الشاطئ الشعري .

تطلُّ علينا المجموعة في بدايتها بقصائد : السيكويا – العرّافة – أسطورة– صلاة– سؤال – أبي – شجرة الليل – في البدء – نار وأشجار – حكاية تدور – نداء إلى البحر – نداء إلى القمر ...

في قصيدة " العرّافة " ، في رحلتها إلى الشتاء والصيف ، وكأنها فصول الشاعرة ورحلتها مع الطبيعة منذ بدايتها تقول :

وإذ كنتُ أنشدُ في بحار طفولتي

وأظنُّ أنْ لا شيء سوى الفرح

أمسكَت عرّافةٌ برأسيَ الصغير

أدارَته نحو زاويةٍ من الفضاء :

أتبصرين ذلك النجم ؟

امتطت الشاعرة زورقها ، وانطلقت إلى فصل الشتاء .. وجدته حقداً ، وحقول شوك ، وليلاً وبحراً ، وصقيعاً وأفاعي .. يحاول البحر محاصرتها ، فتحلّق وتعلو لتتجاوز الشتاء ..

وفي المقطع الأخير ، تدخل فصل الصيف ، بعد حقبة من الرياح ، حيث تسأل في نهاية القصيدة :

- أين أنا ؟

- في الصيف

- ما الذي يبرق من حولي ؟

- عناقيد النجم

حدَّقتُ في وجهها أكثر :

ألستِ أمي ؟ ..

فمدَّت إليَّ يداً خضراء

وانطلقنا نغنّي للشجر

في فصل الصيف تبرق من حولها النجوم – الأم والخضرة .. أما الخريف والربيع، فهما غير موجودين في القصيدة ..

في قصيدة " في البدء " ، وهي قصيدة تشبه الومضة ، تتحدث عن الحلم والاحتراق فتقول :

كان الحلم وحيداً

كان الاحتراق وحيداً

صار الحلم عصفوراً

صعد الاحتراق غيمةً

التقيا في زاويةٍ من الفضاء

فأتت الأرضَ طفلةٌ

سمَّياها الطينةَ الأولى

نجد الحلم والاحتراق يلتقيان عصفوراً وغيمة في الفضاء ، ينجم عنهما ولادة طفلة.. وهي من القصائد الذهنيّة التي يطغى فيها العقل على العاطفة ، والتي كثيراً ما تعتمدها الشاعرة في قصائدها ..

في قصيدة " نداء إلى البحر " ، تخاطب البحر وتناديه : أيها البحر ، وتكرّر النداء في المقاطع الثلاثة .. في المقطع الأول تقول :

أيها البحر :

إلى هذا الحدِّ أنتَ دافئٌ

كي أفرَّ إليك ؟

إلى هذا الحدِّ أنت فسيحٌ

كي أوْدِعَكَ جراحاتي ؟

إلى هذا الحدِّ أنتَ نقيٌّ

كي تغسلني من حصار العفونات ؟

إلى هذا الحدِّ أنتَ طاهرٌ

كي تظلَّ حانقاً على الأكذوبة ؟ ..

وفي المقطع الثاني ، تتمنّى أن تحمله معها إلى حيث تتمزّق ، كيلا يعاودها بحر الغبار ، وتضمّه إلى صدرها ، إلى اشتعاله الذي بدأ ، بعد أن تبرَّدَت رئات ذلك الأزل ..

وفي المقطع الثالث والأخير ، تتمنى أن تتلقّن لغة البحر ، كي تظلَّ تحاوره ، وأن يعود طفلاً كي تتسع عيناها له .. وهذا ما يؤكّد لنا اعتماد الشاعرة على العقل أكثر من العواطف في قصائدها ، إذ تتصوّر البحر بدفئه وفسحته ونقائه وطهره ، وهذا يأتي من تخيُّلها الذهنيّ أن للبحر هذه الصفات الطيّبة ، فالبحر بالإضافة إلى ما ذكرَت فيه ، هو الأمواج والظلمة والحيتان ، والغدر أيضاً .. وقد يكون لفقدان البصر دور وتأثير فيما تقول ..

وفي قصيدة " نداء إلى القمر " ، تصبُّ عليه أسئلتها الحيرى قائلة له : لماذا ..؟ لماذا .. ؟ لماذا ..؟ وتكرّر النداء : أيها القمر .. في بداية كلّ مقطع ، وتسأله من جديد : ما عمركَ ؟ كم حلماً أزهرَ في اخضراركَ ؟ وكم وكم .. وإلامَ ..؟ وهي من القصائد الجميلة للشاعرة ..

وتتوالى القصائد في المجموعة : حي وسفر وذاكرة – تراتيل البقاء – أغنية الطين– بعد الضجر – إلى صديقة – شجرة التفاح – حوار – فصول – خروج – عالم وكلمات – مسألة – توحُّد – حداد – يتيمة – ألوان ..

وأنتَ تقرأ الشاعرة في قصائدها ، تحسُّ بالتلوين والتنوّع في الشكل والمضمون وطول القصيدة ، ومقاطعها ، حتى تصل إلى الومضة ، ويأتي ذلك في لغة سهلة ، قليلة الانزياحات اللغوية ، شفافة .. مليئة بالصور ..

أما ما ذكرَتْه حول دلالات الطفولة والشمس والقمر والنجوم والبحر والورد ، فما أكثرها عند الشاعرة ، كما في قصيدة " تراتيل البقاء " إذ تقول : أبتعدُ خطوة عن الشمس – وتنطفئُ في عينيَّ أنجمي – ما دمت قد لاعبتُ طفلة – لأروي عينيه الطفلتين ..

في قصيدة " فصول " ، تفتح الشاعرة عينها على الخريف .. وتلمح من بعيد ربيعاً فتنهض نحوه ، فهي تحكي فصول الخريف والربيع ، بعيداً عن الشتاء والصيف، كما هو في قصيدة العرّافة ..

في قصيدة " عالم وكلمات " ، تعود لأسئلتها الحيرى ، لتسأل في المقطع الأول : هل لكلماتي ، وتكرِّرها أربع مرات .. ؟ وفي المقطع الثاني تسأل من جديد ، هل لكلماتي .. " رغيفاً – مدفأة – فجراً – زنبقة " على التوالي .. وفي المقطع الثالث ، تعود لتسأل : هل لكلماتي " سؤالاً – قلقاً – حيرة – خطوة .. ؟ " . وفي المقطع الرابع تسأل أيضاً : هل لكلماتي " صرخة – حجراً – جمراً – سُمّاً .. ؟ " وكل مقطع يتناول أربعة أسئلة ، وهي من القصائد التي يكثر فيها الأسئلة والتكرار أيضاً .. ولكنه تكرار محبَّب بالطبع ، لأنه يتضمّن أسئلة مفتوحة .. فيها الكثير .

في قصيدة " مسألة " ، تقترب من العيون في القصيدة ، وتطرح فكرة البصر والبصيرة والرؤيا الإنسانيّة من خلالهما .. تقول في مطلعها :

أوقدتُ له شعلة

وكان مُفَتَّحَ العينين

سألتُه ما هذه ؟

قال شمعة مطفأَة

جعلتُ القمرَ في كفِّه

وكان مُفتَّحَ العينين

سألتُه ما هذا ؟

قال حزمة غيم ..

وتستمرُّ الشاعرة في افتراضاتها وأسئلتها ، إلى أن تختم القصيدة بقولها :

سألتُه ألستَ مُفَتَّحَ العينين ؟

قال ليَ الله :

ولكنْ على الليل

في قصيدة " ألوان " ، تميِّز الشاعرة بين المتفائل والمتشائم بقصيدة قصيرة تشبه الومضة . تقول :

أنصَتا ليلاً بهدوء

إلى سمفونيّة المطر

الأول :

هذا زورق حلمي

الثاني :

هذا حطبُ أدمعي

وتتوالى القصائد : سمكة مضيئة – هباء – سرّ – طقس – مسافة – عَبَدَة النار – وردة في أسطورة – وحيدان – الحَمَل والذئب – تحوُّلات – انتظار – نذر – جانبان – بعد النهاية – نشيد – تبصُّر – رجل وشجرة – حلم – ذاكرة – موسم – حكايتان – أمنيات – أغنية الصباح – في العراء – طفلة .

في قصيدة " جانبان " تقول :

كلما تسلَّلَ إليَّ جرحٌ

تفتَّقَتْ عريشةُ ياسمين

فيا جراحي تكاثري

تلوَّني

لعلي أنلمُّ واحةً

لعلي أصعد نجمةً

إن مثل هذه القصيدة الومضة ، كثيراً ما تلجأ إليها الشاعرة ، أو لنقُل تتلبَّس الشاعرة وتكتبها . نلاحظ هنا : كلما تسلَّلَ جرحٌ ، فالجرح يتسلَّلُ كما اللصّ رويداً رويداً ، تفتَّقَتْ عريشة ياسمين ، تتبرعم وتزهر عريشة ياسمين ، فالجرح عند الشاعرة يفتِّق الياسمين ، ولذلك تسأل عن المزيد من الجراح وتلوُّنِها ، لتصنع منها واحة تضمُّ عرائش ياسمين ، ولعلها بذلك تصعد نجمةً إلى السماء .. اشتدّي أزمةً تنفرجي، والفرج عند الشاعرة هو الصعود كنجمة إلى السماء .. إنها تصنع من الجراح النازفة عسلاً في الجرار " من الألم تخلق الأمل " ، لقد أصابها الألم فعلاً ، فحوَّلَتْه إلى أمل .. وهذه حال الشاعرة التي تتخطّى الجراح وتبعثها أملاً في نفسها ..

في قصيدة " أمنيات " ، تعود الشاعرة لأمنياتها ، ويتجلّى ذلك في تكرار " ليتني " في القصيدة ، تقول منذ البداية :

ليتني أشرب كلَّ اللغات

لأُدفَقَ نهراً

ليتني أحضن كلَّ العيون

لأُبسَطَ أفقاً

ليتني أطرق كلَّ المنازل

لأُغرَسَ دفئاً

ليتني ..

ليتني ..

تتمنّى لتصنع من أمنياتها " نهراً – أفقاً – دفئاً – حبّاً – لتزهر نجمةً – لتلوَّنَ بحراً – لترقى مسيحاً – لتسعى جُنينة " . نلاحظ هنا استخدامها أفعال : لأُدفَقَ – لأُبسَطَ – لأُغرَسَ – لأُنشَرَ – لأُزهِرَ – لأُلوَّنَ – لأَرقَى – لأَسعَى .. كلها أفعال

مسبوقة بحرف لام التعليل ، وهي أداة نصب للفعل المضارع الذي يتصف بفعل الحاضر والمستقبل .. وليس الماضي .. وكلّ هذه الأفعال فيها العمل والحركة والأمل .. وكثيرة هي القصائد الطويلة والقصيرة في المجموعة التي تكرر فيها الشاعرة بعض الكلمات ، لتأكيد الحالة مثل قصيدة " في العراء " : أيها الذي .. لماذا .. لا .. أيّ .. ما .. ما الذي .. فماذا .. خذوا .. خذوا : " سطوري ، شموعي، صلوات خطوي ، أحلام مرافئي ، أصواتي ، أجفاني ، إيقاع رئتيّ ، أنهار دمي ، شرفاتي ، بلابلي ، أزهار ربيعي ، نوافذ الضياء " وأخيراً تقول : خذوني .. فأنا اليوم جسدٌ بدائيّ .. فأنا لاحتراقكم قربان .. إنها التضحية من أجل الآخر .. فلا أحلى ولا أجمل من هذا العطاء .. بعد كل هذه الأسئلة ..

في قصيدة " طفلة " ، وهي آخر قصيدة في المجموعة الأولى ، حواريّة بين أب وطفلته ، تتجلّى فيها رؤيا الشاعرة ، وهي من روائع قصائدها ، تقول فيها :

– أبي

– صغيرتي :

دونكِ هذه الشمس

فقد أقسمتُ أن أبحر

لكي أحملها لعينيكِ

– أبي :

حلَّقتَ بغتةً

ولوَّحتَ :

لا مُتَّسَع

فهنالك شموس

أخشى أن تنام

إن الشاعرة تمتلك شموساً في ذاتها ، وفي قلبها وفي روحها .. وليس شمساً واحدة هي شمس البصر ، إنها تمتلك شموس البصيرة ..

وهذه القصيدة الحواريّة بين أب وطفلته ، تدلّ على الحب الكبير الذي يتبادله الآباء والأبناء دائماً في مثل هذه الحالات .. وقد تجلّى في المقدمة التي كتبها والد

الشاعرة في مجموعتها الثانية " كل آفاقي لأغنياتكِ " ، والتي سنأتي على قراءتها فيما بعد .

ومن خلال استعراضنا السريع لعناوين القصائد وعددها في المجموعة ، نجدها عديدة ومتنوعة وملوّنة ومميّزة أيضاً .. قصائد نثريّة ، كمن ينثر الورد والحب والأمل، ذات مقاطع قصيرة لا تركّز على القافية ، مليئة بالصور والخيال والتخييل ، وكل ذلك يأتي في لغة سهلة ممتنعة شفافة ذات دلالات ومضامين إنسانيّة ووجدانيّة.. " ذهنيّة وعاطفيّة " ، ترتكز على العقل والإحساس معاً ، تكثر فيها الأسئلة الحيرى ، والأماني الجميلة . وإذا كانت الصور المركّبة أو الانزياحات بأنواعها قليلة نسبياً عند الشاعرة ، فإن هذا جعل شعرها شفافاً بعيداً عن الغموض أو حتى الضبابية ، يتلألأ كالنجوم ، ويضيء كالشمس ، وينير كالقمر .

وإذا كانت الشاعرة تكثر من قصائد الومضة ، فذلك يعود إلى أن مثل هذه القصائد مركّزة ومقطّرة ، تدخل فيها الذهنيّة قبل العاطفة ، تشتركان معاً في رسم اللوحة . وإذا كان لي رأي سابق في مثل هذه القصائد ، أي قصائد الومضة ، وما زلتُ أتمسك به ، " في أنها تشبه أصائص العطر المركز " ، والشاعر غير مطلوب منه ذلك ، وعليه أن يدخل الحديقة ليشم العطر ، ويرى بأم عينه الزهور والخضرة والماء ... يسكنها في أعماقه وأحاسيسه ، ثم يبعثها أو يرسمها لوحةً شعرية إبداعية، إلا أن الأمر هنا يختلف ، فالبصيرة تحتاج إلى العقل والعاطفة معاً ، وهذا ما فعلته الشاعرة ، وأصابت فيما ذهبت إليه .

في مجموعتها الثانية " كل آفاقي لأغنياتكِ " ، يقدّم لها المجموعة والدها " عبد القادر هلال " ، وهي بمثابة مدخل للمجموعة ، إذ يعترف بأنه ليس مختصاً بالنقد ، ولكن فيما يتعلق بإبداع ريم هلال ، فهو من اختصاصه ، فريم وتجربة حياتها تمثل قصيدة طويلة ما زلنا ننشدها معاً ، وهي مدخل رائع وصادق وعفوي ، يجسّد لنا حبّ الأب لابنته ، وتضحيته من أجلها ، ويعرض لنا تجربة ريم هلال التي عرفت وخز الدمع وهو يجفُّ على صفحة الوجه ، ويحكي لنا طفولتها ، وما لاقته من صعوبات ومشقات ، وكيف تغلّبَت عليها بالجهد الدؤوب والإيمان الذي زرع فيها الأمل ،

وتحقيق المستحيل . إن المقدمة بمنزلة شرح تجربة ريم هلال الطفلة والإنسانة ، ولا يتعرض لتجربتها الإبداعية الشعرية من قريب أو بعيد .

تبدأ المجموعة بقصيدة " خلاص " بتكرار كلمة " حين " ست عشرة مرة ، لتقول بعدها : " سألملم أوراقي بسَكِينة .. وأغلق دواتي وأنام " . وتتوالى قصائد المجموعة: أبي – يقظتان – مصادفة – امتداد – بذل – تمهُّل – عاصفة – أسف – لدغة واحدة – الخيل والبعوضة – شمس ثانية – عودة – تنقُّل – بداية وأفق – حقد – إلهان – من كتاب – سلاحان – في الأزل – في الخفاء ...

في قصيدة " بذل " تسأل :

- لماذا تُصدِّعُ نفسك ؟
- في داخلي كرمة
- لماذا تبعثر نفسك ؟
- على الشرفات ليل
- لماذا تصلب نفسك ؟
- أخشى أن أضيع

فالذهنيّة تغلب على قصائدها على حساب العاطفة ، إلا أنهما تشتركان معاً في صنع القصيدة الومضة . وكحال مجموعتها الأولى ، تتكرر عند الشاعرة دلالاتها اللغوية بصدد فضاءات الطفولة والنجوم والقمر والشمس والطبيعة بما فيها من جبال وأنهار وخضرة .

في كل قصيدة ومضة فضاء خاص بها ، وحالة تختلف عن الأخرى . في قصيدة " عاصفة " ، تجمع من الكهوف اللؤلؤ والحرير والتبر ، وتصيّرهم حقلاً في الصحارى ، فيتبعها أشباح يقولون : " اقطعوا يد السارقة " .

في قصيدة " بداية وأفق " ، من عود الثقاب الذي رُمِيَ في دمها ، أطلّت على الحرائق ، ومن أول وردة بيضاء ، تفتَّحَتْ في دفاترها ، أطلّت على البيادر .

فقصيدة الومضة القصيرة جداً عند الشاعرة ، هي قصيدة مركّزة ومقطّرة ، تطرح فكرة لتصل منها إلى نتيجة كما رأينا ، تريد أن تقول لنا في قصيدة " بداية وأفق " الحرائق تبدأ من عود ثقاب ، والبيادر من وردة بيضاء .

في قصيدة " سلاحان " تقول :

وقف أمامي صَلِفاً

وفي يده قوس

بُحتُ لنفسي :

لا أملكُ قوساً

باحت نفسي :

في دمكِ ضوء

فأطلقتُ عليه سهماً

ففرّ

إذاً الإرادة والتصميم والثقة بالنفس ، تجعل من الضوء في دم الشاعرة سهماً تدافع به عن حقِّها ، وعن نفسها ، وتتغلّب على الصَّلِف وما بيده .

في قصيدة " رد " تقول :

دخل النمر غابته وزمجر :

لا أحد يقربُني

كل المشارق لي

اختفى

أين ؟

الليل :

هي وخزة واحدة

من إبرتي

أعود من جديد لأقول : لكل قصيدة ومضة عند الشاعرة ، فضاءاتها ودلالاتها ، وهي تذكّرنا بالقصائد الكلاسيكيّة القديمة ، حيث نجد في القصيدة ما يسمونه بيت القصيد ، بيت واحد فيه حكمة تتردد على ألسنة الناس مثل : " ما كل ما يتمنّى المرء يدركه ... " وكذلك " إذا أنتَ لم تشرب مراراً على القذى ظمئتَ ... " . فقصيدة الومضة هي بحدِّ ذاتها بيت القصيد كله ، وهي الحكمة بمثابة الإبرة التي جعلت وخزة واحدة منها تخدّر النمر أو تقضي عليه . وأقول هنا : إذا كانت الحكمة

بيت القصيد في قصيدة الومضة ، فأين الصور اللغوية الجميلة والخيال والتخييل ؟ وأين الجمل المركّبة التي تأتي بالانزياحات والدلالات بأنواعها ؟ أين الشعر وفضاءاته الشفافة ؟ أين الشكل المبنى الذي يكمل المضامين والمعاني ؟ إن ذلك كله جزء لا يتجزأ من القصيدة ، وهذا كما ذكرتُ ، لا يتعلق بالشاعرة ريم هلال ، وإنما بكل من يكتب قصيدة الومضة ، وهذا مجرد رأي لا أكثر من خلال قراءة انطباعية ذوقية ، وهذا يتعلق بمن يكتبون قصيدة الومضة فقط . أما من كان ينوّع في القصائد، في الأسلوب والشكل والمضامين " عمودية – تفعيلة – نثرية " " طويلة – أقل طولاً – قصيرة " ؛ فذلك أمر آخر ، وللشاعر كل المبرّرات لكتابة مثل هذه القصائد القصيرة جداً ، وقد تُكتَب في المستقبل قصائد قصيرة جداً جداً ، على غرار القصة القصيرة ، والقصيرة جداً ، والحديثة ، والحديثة جداً ، ولا أدري أين تقف مثل هذه التسميات ، وإلى أين تصل في المستقبل .

وما وجدتُه مبرّراً لِما قلتُه بصدق وصراحة ، هو لجوء الشاعرة ريم هلال بالذات ، إلى الإكثار من مثل هذه القصائد ، إلى حدٍّ بدا لي أنه أصبح منهجاً وأسلوباً ، تعتمده الشاعرة في مجموعتها الثانية ، إذا ما قيسَ بالمجموعة الأولى ، وقد يكون لها مبرّراتها الخاصة لكتابة مثل هذه الومضات ، ولكن أن تتخذها أسلوباً ومنهجاً باعتبارها تعتمد العقل والذهنيّة ، على حساب الأحاسيس والمشاعر ، فهذا أمر لا أنصح به ، وبخاصة أنها – كما لمستُ من إيمانها وصبرها وجهدها واجتهادها – أنها تستطيع أن تفعل ما لم يفعله الأوائل ، وهذا ما دفعَني إلى أن أصرّح بهذا بعيداً عن العاطفة الإنسانيّة التي تتعلق بخصوصيتها ، على الرغم من أنني أجلُّ وأحترم تجربتها الإبداعيّة ، وأي تجربة إبداعيّة أخرى على المستويات كافةً ، فلكلٍّ صوته ولونه اللذان يميّزان لوحته الإبداعيّة .

في قصيدة " عيد الأرض " ، وهي من القصائد الطويلة للشاعرة ، تخاطب الشاعرة ابنة شقيقتها الزنبقة ، رفيقتها الصغيرة " زينة " ، فتقول :

قبل أن يستيقظ البحر

قبل أن يهمس الشجر

قبل أن يتأرّج البنفسج

قبل أن يرتّل المطر

رسمتُها

سمّيتُها

أضأتُ في كفِّها عصفورةً

وناديتُ عيدَ الأرض

هذا في المقطع الأول ، والقصيدة تتضمّن عدة مقاطع . ومن خلال قراءة انطباعيّة للقصيدة ، تحسُّ بالصور الجميلة والبديعة " استيقاظ البحر – همس الشجر– تأرُّج البنفسج – ترتيل المطر " ، إنها تؤنسن البحر والشجر والبنفسج والمطر ، ثم تضيء في كفّ الطفلة عصفورة ، وتنادي عيد الأرض وفرحته .. ما أجمل هذا .. إنه الشعر .

في المقطع الثاني ، تأتي على الأطفال :

كلُّ الأطفال رسوا

صلّى حلم الأرض

كلُّ الأطفال حبوا

رفرف حلم الأرض

كلُّ الأطفال حملوا دفاترهم

ضجر حلم الأرض

كلُّ الأطفال صعدوا أراجيحهم

ناح حلم الأرض

إنها ترسم حركة الطفولة منذ البدء " رسوا – حبوا – حملوا – صعدوا " مقابل " صلّى – رفرف – ضجر – ناح " أفعال ماضية تعني الطفولة ، والماضي والذكريات للشاعرة ، جاءت بعاطفة صادقة جيّاشة معبّرة .

وفي المقطع الثالث ، تسأل عنها فتقول :

سألتُ عنها البلابل

فقدَت ذاكرة النشيد

سألتُ عنها الجداول

رسمَت خارطة السراب

سألتُ عنها القمر

بحث في الأفق عن روضةٍ

سألتُ عنها الفجر

ذاب في عباءة النعاس

كلها أفعال ماضية " سألتُ – بحثَ " ، " سألتُ – ذابَ " ومن سألَتْ ؟ " البلابل– الجداول – القمر – الفجر" . إنها فضاءات الطبيعة الواسعة عند الشاعرة ، وما أوسعها من فضاءات تحمل دلالاتها الرائعة ، فالبلابل فقدَت ذاكرة النشيد ، والجداول رسمَت خارطة السراب ، والقمر بحث في الأفق عن روضة ، والفجر ذاب في عباءة النعاس ، وكل هذه الأسئلة من أجل عينَي " زينة " ابنة الشقيقة .

وفي آخر القصيدة تقول :

أزينتي ؟

تشبَّثَتْ بأصابعي :

أين عصفورتي ؟

وحلّقنا في مرافئ الشذى

وللعصفورة في مخيّلة الشاعرة ، فضاءاتها ودلالاتها ، التي جعلت الشاعرة ريم وطفلة أختها زينة ، تحلّقان في مرافئ الشذى ، لتبحثا معاً عن العصفورة .

في قصيدة " لا " ، تعود الشاعرة للعصفورة ، وتكشف لنا السرّ الذي كنا نبحث عنه من قبل في قصيدة " عيد الأرض " ، تأتي بعد اثنتي عشرة قصيدة مرت ، لتقول من جديد في قصيدة " لا " : إن العصفورة هي رفيف ، أختها وصديقتها التي أهدَتها مجموعتها الأولى " العرّافة " في قولها :

إلى رفيف قارئتي الأولى

إلى رفيف شقيقةً وصديقة

في المقطع الثاني تخاطبها قائلةً :

عصفورتي

أحلِّقُكِ بالغصن

باليـنبوع

بالورد

ألّا تطلقي الحلم

إذا ما انطفأ الغصن

إذا ما غفا الينبوع والورد

وفي المقطع الثالث والرابع والخامس ، تكرّر نداء " عصفورتي " ، وتسألها وتستحلفها ، بغية التصدي للَّيل ، لأن هناك مليون نخلة تقيم صلاة الفجر ، تسألها ألّا تذبل ، مادام البحر يجلو شمسها ، فكيف السكون ؟ ثم تسألها كيف الضجر ؟ وهي أغنية صباحها وكيف الرقاد ؟ وهي سميرة عتمتها ، وتحلّفها في المقطع الأخير، بالغصن والينبوع والورد من جديد ، ألّا تطلق الحلم ، إذا ما انطفأ ، وإذا ما غفا صوتها ، وسافر البحر .

وهي من قصائدها الرائعة والجميلة ، تكشف لنا الشاعرة من خلالها عن الحب الذي تكنُّه لرفيف ، الشقيقة والصديقة ، وقد جاءت في صور ودلالات وفضاءات واسعة تدلُّ على شعريّة شفّافة " إطلاق الحلم – انطفاء الغصن – إغفاء الينبوع والورد – إغفاء صوت الشاعرة – سفر البحر " ، صور جميلة وأنسنة للطبيعة ، وحتى الأشياء تدل على شفافية وفضاءات الشاعرة الواسعة والجميلة كما ذكرتُ من قبل .

تتوالى القصائد في المجموعة : تدفُّق – من بعيد – بَون – انتصار – ثراءان – تحسُّر – عقوق – مباغتة – مساء وجزيرة – زجاجتان – حقبة – عدل – ذهول – فرح – طفولة – زيف – إلى الصديقة – نحو السكينة – شرفة – غريبان – هلع – حذر – بيروت – جانب آخر . وتنتهي المجموعة .

في قصيدة " زجاجتان " تقول في المقطع الأول :

منح عينيه زجاجة خضراء

لملمَ نهراً من شذى

ركضَ في المراعي

وفي المقطع الثاني تقول :

منح عينيه زجاجة سوداء

دنَتْ سفنُ البرد

طوَتْ أشباحٌ نجمتَه

وفي المقطع الثالث والأخير :

منح عينيه كلتا الزجاجتين

تصالحَتْ في دمه

تراتيل الفصول

تعتمد الشاعرة في بداية كل مقطع ، العيون للمنح ، مرة زجاجة خضراء ، ومرة سوداء ، ومرة كلتا الزجاجتين . في الزجاجة الخضراء لملمَ نهراً من شذىً ، ركض في المراعي . وفي الزجاجة السوداء ، دنَت سفن البرد ، وطوَتْ أشباحٌ نجمتَه . وفي كلتا الزجاجتين ، تصالحت في دمه تراتيل الفصول ، وكأنها تريد أن تقول : ما بين الأخضر والأسود ، توجد حلول وسط ، تتصالح فيها الفصول ، ما بين الشتاء والصيف ، خريف وربيع ، أي هناك في الحياة كما نرى بعيوننا ، أكثر من حلّ ، وإن كان اللون الأخضر يلملم نهراً من شذىً . وفي اللون الأسود تطوي أشباحٌ النجوم .

وفي قصيدة " بيروت " ، تكرّر الشاعرة في مقاطع قصيدتها الطويلة كلمة " صباح – كيف – مَن – لِمَ – هل – همزة الاستفهام – أنا " أسئلة وأسئلة حيرى تسألها لبيروت : كيف صحَت من الشوك ؟ كيف اغتسلَت من الريح ؟ كيف استعادت أعراس الشجر ؟ بعد أن تصبّحها بالخير .

وفي المقطع الثاني تعود لتسألها من جديد ، بعد صباح الخير :

من حملَ الغسقَ إلى مرافئكِ ؟

من أراحَ الأشباح في دروبكِ ؟

من قايضكِ بالزنابق حطباً ؟

من سرقَ الأحلامَ من شرفاتكِ ؟

وتعود لتقول من جديد : صباح الخير يا بيروت .. صباح الخير يا حلوة ، ذلك في المقطع الثالث وتسأل :

لِمَ كحَّلوا عينيكِ بالسلاسل ؟

لِمَ صبغوا وجهكِ بالفاجعة ؟

لِمَ سرّحوا شعركِ بالخنجر ؟

وتعود لتسأل : هل .. هل .. إلى أن تقول : هل ضاقوا بضحكات القمر

وفي المقطع الرابع تقول :

صباح الخير يا بيروت

صباح الخير يا طفلة

أجائعة ؟

وتستمرُّ في سؤالها : أعطشى . أضَجِرَة ؟ أيتيمة ؟ وتطيِّب خاطرها بعطف وحنان. وتتجلى في القصيدة وطنيّتها وحبها لبيروت الوطن ، من خلال شفافيّة وإحساس مرهف ، أسئلة وأسئلة ، ثم أسئلة تعقبها أفعال :

أجائعة ؟

دعيني أوقظ تنّوركِ

أعطشى ؟

دعيني أُضئ ينابيعكِ

أضَجِرَة ؟

تعالي نصالح الثلج

أيتيمة ؟

دونكِ ثوباً لعيدكِ

وتنهي القصيدة بقولها :

بيروت

أنا بين أشجار نفسي

وحيدة

أنا بين أرزكِ أغنّي

صباح الخير يا وطني

فبيروت وطن الشاعرة كدمشق والقاهرة وعمّان والجزائر ، عروبتها وطنها ، وأمتها قضيّتها ، تخاطبها " صباح الخير " ، وكأن الشاعرة على يقين بالنصر ، وتحرير الجنوب في آخر المطاف ، وهذا ما رأيناه بعد ثلاث سنوات من صدور مجموعتها هذه .

أكتفي بما قرأتُ من قصائد المجموعة ، وأعود لأقول من خلال قراءة " كلّ آفاقي لأغنياتكِ " التي تتضمن اثنتين وسبعين قصيدة ، أغلبها قصائد قصيرة وقصيرة جداً، يمكن تسميتها قصائد ومضة . وقد حاولتُ جاهداً التلوين والتنويع في القصائد من خلال قراءة المجموعتين ، لأصل بعد رحلتي الطويلة إلى القول : إن للشاعرة ريم هلال صوتها ولونها المميزين في شعرها النثري الذي ارتضَته واعتمدَته أسلوباً ومنهجاً في رحلتها وتجربتها الشعريّة ، وإن كان مثل هذا الشعر ، ما زال قيد التجربة حتى الآن ، وهذا ما أقرَّه أكثر النقاد ، سمّاه البعض نصاً ، والبعض تأملات ، والبعض بوحاً ، والبعض قصيدة شعريّة ، وبغضِّ النظر عن كل هذه التسميات ، وعلى الرغم مما يقال ، فقد بدأنا نتلمس فيه يوماً بعد يوم الشعر ، مثله مثل الشعر العمودي ، وشعر التفعيلة . المهم في الأمر أن يكون في النهاية شعراً ، بما تحمله هذه الكلمة من فضاءات ودلالات ، إذا لم يكن من حيث الشكل ، فمن حيث المضمون . وما زال الاجتهاد مفتوحاً أمام المبدعين والنقاد ، لترسيخ هذا النوع من الشعر ، وإن كان في هذا أكثر من رأي ، في أن الشعر يجب أن يخضع لشروط لابد من توافرها ليُسمّى شعراً .

أعود للقول : إن للشاعرة صوتها ولونها المميزين ، وهي تلوّن وتنوّع في قصائدها النثريّة ، وبدت في مجموعتها الثانية أقرب إلى القصيدة القصيرة " الومضة " التي تعتمد العقل قبل القلب ، والذهنية قبل العاطفة ، ولعل لها مبرّراتها في ذلك ، إلا أنني أجد في قصائدها الطويلة شعرية وشفافية وعاطفة صادقة ، من خلال الصور والخيال والتخييل واللغة أيضاً ، وما تحمله من صور مركّبة وانزياحات دلالية متنوعة. وإذا كانت لغتها سهلة ، فهي كما ذكرتُ ، ممتنعة أيضاً ، تجد العاطفة تطفو على الذهنيّة فيها ، من خلال شفافيتها بالشكل والمضمون معاً . ومع ذلك فقد اعتمدت التنويع والتلوين فيما ذهبت إليه ، مما يبرّر لها أسلوبها ومنهجها الشعري .

ولا أنسى في آخر المطاف ، أن أشكر الأديب الكبير حنّا مينه ، على مقدّمته التي كتبها في المجموعة الأولى " العرّافة " ، فقد قرأتُها بعد إتمام القراءة الانطباعيّة للمجموعتين ، وقد جاءت بمنزلة المفتاح الذي شرّع لنا الأبواب والنوافذ ، على ذات الشاعرة وتجربتها ، وعرَّف القارئ على فضاءات الشاعرة وشفافيّتها المقرونة بالإيمان والثقة بالنفس والأمل المزروع في أعماقها " مع تحفُّظي بصدد رأيي في كتابة مثل هذه المقدِّمات " .

أشدُّ على يد الشاعرة في آخر الرحلة ، وأسأل : لماذا لم يُكتَب اسم الناقد الذي أدلى بدلوه على غلاف مجموعتها الثانية مشكوراً ؟ لأقول إنني معه في قوله : " فيا ليت أنها تواصل طريقها معه حتى النهاية " . وأسألها من جديد : لماذا طرقَتْ قبّرتها أبواب الشجر بجناحها اليتيم ؟ فأين الجناح الآخر يا ريم ؟ وشكراً لآفاقكِ التي تغنّي.

الورود في ديوان " بين شرفتي والبحر " للدكتورة ريم هلال
حلقة بحث أعدَّها طالبها في السنة الجامعيّة الرابعة طارق أصلان عام ٢٠١٥

بديهيٌّ أنني ظلمتُ الدكتورة ريم هلال باختياري عملاً لها لأقوم بدراسته ، فأنى لطالب لم يقرأ سوى بضع مقطوعات من الشعر الحديث ، أن يصوغ حلقة بحث في عمل كلَّفَ صاحبته سنين من المطالعة ؟

ديوان " بين شرفتي والبحر " عمل أدبيّ يضم العديد من التأملات والخواطر ، صيغَت بأسلوب أدبيّ عالٍ ، وفيها تسافر شاعرتنا بقرائها إلى عوالم النقاء والخيال والصفاء .

دلالات الورود في " بين شرفتي والبحر " :

ضجَّ ديوان " بين شرفتي والبحر " بشتّى أنواع الورود ، التي يفوح عبقها مع كل مقطوعة شعريّة ، وقد تتبَّعتُ دلالاتها لأقدمها باقة لكم أصدقائي .

دلالة الحياة :

ترى مبدعتنا في تفتُّح أزاهيرها رمزاً للحياة وإشراقها ، فتفتُّح بنفسجتها أضفى السعادة والفرح على نفسها ، فكلما أثقلَت الحياة وهمومها على كاتبتنا ، لجأت إلى أزهارها ، لتستمدّ منها طاقة الحياة وطاقة الطبيعة . تقول في مقطوعة " عيد " :

تفتَّحَت بنفسجتي

مباركٌ شرفتي

دلالة الطفولة :

لطالما تحدثت شاعرتنا عن الأطفال في ديوانها هذا ، فقد رأت فيهم امتداداً لنقائها وصفائها ، فأضافت إلى ورودها رمز الطفولة ، لتزيدها جمالاً على جمال . ومبدعتنا في هذا الجانب أشبه بأم حنون تراقب صغارها ، تحنو عليهم ، تخوض معهم تلك الأحاديث العذبة التي تدور بين الأم وأطفالها . ويظهر هذا جليّاً في مقطوعة " فضول " ، إذ تتحادث المبدعة مع صغيرتها البنفسجة مجيبةً عن تساؤلاتها البريئة تقول :

– ما اسمي ؟

– بنفسجة

تشبَّثَتْ بأناملي :

من لوَّنَني ؟

وتوحي صورة التشبُّث بالأنامل مدى حذاقة المبدعة في إيصال صورة الطفولة ، بأدقّ تفاصيلها البريئة . وتقدّم المبدعة في مقطوعة " شغب " صورة فنيّة رائعة ، فتُظهِر أزهارَها بمظهر الأطفال المشاغبين الذين يتحيَّنون الفرص للفت الأنظار إليهم، فأزهارها أشبه بأطفال صغار يدقّون الأبواب والنوافذ لنلتفت إلى جمالهم . تقول:

لماذا نصحو باكراً

في الصباحات الدافئة ؟

أهي الأزهار

تنقر نوافذنا وتفرّ

لنطلَّ على بهائها ؟

أما في مقطوعة " غيبوبة " ، فتصوِّر المبدعة زنابقها البيضاء ، على أنهم أطفال أشبه بالملائكة ، فلو أنهم أحسّوا بنقاء روحهم دون نقائنا نحن الكبار ؛ لفرّوا منا إلى السماء . تقول :

هل تشعر الزنابق البيضاء
بلانقائنا ؟
هي لو كانت كذلك
لَمَا تفتَّحَت بيننا
ولَفرَّت منّا إلى السماء

دلالة الحنين والذكرى :

لا شك أن الحنين واحد عند الناس جميعاً ، وحتى عند الحيوانات ، ولا سيما الفراش الذي يقطع المسافات الطويلة ، ليصل إلى مسقط رأسه . ورائحة الياسمين هنا ، تسافر بشاعرتنا إلى بيتها القديم ، إلى ملاعب الطفولة ، إلى الماضي الجميل، إلى النقاء الذي كان في الطفولة وما يزال . تقول في مقطوعة " حنين " :

سَلِّم على بيتي
سَلِّم أيها المساء
اعبُرْ نوافذه
عانقِ الأصداء
حَدِّثْ قناديلَه
عَطِّرْ ياسمينَه
أَقِمْ على عتباته
صلاة العشاء

والحنين – كما هو معلوم – أنواع ، أرقاها ذاك الحنين المعطَّش البرّ ، ولا سيما برّ الآباء ، فكل فتاة بأبيها معجبة ، فكيف إذا كان ذلك الأب هو الصديق والأخ والحبيب والأم ؟! نعم ذكراه تضوع في الورد وفي الشتاء ، في الصباح والمساء ، وفي كل مكان . تقول :

من قال غائبٌ أبي

من قال هو في البعيد البعيد

ها أنا ألقاه

كلَّ صباحٍ ومساء

ها أنا ألقاه

كلَّ وردٍ وشتاء

وأشارَ إلى عينين

ضاحكتين على الجدار

دلالة الضعف :

الزنبقة البيضاء رمز للجمال والنقاء ، ولكن سرعان ما تُشَنّ الغارات على هذا النقاء ، لا لذنب ارتكبه ، سوى أنه نقيّ ، هذا النقاء يمرض ويضعف ، لكن لا ولن يموت . تقول المبدعة :

أَمَا أنت زرعتَ بيديك

تلك الزنبقة البيضاء ؟!

فلماذا عدتَ إليها

ودستَ شذاها

بقدمين موحلتين ؟!

دلالة الحزن :

من منّا يسعد بالفراق ؟ لا أحد ، ولكن هي الحياة تأخذ وتعطي . ويظهر هذا المعنى جليّاً في مقطوعة " فراق " التي تصوِّر تجربة شعوريّة قاسية عند فراق الحبيب ؛ فعند حضوره ، كانت الأزهار تزهر ، وتزهر محبوبته معها أيضاً ، وعندما أفل أفلت تلك الأزهار محتضنةً معها تلك الفتاة . تقول :

لم تَعُد تراه

لم يَعُد يراها

هو رحل بعيداً

بعيداً بعيداً

ما وراء الأزهار

ما وراء الليل والنهار

لكنها في كلِّ يومٍ

تتعطَّرُ له

دلالة الموت :

الموت ذلك الشبح الوجوديّ الذي عاش والإنسان منذ الأزل ، وعلى خلاف كثير من الشعراء ، آمنت شاعرتنا ، وسلَّمَت بحقيقة " كل من عليها فان " ، فلا مناصر ومهرب منه إلا إليه ، كما تقول الآية الكريمة : " قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم " . وشاعرتنا هنا لم تُصدَم بموت وردتها ، بل استنكرت على وردتها ذهابَها، وتركَها الشاعرة وحيدة في هذا العالم الموحش . تقول :

أتيتُ وردتي بقهوتها

ماذا ؟!

رحلَتْ ؟!

متى ؟!

لماذا لم تخبرني ؟!

لم تصطحبني معها ؟!

دلالة الحلول والاتحاد :

هربت أديبتنا من مشهد الموت إلى مشهد الحلول والاتحاد ، لكنها هنا لم تتحد مع المطلق ، كما فعل شاطحو الصوفيّة ، بل اتحدت مع الجمال ، مع أزاهيرها ، التي استمدت منها نقاءها وبساطتها ورائحتها النديّة ، والتي رأت فيها امتداداً لذاتها . تقول:

أنا مثلُكِ أزهارَ البنفسج

مثلكِ في روض حروفي

أغفو وأتوقّد

اتحاد الشاعرة مع الطبيعة أعطاها الخصوبة ، بكل ما تحمله من دلالات ، فأزهرت شعراً انثال مداده ، لترسم لنا عالماً جميلاً وضّاءً ، استطاعت أن تبلوره انطلاقاً من بصيرتها النفّاذة .

الخاتمة :

انسجمت شاعرتنا ما بينها وبين الطبيعة ، وما بينها وبين مجتمعها الصغير والكبير ، ذلك ما أدى إلى انسجامها مع ذاتها ، وهذا ما أعطى الطاقة لحواسها ، فرسمَت خواطرها وتأمّلاتها رسماً وضّاءً للنفس البشريّة ، فزرعت الربيع في نفسها ، وعلّمتنا أن نزرعه نحن أيضاً ، علَّمتنا ذلك المثل الصيني الذي يقول : " إذا كان لديك ثمن رغيفين من الخبز ، فاشترِ رغيفاً واحداً لجسمك ، وبثمن الرغيف الآخر اشترِ زهرة ، فتلك غذاء للروح " .

حوار مع الدكتورة ريم هلال

أجراه الدكتور سنان علي علي ديب

ومجموعة من أصدقاء موقع " ملتقى الإبداع السوريّ "

نُشِرَ في الموقع المذكور عام ٢٠١٥

– السؤال الأول :

د. سنان علي علي ديب

تعجز الكلمات عن الوصف أمام حالة عظيمة معطاءة أمثالكِ ، بتجربتكِ الخاصة. هل يجب أن ينتصر اليأس على الإنسان ؟ وهل البيئة الضيّقة قادرة على التشجيع وتجاوز الصعاب ؟ أم يجب أن يكون هناك بيئات محيطة مساعدة ؟ وأمام رحلتكِ الناصعة ، هل كانت البحار هادئة أم تحدّيتِ الموجات العالية ؟ وشكراً لكِ ولحضوركِ .

بدايةً .. أتقدَّمُ بالشكر الجزيل إلى حضرتكَ دكتور سنان ، وإلى أصدقاء الموقع ، لِما تلقّيتُ بهذا الصدد من اهتمامكم وأسئلتكم الجميلة .

كلّ إنسان عبر حياته ، لا بد من أن يمرَّ بلحظات ضعف وإحباط ، بفعل ظروف سلبيّة تحلُّ عليه ، أو تجارب قاسية يضطرّ إلى خوضها ، فعلى الضعف جُبِلنا ، وعلى المفاجآت جُبِلَتْ الحياة ، لكن هذا لا يعني أبداً أن نصل إلى درجة الانهزام أمام اليأس ، وإفساح المجال كي ينتصر علينا ، ويرافقنا على امتداد دروبنا ، بل أن

نجعل منه مجرَّد حالة عابرة ينبغي الانعتاق منها ، بل تحويلِها إلى حافزٍ للتفكير فيما يجب أن يتلوها .

لا شكَّ أن للبيئة دورها في تكوين الإنسان ، وفي صياغة تجربته ، لكن لا ينبغي في الآن ذاته أن نتغافل عن الدور الذاتيّ الذي يرتبط بفرديّة هذا الإنسان ، والذي في رأيي يسبق البيئة إلى مكانه الأول ، وإلا .. فكيف استطاع الكثيرون من العباقرة أن يتجاوزوا بيئاتهم غير المناسبة ؟ كيف استطاع الفنّان ليوناردو دافنشي أن يبني عظمته في لوحاته وفي سواها من الابتكارات الأخرى ؟ وهو قد نشأ في محيط تمثَّلَ في تخلّي أمّه عنه في أشهره الأولى ؟ وفي انصراف أبيه إلى أعماله التجاريّة ؟ إن البيئة السلبيّة في هذه الحال تمتلك دورها الإيجابيّ ، ما دامت تتحوَّل إلى حافزٍ لتجاوزها ، والسعي نحو التعويض عن أجوائها .

أما بشأن بحار حياتي الهادئة أو العاتية ؛ فقد أعدتَني إلى كابوس كان لا يفارق رقاد أمّي في طفولتها ، ذلك بأن بحراً أسودَ يفيض على مدينتها ، إلى درجة غمره إيّاها ، وأنه يلاحق في طوفانه أمّي التي كانت تفرُّ منه مرتعدةً إلى سطح بيتها . إن بحر أمّي الأسود المخيف الذي تشبَّثَ بليالي طفولتها ، هو ذاته الذي رافقَ طفولتي في يقظتي لا رقادي ، رافقَني بأمواجه وأعاصيره ، لا بزرقته الجميلة وزوارقه البيضاء ، لكن بعون الله تمكّنتُ من عبوره ، والوصول إلى شاطئه الذي عليه الآن نلتقي .

- السؤال الثاني :

دينا إلياس

لقد أعادَني سنوات للوراء اختيار الدكتور سنان لكِ مشكوراً طبعاً .. أيتها المُناضلة ... أعادَني إلى يوم كنتِ تقفين على مسرح المركز الثقافيّ باللاذقيّة لتُغنّي، وبكلِّ ثقة وهيبة وصوت رائع ... صوت قويّ مخمليّ ... كم أطربَني ... سؤالي الآن لماذا توقّفتِ عن الغناء ؟؟ وهل تعدّين الكلمة المُلقاة كمحاضرة تصل للشباب أسرع منها بالغناء ؟؟ وما هي رسالتكِ الآن لشباب اليوم ؟؟ ... لكِ فائق تحيّاتي ومودّتي .

نَعَم .. يا لسعادتي الكبيرة التي كانت تغمرني ، حين كنتُ أغنّي على مسرح المركز الثقافيّ في السبعينيّات ، وأنا أؤدّي بصوتي أغنيات للمطربتين عفاف راضي وفيروز ، وسطَ حفاوة الجمهور اللامتناهية بي ، الجمهور الذي كان يملأ الصالة وصولاً إلى الباب الخارجيّ ، بل إلى الشارع . لكن ما إن تحقَّقَ حلمي ، ودخلتُ عالم الإذاعة ، حتى انثنيتُ عن متابعة طريقي في هذا المجال ، لِما صادفتُ هناك من عراقيل اصطنعوها لي ، يمكن أن أجملها في عدم عدِّهم الصوت الجميل شيئاً مقابل اعتباراتهم الخاصة بهم ، هذا إلى جانب سواها من العراقيل المتمثِّلة في افتقادي الملحِّنين وكتّاب الكلمات الجيّدين ، افتقادي الأغنية التي تصل إلى المستوى المُرضي لي ، إلى جانب ما كان عليّ من واجب أكبر وأهمّ ، وهو متابعة دراستي ، التي ما كنتُ قد تجاوزتُ منها حينذاك سوى المرحلة الإعداديّة . لقد كنتُ أشعر وأنا أمارس مهنة الغناء في الإذاعة ، ولا سيما في سنّي الصغيرة تلك ، كنتُ أشعر ، وكأن كلّ الناس يركنون آمنين في بيوتهم الدافئة ، بينما أنا أتشرَّدُ وحيدةً في الطرقات وسطَ العتم والبرد . غادرتُ غنائي آسفةً ، إلا أنه ظلَّ يعيش في داخلي طوال تلك السنوات ، مما حملَني على أن أستبدل به غناءً آخر ، تمثَّلَ في محاضراتي كما ذكرتِ ، وبصورة أخصّ ، في شعري ، الذي حقّاً وجدتُ فيه غناءً أبتكره بنفسي ، دون حاجة إلى إبداعات الملحّنين والمؤلّفين .

– السؤال الثالث :

غازي الرقوقي

الأستاذة الكريمة ريم .. كونكِ مربّية أجيال ومتميّزة وفاعلة في الشؤون الاجتماعيّة، ولكِ مشاركة في الغناء ، هل الفنّان تختلف تربيته للأجيال عن باقي المجتمع ؟ لكونه يحمل إحساساً وحالة خاصة به ؟ وهل غناء القصيدة يختلف عن الأغاني الدارجة ؟ هل منعكِ وضعكِ مربّيةً ، عن ممارسة الغناء ؟ وما هو رأيكِ في شباب اليوم من الناحية التربويّة ؟ وهل يستطيع الأهل أن يؤدّوا رسالة صحيحة في تربية أولادهم ؟ وهل الحريّة للأولاد هي سلوك صحيح مع هذا المجتمع الذي نعيشه؟

بناءً على كوني أديبةً قبل كلِّ شيء ، فما أفترضه دائماً ، هو أن أكون أديبةَ الروح قبل أديبةِ المداد والورق ، وأن أوظِّفَ رهافتي في كلّ ما أصادفه ، فكيف إذن

بالنسبة إلى علاقتي مع أجيال الشباب الذين يتجدَّدون عليَّ كلَّ عام ؟ أجيال طلابي، الذين لا أرى فيهم سوى أبنائي ، الذين أعدُّ كلاً منهم برعماً يبشِّرُ بحياةٍ جديدة ، حياةٍ لم نعشها نحن ولم ندرك آفاقها .. إنني أجد نفسي دائماً أمام مهمّة رائعة ، وهي أن أتيح لهذه البراعم أن تتفتّح ، وأن أمدَّها بما يعينها على ذلك ، معرفيّاً وروحيّاً ، لكن بالحسنى ، بالكلمة الهادئة ، بالإقناع المريح لنفوسهم الرهيفة ، بمنحهم الحريّة اللازمة للتعبير عن ذواتهم ، عن تطلعاتهم ، ولانطلاقهم وفقاً لِما تملي عليهم رؤاهم، لا وفقاً لِما أقسرهم عليه أنا ، أو يقسرهم عليه أهلهم . إنني من خلال تماسي مع طلابي لسبعةَ عشرَ عاماً ، لا أوافق من يتهمونهم بالتفاهة والانشغال بالأمور السطحيّة ، إنهم جيّدون ، بل رائعون ، ونظيفون ، وإذا سلكوا ما لا يُرضي ، فليس الخطأ فيهم ، بل في الإملاءات التي يتلقّونها ، في التوجيهات التي تُفرَض عليهم من كلّ الجهات ، إنهم رائعون كما أكرّر ، وينتظرون بأبوابهم المفتوحة من يأتيهم بصوته المضيء ، الذي من شأنه أن يبدِّدَ حيرتهم .

وبالنسبة إلى سؤالكَ حول علاقتي بالغناء ، أرجو أن أكون قد قدَّمتُ ما يكفي في إجابتي عن سؤال سابق . لكن فيما يتعلق بالفارق ما بين الأغنية بكلماتها الدارجة والأغنية القصيدة ، إنه كالفارق ما بين أيّ مستويين متباينين في درجة الرقيّ ، ومع هذا ، لا ينبغي أن ننسى أن الأغنية مرتبطة غالباً بأوسع شريحة من الناس ، الشريحة الشعبيّة ، وما يستتبع هذا من بداهة امتلاكها عفويّتها ، أو ضرورة امتلاكها عفويّتها ولغتها البسيطة الدارجة ، التي من شأنها أن تعبِّر عن ذاتهم الكبيرة بصورة أكثر مرونةً وأبعد عن التعقيد .

– السؤال الرابع :

كوكب هامس

أستاذة ريم .. هل أنتِ مع إنشاء حزب خاص بالمرأة على شرط ألا ينتمي لأيّ حزب سياسيّ ؟

من حقِّ المرأة ذلك ، ما دامت تحملُ قضيّةً ، تحتاج إلى تجميع من يتبنّونها ، ويوضّحون مبادئها ، ويعملون قدرَ الإمكان على تحقيقها ، ونقلها من الحلم إلى الواقع .

- السؤال الخامس :

كوكب هامس

ما شعوركِ وأنتِ تسمعين أخبار شبابنا ... حملوا حقائبهم ورحلوا إلى بلاد طلباً للرزق والعمل والاستقرار ؟

أتألَّمُ كثيراً ، وأشعرُ بالإحباط تجاه خسارة الوطن هذه الطاقات التي كان ينبغي توظيفها للنهوض به ، وبالمقابل ، لا ألومهم أبداً ، ما داموا يبحثون عن حقوقهم في العيش المناسب ، وإنْ في بلادٍ أخرى . إنهم لا يبتغون التغرُّب في الأصل ، وهم يهفون إلى ما يتمنّون حيث هم ، لكن ماذا يفعلون إذا لم يجدوا من يغريهم بالسكينة والاستقرار في بلدهم ؟ ماذا يفعلون إذا لم يجدوا من يقول لهم ابقوا بصورة فعليّة ؟

- السؤال السادس :

كوكب هامس

ماذا تودّين أن تقولي لأجيالِنا الصاعدة حاملةِ الشهادات الجامعيّة ؟ ما هو المصير ؟

أودُّ أن أقولَ بدايةً : الخُلُقُ أولاً .. العلمُ ثانياً .. فإذا لم يتواكب الخُلُقُ مع العلم ، فإن هذا الثاني لن يحمل أيَّ جدوى على الإطلاق ، بينما العكسُ ليس صحيحاً ، والدلالةُ على هذا ، أنه ما من أحدٍ يستطيعُ أن يعيِّرَ النبيَّ محمداً عليه الصلاة والسلام بأميَّته ، مادام قد كان على خُلُقٍ عظيم ، في حين يستطيع أيُّ أحدٍ ، وإنْ كان طفلاً ، أن يعيِّرَ من فقدَ خُلُقَه ، ولو كدَّسَ الدنيا بشهاداته العلميّة ، بما فيها تلك التي ترتبط بأعلى الدرجات .

أما الشيء الآخر الذي أبتغي قوله لهم ؛ فهو أن الشهادات العلميّة ، الجامعيّة وما يعلوها ، لن تغدوَ سوى مجرَّد أوراق ، إذا لم تُقرَن بمتابعة من يحملها طريقه المعرفيّة ، بالقراءات الكثيرة فيما تنوَّعَ من المجالات ، إذ ما من اكتفاءٍ مقبول حيال بحر المعرفة الذي لا نهاية لآفاقه ، والذي مهما ارتوينا منه ، لا يمكن الإلمام إلا باليسير منه .

- السؤال السابع :

كوكب هامس

خبّرَتني العصفورة أن صوتكِ رائع للغناء والطرب .. هل مازلتِ تمارسين هواية الغناء ؟ وهل تشعرين براحة نفسيّة عند ممارستكِ هوايتكِ المفضّلة ؟

أرسلتُ منذ قليل إجابتي عن سؤالكِ مع عصفورتك .

- السؤال الثامن :

كوكب هامس

أريد أن أعرف رأيكِ بنشر الثقافة والفنون ؟ فكما نعلَم ... إذا أردنا أن نتعرّف إلى تاريخ شعبٍ ، ما علينا إلا أن نتعرّف إلى فنونه أولاً .

بدايةً .. أنا لا أؤمن بالمقولة التي تحدِّدُ سبيل التعرُّف إلى أمّةٍ ما في الاستماع إلى موسيقاها ، بل يُفترَض بهذا التعرُّف أن يكون شاملاً لما اختلف من مجالات الإبداع ، من موسيقا وأدب وفن تشكيلي وعمران ... أما بالنسبة إلى نشر هذه الإبداعات ، فكم أتحفَّظ حيال الوقت الذي ينبغي أن يتم فيه ، لأنه في رأيي لا يُفترَض به أن يتحقّق إلا في مرحلة تالية لمرحلة التوثُّق مما تمَّ إبداعه ، التوثُّق من الدرجة التي ارتقى إليها ، من مستوى النضج الذي تحقّقَ فيه . لا يُفترَض بأيّ مبدعٍ، أن يقدِّم إبداعه للمتلقّين إلا في وقته المناسب ، كما هي الحال في أيّ ميدانٍ حياتيٍّ آخر ، كما حال الأم التي لا تضع الطعام الذي طهته لأسرتها إلا بعد تأكدها من أنه أصبح صالحاً لتناوله ، وكما حال الزهرة التي لا تتفتح بلونها وشذاها ، إلا بعد أن تكون قد عبرَت الزمن اللازم لتشكُّلها ، وأتاحت الفرصة لآليّات هذا التشكُّل أن تفعل فعلها . كم أتمنّى أن يأخذ بهذا المبدعون الشباب ، الذين يتحيَّنون أول فرصة لإطلاعنا على إنتاجهم ، ويتسرّعون فيه كما لو أنهم يخشون أن يفوتهم الزمن.

- السؤال التاسع :

سورية عبدو

أنا أراكِ بشكل دائم .. ما سرُّ أناقتكِ ؟

أعتقد أن التي تسألينها هنا هي شقيقتي د. رفيف ، لأنها هي التي تلقينها بشكل دائم بفعل كونكما زميلتين في العمل الصحفيّ ، ولأنني وإن كنتُ أهتمُّ بأناقتي ، فلم ولن أصل إلى الدرجة التي وصلت إليها شقيقتي .

- السؤال العاشر :

كوكب هامس

نحن نعلم أن شبابنا اليوم وخاصة التلاميذ تواجههم صعوبات وإعاقة في الدراسة . هل يستسلمون أم يتحدّون الواقع بالإصرار والتصميم ؟؟

في إجابتي الأولى ، تطرَّقتُ إلى عدم استسلامي في تجربتي الخاصة التي عشتُها، برغم ما تخلَّلَها من صعوبات وظلمات ، والتجارب إنْ اختلفت في مظاهرها، فهي تتشابه في جوهرها ، لذلك لا أفترضُ سوى مواجهة ما قد يحول دون بناء حياة سليمة مهما فعلت الظروف السلبيّة فعلها .. لا مكان للفظةِ " الاستسلام " في معجمي .

- تعليق :

كوكب هامس

ولكِ جزيل الشكر ، وللدكتور سنان الذي يلقي النور والضوء ، للتعرّف على مبدعين ومثقفين من بلادي .. وخاصة ونحن في الخارج .. هذا الملتقى جمع أصدقاء من كافّة المحافظات والبلدان العربيّة ، وأصبحنا بقرية صغيرة ... بعدما كنا مُبعدين ومنعزلين عزلة تامة عن الوطن دامت عشرات السنين " التكنولوجيا تتكلّم " .

لكِ وللدكتور سنان كلّ الشكر والتقدير .. وكم أشكر التكنولوجيا التي أحدثت تحوّلاً في حياتنا على مختلف الصعد ، الثقافيّ والاجتماعيّ وسواهما من المجالات التي تتصل باهتمامات الشرائح البشريّة كافّةً . إنني لا أستطيع تصوُّر مدى ما حقَّقَته لي التكنولوجيا في حياتي بصورة شخصيّة ، إذ لا مجال للمقارنة ما بين هذه المرحلة التي أتعايش فيها مع التطوّرات والمرحلة السابقة التي كنتُ أشعر فيها بقرب اختناقي، بعيداً عن التواصل الذي يُرضي آفاقي ، بعيداً عن إمكانيّات نشري ما أكتب من خلاصات فكري وروحي .

- تعليق :

خالد الخالد

لا سؤال لديّ .... كل الاحترام والمودّة لكِ دكتورة .

وكلّ احترامي لكَ .. شكراً جزيلاً .

- السؤال الحادي عشر :

حنين اللاذقيّة

مشكور دكتور سنان .. إذ أتحتَ لنا في هذه الفسحة التعرّف على مثل هذه الشخصيّة الراقية الجميلة ......

لكِ أيضاً كل الاحترام والشكر ..



جمعية العلوم الاقتصادية السورية

فرع اللاذقية

تميز وتقدير

إن اللجنة الإدارية لجمعية العلوم الاقتصادية السورية - فرع اللاذقية

وبمناسبة عيد المرأة العالمي وعيد الأم

تتشرف بان نكرم بعض النساء السوريات الرائدات البناءات في المجتمع

وذلك حرصا على استمرار التقدير والاحترام لكل وطني شريف بناء

وبهذا الخصوص تتقدم بجزيل التقدير والاحترام

للسيدة الدكتورة ريم عبد القادر هلال - أكاديمية متميزة -

متمنين لها مزيداً من التقدم والنجاح

اللاذقية في ٢١ / ٣ / ٢٠١٥

جمعية العلوم الاقتصادية - فرع اللاذقية - في القطر العربي السوري

رئيس فرع الجمعية

الدكتور سنان علي ديب

ما كتبه الفنّان إلياس الحاج عقبَ إخراجه فيلم " موانئ "
الذي وقفتْ فيه الدكتورة ريم هلال عند محطّاتٍ من حياتها
٣١ آب ٢٠١٦

قريباً على قناة سورية دراما ، فيلم " موانئ " ، العبقريّة المعجزة الأديبة الروائيّة والشاعرة الدكتورة ريم هلال .. ولأنها المدهشة حقّاً في تفوّقها بمختلف مراحلها العمريّة والدراسيّة ، إلى أن حقّقَتْ حلمها بالحصول على الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانيّة ؛ فإن الدهشة لم تفارق فريق التصوير ، وهم يتتبَّعون بوحها برهافة عالية ، حول كلّ ما قدّمَتْ وأنجزَتْ ، من بصيرة استثنائيّة لكفيفة وُلِدَتْ في ليلة مظلمة ، فكانت نوراً مشعّاً لأسرتها . لقد أثبتَت وبجدارة كيف تحبُّ الحياة ما استطاعت إليها سبيلاً ، والناس من حولها ، فأدمعَت روحي بوجعٍ لمرّات ، وأدمعَتْ قلبي أيضاً ، غبطةً بلحظاتها ونبرة أدائها وعمقها الإنسانيّ . لكن ما ختمَتْ به الفيلم حول التقاطعات الفكريّة والدراماتيكيّة بيني وبينها ، وحتى حركتها في المواقع وأسلوب استخدام الكاميرا ، وما أنجزتُه في حياتي من أعمال دراميّة ، وما أنجزَتْه هي من إبداع أدبيّ ؛ كان بالنسبة لي أكثر من مدهش ، وهي تختتم في أجمل لحظات الغروب بقولها : ابن حارتي .. ابن بلدي .. شكراً دكتورة ريم ، لأنكِ الأخت الحبيبة لطفولتي .. ابنة حارتي .. ابنة بلدي الذي أكبرُ به ..

عبق الذات في شعر د . ريم هلال
الباحث عطيّة مسّوح
فصل من كتابه " منارات شعريّة " ، منشورات وزارة الثقافة – دمشق ، ٢٠١٧

كثيراً ما يُطلَق على الدكتورة ريم هلال لقب الشاعرة المعجزة ، فلقد وُلِدَتْ تحمل مرضاً في عينيها ، تفاقم حتى كُفَّ بصرها وهي طفلة في مرحلة الدراسة الابتدائيّة . لكنّ الطفلة الكفيفة استطاعت أن تتابع الدراسة وتحقق التفوّق في كلّ مراحلها ، إلى أن نالت درجة الدكتوراه في الآداب ، وغدت أستاذة جامعيّة ، تحبّ مهنتها

واختصاصها ، وتُمارس عملها بكفاءة عالية كما يقول طلّابُها وزملاؤها . إنّها ذكّرت الناس بعميد الأدب العربي طه حسين ، الذي كان من كبار المفكّرين والأدباء العرب في العصر الحديث .

وُلِدَت ريم هلال عام ١٩٦٠ في مدينة اللاذقيّة ، وتعلّمت في مدارسها ، وتخرّجت في جامعتها ، وحصلت بامتياز على شهادة الدكتوراه عام ١٩٩٨ ، وهي شاعرة وكاتبة . من مجموعاتها الشعريّة : اسمي والأرض – بين شرفتي والبحر – تساؤلاتي. ومن كتبها النثرية : البصر والبصيرة ، وهو سيرة ذاتيّة غارقة بالشفافية ، عابقة بالنزعة الإنسانية ، التي تتجلّى بمحبتها الناس ، وذكرها فضل من أخذوا بيدها في طريقها الصعب .

في كلّ ما تكتبه ريم ، تلوح نزعتها الإنسانيّة العميقة ، وانفتاحها على الآخرين ، وموقفها الإيجابي منهم . وهاهي ذي تقول ذلك في كتابها الذي يضمّ خواطر وومضات تضيء بعض جوانب تفكيرها وزوايا نفسها ، ويحمل عنوان " من مفكّرتي". تقول :

" كلّ إنسان ألتقيه ، أيّاً كان شأنه ، هو باب ينفتح لي ، على أفق جديد " .

تغلب على قصائد ريم هلال سمة القِصَر ، فهي " ومضات شعريّة " كما أطلقتْ عليها . وومضات الشاعرة أنواع ، فمنها ومضة الفكرة . وهي التي تحمل فكرة صغيرة ، أو معنىً جديداً قد يدهشك بغرابته وعمقه . وكمَثَلٍ لهذا النوع نذكر الومضة التالية ، وهي بعنوان " تبايُن " :

أَمَا كلُّنا من طين ؟

كيف بنا إذن

البعض غبار

والبعض نُضار ؟

ومنها ومضة الإحساس . وهي الومضة التي تبوح بإحساس معيّن ، تجاه ظاهرة أو حدث أو حالة ، قد تكون حقيقية أو متخيّلة ، أمّا الإحساس فهو الحقيقيّ أو الصادق ، وهذا الصدق هو الذي يمنح الومضة جمالها ، وسنوضّح العلاقة بين الصدق والجمال في دراسة بعض الومضات . ونضرب مثلاً لومضة الإحساس ،

الومضة التالية التي جاءت تحت عنوان : " حَدَث " وهي من مجموعة بين شرفتي والبحر :

هذا المساء

تفتّحتْ في نفسي جُنينة

أرأيتَها ؟

ومنها ومضة الصورة . وفي هذا النوع تصبح الصورة غاية الومضة ، فالشاعرة تصوّر مشهداً صغيراً ، بسيطاً ، قد يكون من النوع العاديّ المألوف ، فلا يكون المشهد أو المعنى غاية الومضة ، بل الصورة التي يبدعها خيال الشاعرة . وكمَثَلٍ لهذا النوع ، نذكر الومضة التي تحمل عنوان : " هدوء " ، من المجموعة المذكورة :

أوقدَتِ العصافيرُ نجومي

وهبَّت لعتم رقادها

فالمشهد المألوف الذي لا تنفرد الشاعرة برؤيته ، بل يراه الناس كلّ يوم ، هو أنّ العصافير تنام مع غياب الشمس ، وظهور أولَيَات النجوم ، ولا يمكن أن يكون غرض الومضة إبلاغ الناس بهذا الأمر الذي يعرفونه ، ولكنّ خيال الشاعرة بنى من هذا المشهد صورة جميلة ، إذ جعلَ العصافير توقد النجوم ، أي تصنع الليل ، أو تُعلن عن حلوله ، ثمّ تنام . فالصورة هي غاية الومضة الشعريّة .

ومنها ومضة الحكمة . وهي التي تكون الفكرة فيها حكمة استخلصتها الشاعرة من خبرتها الحياتيّة ، تطرحها للقرّاء بثوب شعريّ ، يجعل الحكمة شبه متوارية أحياناً . وكمثال لهذا النوع ، نذكر ومضة جاءت بصيغة التساؤل في مجموعة " تساؤلاتي " :

ماذا يُنصفني من مظالم الأرض

سوى موازين السماء ؟

فكأنّ الشاعرة تُطلق للقرّاء حكمتها ، التي مغزاها أنّ العدل الحقيقيّ هو عدل السماء لا عدل الأرض .

ومنها ومضة الموقف . وهي التي تعلن الشاعرة فيها موقفها تجاه قضيّة ما ، كبيرة أو صغيرة ، أو تجاه حالة ما ، ذاتيّة أو موضوعيّة . ومن الأمثلة لومضة

الموقف المتعلّق بقضيّة موضوعيّة ، نذكر الومضة التالية ، وهي تحمل عنوان : " حرّيّة " ، نأخذها من مجموعة بين شرفتي والبحر :

من يزيح قيودي ؟

لأهرِّبَ إلى الأفنان

بلابل القضبان

ففي هذه الومضة لا تكتفي الشاعرة بتمجيد الحرّيّة ، متجلّياً بالرغبة في الخلاص من القيود ، وإنما تعبّر عن ربطها حرّيّتها الشخصيّة بالحرّيّة العامّة ، الحرّيّة التي تتّسع ، وفق رؤيا الشاعرة ، لتشمل كلّ مظاهر الحياة ، وكلّ الكائنات الجميلة ، وبهذا تكون قد عبّرت عن موقفها من الحرّيّة ، ومن علاقة الخاصّ بالعامّ فيها " قيودي " ، وعن إسهام الإنسان الحرّ في نشرها " لأهرِّبَ " . وكمَثَلٍ لومضة الموقف المتعلّق بقضيّة صغيرة ، ذاتيّة ، نذكر ومضة من المجموعة ذاتها ، بعنوان " رسالة":

سلامي إلى كلِّ بلبلٍ

سلامي إلى كلِّ غصنٍ

بلابلي

أغصاني

هلّا أتاكِ سلامي ؟

فالموقف الذي تعبّر عنه هذه الومضة ، هو حبّ الشاعرة الطبيعة ، في القسم الأوّل ، ورغبتها في أن تُدرك الطبيعة أنها تحبّها ، في القسم الثاني .

نجد أنواع الومضات هذه في شعر شعراء قصيدة الومضة ، وبخاصّة في ومضات قصيدة النثر . غير أنّ أهمّ ما يميّز ومضات ريم هلال ، على اختلاف أنواعها ، ويكاد يكون سمة ملازمة لشعرها ، هو بروز الذات فيها ، سواء أكانت الومضة موضوعيّة أم ذاتيّة . فحتّى في ومضة الحكمة التي ذكرناها ، وجدنا الذات الحاضرة ، التي هي مصدر الحكمة وغايتها ، وذلك من خلال استخدام ضمير المتكلّم في قولها : " ينصفني " .

فذات الشاعرة المبدعة تفوح في ومضاتها طيباً يملأ نفسها ، وينتقل إلى القارئ فيملأ نفسه أيضاً .

ولعلّ القارئ يتلمّس بروز الذات في شعر ريم هلال ، وأدبها كلّه ، من لحظة قراءة عناوين كتبها ، وبخاصة الشعريّة . فمن مجموعاتها الشعريّة : اسمي والأرض– بين شرفتي والبحر – تساؤلاتي ، ومن كتبها النثريّة : من مفكّرتي . إنّ " ياء المتكلّم " حاضرة في العناوين المذكورة كلّها ، وهذا يعني أنّ أدبها هو أدب الذات، أدب القلب والوجدان ، أدب الصدق الفنيّ . إنّ الأدب الذي يتناول القضايا الموضوعيّة ، بحياديّة ، ويعبّر عن موقف الكاتب منها تعبيراً عقليّاً صرفاً ، هو أدب ضعيف شعوريّاً ووجدانيّاً ، وإن كان أميناً في تصوير الواقع . ومعروف أنّه إذا تعاظمت النزعة العقليّة في الأدب ، على حساب الخيال والعاطفة وتصوير الإحساس، فإنه يخرج من إطار الأدب . وعند ريم هلال ، لا يكون الأمر كذلك ، فكلّ مقاربة لقضيّة موضوعيّة تمرّ عبر الذات ، وكلّ فكرة تأتي متمازجة بالإحساس بها . إنّ الصدق الفنّيّ هو الصدق في تصوير المشاعر ، وهو شرط ضروريّ لجمال الأدب وسموّه ... وهو سمة ملازمة لشعر ريم كما ذكرنا .

لنأخذ – على سبيل المثال – هذه الومضة التي تعرض فكرة هامّة وعميقة ، فكرة العلاقة الجدليّة بين طرفَي ثنائيّة الرقّة والقسوة :

أنا أمام عصفورٍ وليد

أجثو ملبّية

أنا أمام تقطيبةِ نسرٍ

أستعير دماء لبوة

فسنجد أنّ الشاعرة عرضت هذه الفكرة من خلال ذاتها ، مستخدمة ضمير المتكلّم، الذي يُحيل إلى تجربة ذاتيّة ، أو تجاربَ عديدة خاضتها الشاعرة ، علّمتها أن تكون قويّة وقاسية في مواجهة القساة الظالمين ، ورقيقة ليّنة في التعامل مع الضعفاء والأبرياء والمظلومين . ليس قولنا إنّ ضمير المتكلّم يُحيل إلى تجربة ذاتيّة مجرّدَ استنتاج توحي به فكرة الومضة ، وإنّما هو حقيقة تبوح بها الشاعرة في سيرتها الذاتية " البصر والبصيرة " ، وتؤكّده في " من مفكّرتي " . ففي " البصر والبصيرة "

يلمس القارئ تمييز الكاتبة من يتحلون بالرقة ممن يميلون إلى الأذى بين من عاشرتهم . أما في " من مفكّرتي " ، فهي تؤكّد قسوة ، بل توحّش بعض من عاشرتهم :

" حين استحضرتُ إحدى معلّماتي القاسيات التي رافقت السنة الأولى من دراستي ، اتّجهتُ تلقائيّاً إلى المقارنة بينها وبين أنثى ذئب ، التقت طفلاً بشريّاً في غابتها ، إذ بدلاً من أن تفترسه ، وتمارس حقّها الغريزي في كسب بقائها ، أخذت تحنو عليه وتُرضعه ، إلى أن جعلته طفلها ، واحداً من أفراد أسرتها . ترى .. هل الإنسان حين يقسو ، يصبح أكثر ضراوة من وحوش الغابات ؟ " " من مفكّرتي – ط ١– ٢٠٠٩ دار المرساة – اللاذقية " .

مع أمثال هذه المعلّمة القاسية ، تعلّمت الشاعرة أن تكون لبوة . لكن ، حين ندقّق في العبارة ، يتبيّن لنا أن القسوة ليست من طباع هذه الشاعرة الرقيقة ، فهي حين وقفت في حضرة الرقّة والجمال ، تصرّفت على سجيّتها :

أنا أمام عصفورٍ وليد

أجثو ملبّية

ولكنّها ، حين صادفت نسراً ، لم تجد في ذاتها القسوة التي تواجهه بها ، فاستعارت دماء اللبوة .. فكلمة " أستعير " ، تؤكّد غياب القسوة عن طبع الشاعرة . هذه الرقّة التي تُعامل بها عصفوراً ، تُعامل بها كلّ ما هو جميل :

ألا يشكر الورد أصابعي

حين تُلامسه برفق ؟

وحتّى حين لا تستخدم ضمير المتكلّم ، كما في الومضة التي تحمل الفكرة ذاتها ، أي فكرة وجود القسوة والرقّة ، الخير والشرّ معاً في الحياة :

لماذا نبت السوسن والشوك

في كوكب واحد ؟

حتى في هذه الحال ، يستنتج القارئ أنّها تطرح فكرتها بعد تجربة ذاتيّة ، أي إنّ الفكرة لم تصبح ومضة شعريّة إلّا بعد أن انصهرت في مجمر الذات .

وتُعلن الشاعرة في أكثر من ومضة ، وأكثر من كتاب ، أنّها ابنة الطبيعة التي صنعتها ، وأنّ رقّتها الفطرية ، هي هبة من مظاهر الطبيعة الرقيقة الجميلة المعطاء، مارستها الشاعرة بعفوية في طفولتها ، ثمّ تعاملت معها بوعي ، بعد أن كبرت وصقلتها الحياة . لقد منحتها الطبيعة قماش الرقّة ، ثم حاكت هي من هذا القماش شخصيّة كالطبيعة رقّة وجمالاً وعطاء . هذا ما تقوله الشاعرة في ومضة بعنوان : " خيوط " ، في مجموعة بين شرفتي والبحر :

في يوم ميلادي

حضرت إلى بيتي بشائر الأرض والسماء :

البحار والقمر

العشب والمطر

البلابل والنجوم

الغصون والسَحَر

ومنحني كلٌّ خيطاً بلونه

خبَّأتُ في كفّي هداياي

إلى أن صرتُ في عمْر حائكة

وتقترن الرقّة بسموّ المشاعر عند ريم هلال . فلنقرأ هذه الومضة ، وهي بعنوان " خفاء " من مجموعة بين شرفتي والبحر :

هو ذا نزيفي

فأين دمائي ؟

هو ذا حريقي فأين ناري ؟

الشاعرة وحدها تُحسّ بآلامها ، فروحها تنزف ، ونفسها تحترق ، من غير أن يعلم أحد . إنّ استتار الألم هذا هو أحد تجلّيات تسامي الشاعرة ، التي حين تبوح بآلامها، تحرص على أن تمزج الألم بشيء من الفرح ، أو تُرفقه بعزاء ما . ولا أظنّ الشاعرة تفعل ذلك من أجل تخفيف وقع الألم عليها هي ، فهي ليست في حاجة لمثل هذا التخفيف ، لأنّه ألمها الذي تحمله ولا تنوء بحمله ، بل تعتزّ به ، فهو رفيقها الذي اعتادت رفقته :

" لماذا لا تنسى أحزاني يوماً

أن تستيقظ معي ؟ "

وليس القصد من السؤال هنا ، التعبير عن الضيق أو التذمّر والاستنكار ، وإنما القصد منه هو التقرير ، هو تأكيد فكرة أنّ أحزانها لا تفارقها ، وحزن الشاعرة هو الذي يسمو بالنفس إلى مراتب روحانيّة عُليا :

ألا تذوب المسافات

ما بين الله والحزانى ؟

وها نحن أولاء نتحدّث عن الحزن في معرض الألم ، أو نجعلهما صنوين على ما بينهما من اختلاف ، لكنّنا لم نفعل ذلك سهواً ، فالشاعرة تعتزّ بكليهما ، وهما ينتميان إلى حقل نفسي واحد ، أو حقلين متقاربين .

قلنا إنّ الشاعرة لا تنوء بحمل ألمها ، وكيف تنوء بحمله وتسعى إلى تخفيف وقعه ؟ كيف وهو مصدر إبداعها ، كما قالت في ومضة أخرى ، لم تسمّها ومضة ، بل عدّتها خاطرة من خواطر " من مفكّرتي " :

" ما صلة القربى رفيقي ، ما بين الألم والقلم ؟ هل هي أنّ أوّلهما مداد ثانيهما ؟ "

لذلك أزعم أن الشاعرة ترغب في تخفيف وقع ألمها على القارئ الرقيق الحسّاس ، لا على نفسها .. وقد يجد بعض القرّاء في قولي هذا ما يتناقض مع طبيعة شعر البوح الذاتيّ ، ومنه شعر ريم هلال ، ويبعده عن غايته الأساسيّة التي هي نقل أحاسيس الشاعر وهمومه إلى القارئ . لكنّنا أمام شاعرة وصل بها الرهف إلى درجة من التسامي ، جعلتها ترأف بالقارئ وتأنف من أن تخدش مشاعره . فهي إذا خدشت إنساناً ما ، تتألّم قبل أن يتألّم ، وربّما أكثر ممّا يتألّم . تقول في ومضة أخرى من الومضات التي تخفّت في ثوب خاطرة ، وضمّتها مجموعة خواطر " من مفكّرتي " :

" إذا ما خدشتُ إنساناً ، لماذا أتألّم أنا ؟

لماذا تسيل دمائي أنا ؟

هل لأنّ نفسنا البشريّة الواحدة

التي منها نبتنا

تجول أبداً فيما بيننا ؟ "

ويؤكّد استنتاجنا هذا ، أن الشاعرة دأبت على جعل ألامها وتجاربها المريرة رصيد حياةٍ ، وخبرة تمكّنها من إسعاد من يعانون بعضاً ممّا عانته :

" لو لم أكن بالأمس وحيدة ، فمن أين كان لي اليوم ، أن أكون واحة للوحيدين ؟ "

ولا أظنّ أن فكرتنا هذه تهتزّ أمام ومضة أخرى تسأل الشاعرة فيها عن وقع شعرها في نفس القارئ ، أو في نفس الحبيب :

ألا تلفحك سطوري

بلهيب حرائقي ؟

فما تريد قوله ، كما أظنّ ، هو أنّ شعرها ليس إلّا بوح آلامها ، وأنها تتوقع ، وتأمل، أن ينقل إحساسها بالألم إلى القارئ ، فيتفاعل معه ويشاركها به . إنّ الاستفهام المنفيّ الذي تحمله " ألا " يتجاوز غرضه ، إلى التحريض على التفاعل والمشاركة .

وتدرك ريم هلال ، وهي تتطهّر بآلامها وجراحها ، أنّ الحياة ذاتها ، تُمجّد المتطهّرين بالألم . تقول في ومضة أخرى بعنوان " عزاء " من مجموعة بين شرفتي والبحر :

أَكُلُّ هذه الأقاحي

لعناق جراحي ؟

في هذا القول عزاء للنفس ، فجمال الطبيعة – ممثّلاً بالأقاحي – يعانق جراح الشاعرة المؤلمة ، ممجّداً ومعزّياً ، لكنّ في هذا القول تسامياً وترفّعاً عن الشكوى أيضاً ، إذ إنّ الجراح وآلامها ليست مصدراً للتعاسة ، بل هي مصدر للاعتزاز ، لأنها تجعل أقاحي الطبيعة وأقاحي المجتمع تركض إلى الشاعرة وجراحها معلنة حبّها.

ذاتيّة الشاعرة إذاً ، ليست ذاتيّة سلبيّة ، ليست مفصولة عن الآخرين والإحساس بهم ألماً وفرحاً . ففي الومضة السابقة ثمّة جمال يحتضن جراحها ، وهو ليس جمال الطبيعة وحده ، بل جمال البشر الطيبين كذلك ، لأنّ كلمة " الأقاحي " تجاوزت دلالتها المحدودة إلى دلالة أوسع .

لكنّ ومضة أخرى بعنوان " بذور " تسير في الطريق ذاته سيراً معكوساً ، فالشاعرة هي التي تمجّد الآخر :

لو أقصُّ عليك

كيف زرعتُ قصائدي

كيف سقيتُها

كيف ناجيتُها

كيف لممتُ ثمارها

لأزفّها ليدَيك

وقد يكون الآخر هنا حبيباً أو صديقاً أو أخاً ، لكنّه قد يكون قارئَ شعرها ، وقد يكون الإنسان أيضاً ، كلّ إنسان . وقد تدلّ كلمة قصائدي على أشعار الشاعرة ، وقد تدلّ على كلّ شيء في حياتها ، أو حياتها ذاتها .. وهكذا فإنّ ذات الشاعرة تتحقّق وتنمو من خلال هذه العلاقة التبادليّة بينها وبين الآخر .

ولا يقتصر بروز الذات عند ريم هلال على التعبير عن هموم خاصّة ، بل يتجاوز ذلك إلى التحليق في فضاءات كونيّة رحبة ، والتعبير عن كُبريات الهموم الذاتية ، تلك المتصلة بقضية الحياة والموت مثلاً ، وهي بلا شكّ قضيّة الإنسان الفرد الكبرى ، أو المتصلة بطبائع الحياة الإنسانيّة ، أو بعلاقة الإنسان بالإنسان وما يحكمها ويسيّرها .. وغير ذلك .

في مثل هذه القضايا ، نلمس أفق الشاعرة الواسع ، الذي يزيده اتساعاً الانفراد والتأمّل :

أوصدتُ عليَّ حجرتي

سكنتُ إلى مقعدي

ما أوسعك مداي !

هذا التأمل يجعل الإنسان قادراً على سماع صوت الطبيعة الذي ثمّة بين البشر من لا يسمعونه ، ولا تتردّد الشاعرة في وصم هؤلاء بالصمم :

كيف لا أسمّيهم صُمّاً

من لا ينصتون معي ..

إلى قيثارة البحار ؟

إنّه التأمّل المثمر ، الذي يولّد الفكرة تلو الأخرى . ففي أكبر قضايا الذات ، وهي قضية الحياة والموت ، يقود التأمّل العميق الشاعرة إلى فكرة وحدة هذين النقيضين ، فموت الإنسان وحياته يبدآن معاً ، ويسيران معاً ، يغذّي أحدهما الآخر ، إلى أن ينتهيا نهاية كلّ نقيضين متلازمين ، إذ يزولان معاً ليولد من زوالهما شيء جديد . تقول في ومضة حواريّة بعنوان " رحيل " :

– ذاك يوم ميلادكِ

– بل يوم إيقاد فتيلي

أنا الشّمعة الراكضة في الذوب

العمر شمعة تبدأ السير في طريق نهايتها من لحظة اشتعالها . هذه الصورة الجميلة التي تستهوي القارئ ، تستهوي الشاعرة أيضاً ، فتعيد بناءها بشكل جديد ، على صيغة سؤال :

هل شموعي الذائبة

شيء من رحيلي ؟

وتتفرّع من قضية الحياة والموت قضايا أخرى ، فموت الفرد مثلاً ، لا يعني الكثير في نظر المجتمع ، ولا هو مأساة بمعايير فلسفة الحياة والموت ، وهو جزء من الحياة ذاتها وفق نواميس الطبيعة ، لكنّه يعني ما يعنيه في نظر الأب ، أو الأمّ التي ترى الحياة من كوّة أمومتها :

في غابةٍ ثريّة

سقطت وريقة

تعزّت الغابة :

وُريقةٌ واحدة ..

تهدّجَ غصنٌ :

لكنّها ابنتي

فالنظرة إلى الموت ، كما النظرة إلى كلّ شيء ، هي نظرة نسبيّة ، والشاعرة التي تعرف ذلك لا ترى الموت نهاية كما يراه معظم الناس ، بل تراه استمراراً لمسيرة

الحياة ، ألم تقل في ومضتين تطرّقنا إليهما إنّ الحياة والموت يسيران معاً ، وإنّ نهاية حياة كائن حيّ ما ، هي في الوقت ذاته نهاية موته ؟ أليس تعرّي الشجرة من أوراقها ضروريّاً لولادة جديدة ، كما توحي لنا الومضة السابقة ؟

ومن المنطلق ذاته ، تنظر الشاعرة إلى كلّ يوم من أيّامها . لقد جرى الإنسان على أن يقول عن اليوم الآتي : غدي ، وعن اليوم الذي مضى : أمسي . وتتكر الشاعرة هذين المصطلحين متسائلة في ومضة من مجموعة " تساؤلاتي " :

لماذا أقول : غدي

وهو قد لا يكون لي ؟

وفي ومضة أخرى :

لماذا أقول : أمسي

وقد فرّ من أصابعي ؟

قد لا يكون غدي لي ، فقد يأخذه الموت مني ، بل يأخذني منه ، وقد يسلبني متعتي به هَمٌّ أو شَرٌّ طارئ ، فأقول : ليت هذا اليوم لم يكن . أمّا اليوم الذي مضى ، فهو لم يعد موجوداً إلّا في الذاكرة ، ولأنني لا أستطيع تغيير شيء جرى فيه ، أو العودة إليه ، فهو ليس لي أيضاً . أهي نزعة خيّاميّة راودت الشاعرة ؟ " غدٌ بصدر الغيب واليوم لي " ، هذا ما قاله عمر الخيّام ، داعياً المرء إلى العيش في يومه وليومه :

لا تشغل البال بماضي الزمـان   ولا بآتي العيش قـــبل الأوان

واغنـــم من الحاضــــر لذّاته   فليس من طبع الليالي الأمان

لا أظنّها نزعة خيّاميّة ، فالخيّام يدعو إلى اقتناص الملذّات ، وعدم الاكتراث إلّا للّحظة ، أمّا الشاعرة فهي تتساءل عن مكانة الأمس والغد في حياة الإنسان ، عن الماضي والمستقبل من وجهة نظر الحاضر ، وعن جدوى نسبتهما إلى الذات التي لا تستطيع التحكّم بهما ، أيمتلك الإنسان فعلاً ما لا يمكنه التحكّم به ؟ هكذا تسمو ريم هلال بالفكرة البسيطة التي قد ترد إلى الذهن فجأة ، أو عرَضاً ، إلى مستوى السؤال الفلسفي الجادّ والمبتكر . وهذا دأب شعر الرؤيا ، الذي قد يكون ومضة أو قصيدة طويلة . لقد جاء هذا السؤال الفلسفي بصيغة حادة ومباشرة في شقّه الأوّل :

لماذا أقول : غدي

وهو قد لا يكون لي ؟

لكن الشاعرة لم تلبث أن زيّنته بصورة بديعة مبتكرة في شقّه الثاني :

فرّ من أصابعي

إنها مقاربات فلسفية ، لقضايا ذاتيّة / كونيّة ، أو لِنقُل لقضايا ذاتيّة تعطيها رؤيا الشاعرة بعداً مصيريّاً كونيّاً . ولعلّ هذه المقاربات ، وهذه الأمداء الواسعة ، هي من خصائص قصيدة الومضة . وقد برعت شاعرتنا في ترويض هذه الخاصة ، لتأتي ومضاتها رشيقة ، كثيفة ، ملوّنة ، وتكون كلّ ومضة لمحة جميلة ، معنىً ، وصورةً، وإنشاءً .

خاطرة أحمد عبد الرحمن

بشأن الدكتورة ريم هلال

يحدث أن يتحدث أحدهم أمامي مفاخراً ، بأنه صديق لمسؤول كبير ... وآخر بأنه صديق لرجل أعمال شهير ... وربما من هو صديق لممثل ملأ صيته الأنحاء... ومع أنني لا أقلّل أبداً من دواعي فخر أولئك بصداقاتهم ؛ إلا أنني أغبط نفسي على أن الدكتورة ريم هلال أصبحت صديقة لي ...

خاطرة زهراء ضاما

تعقيباً على حضورها مناقشة الدكتورة ريم هلال لنيل درجة الدكتوراه

وكان يوماً شافياً ..

لن أنسى تفاصيله أبداً

إشراقتكِ وكل من حولكِ

عيونهم إليك ترحل ..

وقلوبهم بك تنبض ..

ولأجلك يصلّون .

لم أجد غافلاً بين الحاضرين أو مثرثراً ..
كنتِ بهيَّةَ الطلعة .. نوَّارةَ الوجه ..
واثقةَ الخطوةِ والكلمة .. دافئةَ المشاعر ..
أمّا من حضر من السادةِ المشرفين فكانوا كأنهم في حضرةِ صلاة خاشعة ..
ينتظرون إجابتكِ المقنعة ويتبادلون نظراتِ الإعجاب فيما بينهم ..
عائلتكِ كانت كأن على رؤوسهم التيجان
يخشون إن تحركوا أن يفسدوا عليك يومَكِ الذي طالما انتظرَه معكِ كلُّ من وثق بكِ..
حتى إذا ما جاء وقت التصفيق ، تحوَّلَتْ القاعة إلى أوبرا ..
والعيون إلى زهور وياسمين وفل وجوري ..
تتوزع بطيبها على الكون بأكمله ..
وكأنها دقَّتْ أجراس الكنائس ..
وانطلقت آيات الحمد والثناء لله الواهب
ربما عجزنا ساعتَها عن وصف الفرح ..
أو كانت كل الأوصاف مبهمة ..
وربما مقارنة اليومين ببعضهما
كانت مثل النور والظلام .. فبدا النور يومَها مهيباً . أَفقَدَنا حتى حسن الكلام ..
دكتورة ريم ..
ولذلك اليوم غنّيتِ منذ الطفولة ..
وسعيتِ منذ أمسكتِ بأساس الإيمان بالفوز .
طُهرُ قلبكِ كان سيِّدَ المجلس يومَها ..
فكان على من ناقشكِ أن يهنّئوا بعضهم بكِ ..
ريم ..
ننتظر كلَّ كلماتكِ ..
ونجاحاتكِ
ننتظر الكثير
أحيّيكِ

خاطرة ازدهار ناصر

تعقيباً على حضورها حفل توقيع كتاب الدكتورة ريم هلال " أحكي لكم "

أيها المبصرون .. ما الذي استطعتم أن تفعلوه خلال مسيرتكم ...؟
بصيرتُكِ غاليتي ريم تفوقُ البصر ..
" أحكي لكم " هي عنوان مجموعة قصص من الواقع ، كانت موضوع التكريم في اتحاد الكتّاب العرب / اللاذقيّة / ..
ما أسعدني بكِ غاليتي ريم وأنتِ توقّعين كتابكِ الجديد ، وتوزّعينه مجّاناً على الأصدقاء والحضور الكريم .. ألف مبارك ..
أعتزّ وأفتخر بكِ صديقتي الدكتورة ريم هلال .. كما أعتزّ بكِ دكتورة رفيف هلال .. أيتها الأختان من ذاك المنبع الطيّب ..
الوالدة دعد صفيّة .. الصفيّة الصافية المعطاءة بلا حدود كم أحبّكِ ..
وأحترمكَ أيها الهلال المنير .. الوالد المرحوم عبد القادر هلال ، الذي أنرتَ ظلمات غابات البشر ، وارتحلتَ بعد أن أكملتَ رسالتكَ في هذه الحياة ، وواجباتكَ تجاه أسرتكَ ، وأوصلتَها برَّ الأمان ...

خاطرة تامي عضيمة هلال

أُم عبد القادر وريم هلال الصغيرَين

كم يصعب وصف حياتها .. أهي مأساةٌ لفقدان بصرها ؟.. أم هي أعالٍ وقمم وإحساس وشفافية وخصب بصيرة ؟..
تعذَّبتْ .. كافحت .. ذاقت الوحدة مراراً .. عاشت طفولتها بظلم شديد من خارج بيتها .. من خارج حضن والديها اللذين رعياها لأقصى الدرجات .. حزِنا وبكِيا كثيراً لتألّمها من وضعها ، ولم يكونا يدريان كم أن لبصيرتها صدىً أقوى بكثير من بصرها الذي كانت تحتاجه ...

طفولةٌ تملؤها التخيّلات .. الحزن .. المشاعر المرهفة .. الحذر من المدرسة توجُّساً من مجتمع لا يملك أدنى مشاعر الإنسانيّة ...

حَضَنَها الوالدان وأشعراها وأقنعاها بأن الحياة هي تحدٍّ وبخاصّة لشخصها ، وزرعا الثقة القصوى في ذكائها وقدرتها على الوصول إلى ما ترجو وتتمنى أو ما تحلم به.. ثقتها بذاتها التي اكتسبتها برغم مشكلتها ؛ دفعتها إلى القبول والرضى وحَمْدِ الله تعالى على ما أعطى وعلى ما أخذ .. أصبحت تدرك أن الله أخذ منها شيئاً وأعطاها بدلاً منه شيئاً أكبر .. أعطاها البصيرة التي أخذها من أُناس كثيرين .. أعطاها روحها التي يملؤها التفاؤل ، يملؤها الإصرار والتحدي للوصول ..

هذه هي ريم .. ريم بنت دعد وعبد القادر .. ريم الرقيقة الجميلة الحليمة الرصينة .. صاحبة الحضور المميَّز .. صاحبة النظرة الثاقبة في الأشخاص والمواضيع .. صاحبة القلم المميَّز .. صاحبة الثقة العالية جداً بالنفس ... صعدت سلّم المجد .. تاركةً وراءها كل ما أُخِذَ منها .. كل ما انتُشِلَ من إحساسها المرهف ... صعدت لتصل نقطة الوصول .. التي يعلنها الزمن بعد جهدٍ عَبْرَ مشوار الدراسة .. هذه النقطة التي لا يصلها أحد وهو يستحوذ على بصره .. لا يصلها إلا القلائل القلائل.. وصلت ذات يوم إلى مناقشة رسالة الدكتوراه في الأدب العربي .. وصلت إلى يوم أحسَّت فيه بما كان يشعر به أبواها ، اللذان ضحّيا وتعبا وكافحا لإيصالها إلى تلك اللحظة التي كانت حلماً ليس إلا ..

ناقشوها جميعهم ، وأبهرتهم بكل ما أعطت ، بكل كلمة وحرف بهما نطقت .. إلى أن وصلت نقطة النهاية ... أصبحت ..

الدكتورة ريم هلال ..

هنيئاً من كل القلب .. هنيئاً لكِ بما أنتِ عليه ... هنيئاً لكِ بوالديكِ .. هنيئاً لكِ بكل ما تحملين من صفات .. هنيئاً لكِ بكِ ..

أنتِ رمزٌ للصبر وعنوانٌ للتحدّي والإصرار ..

تَصَوُّرٌ كتبَه إبراهيم هاشم بشأن الدكتورة ريم هلال بعدَ مئة عام

الزمان : بداية القرن الثاني والعشرين

المكان : ساحة سوريّة الواسعة

الحضور : ربما عشرات الآلاف

الحَدَث : تكريم الأسطورة السوريّة ريم هلال بمناسبة فوز فيلم " البصر والبصيرة " بأكثر من مهرجان ..

وتخليداً لها وُضِعَتْ صورتها على فئة الخمسمئة ليرة

إنّي أرى ذلك اليوم من الآن

كلمة أخيرة

د. ريم هلال

بعدَ أن أنجزتُ كتابيَ الجديدَ هذا " أنا وسطورهم " ؛ كم حرتُ في الغلاف الذي يمكن أن أجعلَه لَه ، قبل أن أنشره إلكترونيّاً على موقعيَ الخاصّ ! كم تردَّدتُ وأنا أتنقَّلُ ما بين اللوحات العالميّة ، التي منها عادةً أنتقي أغلفةَ كتبي ! إلى أن اهتديتُ مؤخَّراً ، إلى إحدى لوحات الخطّ العربيّ ، قد خُطَّتْ عليها الآية الكريمة " ن والقلمِ وما يسطرون " ، إذ يا لَهذا التوافق ما بينها – هي التي أقسمَ فيها الله بالقلم وما يسطرُ به البشر – وبين عنوان مؤلَّفي " أنا وسطورهم " .. وعقبَ إنهائي والفتاة التي تساعدني ، مَهمَّة إضافة الغلاف المذكور إلى كتابي ؛ أحضرَتْ أمّي لنا القهوة ، التي تمثِّلُ عادةً لنا مستراحاً من عناء العمل .. وما إن أخذتُ منها رشفاتيَ الأولى ؛ حتى صاحت الفتاة بجواري مذهولةً : " دكتورة !!! لقد ارتسمَ على فنجانكِ خطٌّ عربيّ" ، استطاعت أن تقرأ منه كلمة " لأجل " ومجموعة من الألفات .. وبعد تداولٍ بشأن فنجاني الذي تمَّ تصويره ، بين المحيطين بي ؛ انتهوا جميعاً إلى قراءتهم ما يشبه كلمة " الله " ، ذلك من فوق أرزةٍ ظهرَتْ كذلك في الفنجان ، وقد انبعثَت منها رسائل بيضاء أو قناديل نحو الأعلى .

برغم أنني لم أكن أؤمن بخزعبلات الفنجان وما يشبهها ، لِما أرى فيها من تطاولٍ على غيب الله ؛ لكن ماذا يعني هذا الذي طرأ على صباحي ؟! أهي رسالةٌ من الله ذاته ؟ بعثَ بها إليَّ مبارِكاً كتابي الذي ارتأيتُ أن أفتتحَه بآيةٍ من ذكرِهِ الحكيم ؟!
